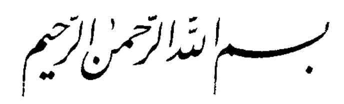
العقيدة الإسلامية

أحمد علي الملا
مجاز في الحقوق - جامعة دمشق

محمد بشير الرز
مجاز في الحقوق والشريعة الإسلامية - جامعة دمشق



الطبعـة الأولـى

١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

عنوان المؤلفين بدمشق

ص. ب : (٥١٣١)

ص . ب : (١٣٤١٤)

هاتف : (٢٢٢٠٩٠)

هاتف : (٧٧٣٧١٩)

هاتف : (٧١٨٧٩٠)

عدد النسخ المطبوعة : (ثلاثة آلاف نسخة)

طبع الكتاب بمطبعة دار الكاتب العربي بدمشق ـ هاتف : (٢١٩٧٣٨)

الإهداء

إلى الرسول العربي، والمربي الحكيم، ومن خاطبه الله في كتابه الكريم

. وإنك لعلى خلق عظيم .

. الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً

لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان

. محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

تراهم ركعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا

. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك

السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله

ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون

وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين

نهدي هذا الكتاب، أملاً في زيادة محبته ورجاءً لشفاعته

صلى الله عليه وسلم

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك
ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك



- واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربـك في نفسك تضرعا وخفية ودون الجهـر من القـول بالفـدو والآصال ولا تكـن من الفافلين .
- قل انني هداني ربي الـى صـراط مستقيم دينـا قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كـان من المشركين . قـل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وانا أول المسلمين .

كتاب الله الكريم

- يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة واصيلا . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما .

- يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا .

- واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا اله إلا هو فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا .

- هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

- يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسو الله فأنساهم أنفسم أولئك هم الفاسقون . لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

- الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا يوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم .

- لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي،فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .

أساس العقيدة الاسلامية

- الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً .
- شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم .
- هو الحيّ لا إله الا هو فاعبدوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين .
- ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم .
- واذا سألك عبادي فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون .
- يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكّر الا أولوا الالباب .
- ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .
- يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم .

من معاني العقيدة الاسلامية

- عن ابي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال :
« كنت خلف النبي (ص) يوما فقال : يا غلام اني اعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، اذا سألت فأسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء ، لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . وفي رواية غير الترمذي .

« احفظ الله تجده امامك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) :
« لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يكذبه ، ولا يحقره . التقوى ههنا ــ ويشير الى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » رواه الامام مسلم .

ولا تناجشوا : لا ينجش بعضكم بعضاً ، والنّجش : ان يزيد في ثمن سلعة ينادي عليها في السوق ونحوه، ولا رغبة له في شرائها ، بل يقصد ان يغرّ غيره ، وهو حرام .

في منظار السنة النبوّية الشريفة

- عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ص) قال :
« من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسّر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهّل الله به طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه »
رواه الامام مسلم بهذا اللفظ .

- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : ان الله تعالى قال: « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحب الي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » رواه البخاري .

ويفيد الحديث : إجابة دعاء من يتقرّب الى الله بالفروض والنوافل وان الدعاء عبادة تظهر صدق العبودية والخضوع لله تعالى .

المقدّمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ وبعد ـ

ان الأمـــة الاســـلامية تملك أسساً مشتركة ، تستطيع بهـا أن تجمـع شتاتها ، وتوحد كلمتها ، فهي أمـــة واحدة ، ذات ديـــن واحد وكتاب واحد ، ورسول واحد ، هذه هي الأصول الثابتة التي تشترك فيها الأمة ، فاذا أدركتها جيداً ، والتزمت بمقتضياتها ، فان ذلك يجعـــل منها أمـــة واحدة تلتقي على : ـ وحدة الغاية ـ وحدة المنهج ـ وحدة القيادة ـ وحدة العقيدة .

وأي خلل أو نقص فيها فان ذلك يؤدي الى استمرار الواقع الأليم ، واقع التفرق والتمزق ، واليك بيـــان تلك الأسس بايجاز[1] :

● **وحدة الغاية :**

ان لهذا الإنسان الذي يعيش على ظهر هـــذه الأرض « غايـــة » يحققها من وجـــوده ، فاذا عرفها وتمثلها في حياته فانـــه يســـعد في الدنيا والآخرة ، وإذا جهلها وأعرض عنها ، يشقى في الدنيا والآخرة .

هذه الغاية هي (العبادة) والطاعة الكاملة لله عز وجل كما قال تعالى :

● « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » الذاريات :/٥٦

(١) ينظر في مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة (العدد الخاص ـ رقم ٦١) ص ١٠٥ ومابعدها ـ كلمة الدكتور أحمد سعد الغامدي بعنوان : (أثر العقيدة الاسلامية في تضامن ووحدة الامة الاسلامية) .

والمسلمون ــ ولله الحمد ــ قد أدركوا هذه الغايــة ، ولكنهم أعرضوا عن تحقيقها (لقصور في التربية) فكان ذلك سبباً في ضعفهم وشقائهم وتسلّط عدوهم عليهم • فلا بد من العودة لتحقيق هذه الغايــة ، والالتزام بمقتضياتها في ميدان السلوك ، لنحقق لأنفســنا (بل وللعالم أجمــع) السعادة في الدنيا والآخــرة •

● **وحدة المنهج :**

وهذا المنهج الذي يجب اتباعــه هو ما أشارت إليه الآيــة الكريمــة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ليس لهذا المنهج إلا مصدر واحــد (وهو الله سبحانه وتعالى ــ الواحد الأحد الفرد الصمد) ، فهــو الذي يضعه لخلقه ويجدّده ، والبشر خلقــه وعبيده : (ولئن كانوا على مستوى اخلاص العبودية لله ــ والاستقامة على طاعتــه) لا يجوز لهم أن يختاروا أو يرفضوا (مع قضاء الله ورسوله) أمراً ، وكما قال تعالى :

● « وما كان لمؤمن ولا مؤمنــة إذا قضى الله ورسوله أمــراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب : / ٣٦

هذا هو حال المسلم مع شــريعة ربّه ومنهاجــه ، فاذا اتضحت هــذه الحقيقة في أذهان المسلمين ، وأشرقت في قلوبهم المؤمنــة تمثّلوها في واقعهم وسلوكهم ، وجمعتهم طاعــة الله وإخلاص العبــادة له ، عــلى الألفة والمحبة والاتحــاد •

● **وحدة القيادة :**

لقد شــاء الله أن يكون الإسلام آخــر الرسالات السماوية في الأرض ، وأن يكون محمد ﷺ آخــر الرسل فيه أكمل الله الدين ، وبه ختم المرسلين ، فلا دين بعد دينه ، ولا نبي بعده •

فالإسلام هو الدين الذي رضيه الله لنا ، تتعبّده به ، ونلتــزم بشريعته ، والرسول محمد ﷺ هو القائد الذي يجب أن نسير خلفــه ، ونقتفي أثــره ،

هذه حقيقــة يجب أن تتضح في أذهان المسلمين ، إذ بقدر وضوحها والتزامهم بها بقدر ما يتيسّر للأمة ، الاجتماع والاتحاد ، وكما قال تعالى :

● « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الحشر : /٦

● « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[٢] لمــن كان يرجــو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » الأحزاب : /٢٠

---

(١) شخصية الرسول النبوية : (الرسول العربي المربي) :

لايكاد الباحث يلقي نظرات في كتاب الله عز وجل ، حتى تتجلى له شخصية الرسول الكريم واضحة السمات ، بينة المعالم ، شخصية ارسلها الله الى الانسانية كافة ، في اضخم مهمة وانثل امانة .

لقد ارسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، دين الفطرة الانسانية ، دين الحكمة والرحمة والعدالة ، من طبيعة الوجود ليصل هذا الحق الى كل أذن ، ويلامس كل قلب ، قال الله تعالى:

● ـ انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا » البقرة : /١١٩

● ـ يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، داعيا الى الله باذنه وسراجــا منيرا » الاحزاب : /٤٥ . وهذا الحق الخالص المبين ، تنزل على الرسول قرآنا عربيا ، أوحــى به الله الى رسوله ، ليحمل عبء الانذار والتبليغ .

● ـ وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا ، لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمــع لاريب فيه » الشورى / ٧ . فهذا القرآن الكريم كلام الله وآياته البينات حملها جبريل الامين ، واقراها الرسول الكريم :

● ـ اقرأ باسم ربك الذي خلق » العلق : /١ .

● ـ كتاب أنزل اليك فلا يكن صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » الاعراف: /٢

ولم يكن ارسال محمد بن عبد الله ﷺ الا امتدادا لارسال الرسل الى الناس .

● ـ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » آل عمران : /١٤٤

● ـ انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » النساء : /١٦٣

وكما أن ارسال محمد بن عبد الله كان امتدادا لارسال الرســل من قبله ، كانت الرسالة التي جاء بها امتدادا لرسالة الله الواحدة الى الانسانية ، فدين الاسلام الذي يقوم على التوحيد هو الصورة الكاملة الواضحة لدين الله الواحد ، الذي بعث به الرسل على فترات من الزمن وهو الصورة النهائية الشاملة لرسالة الله الواحدة القديمة منذ ان ارسل الله ابا الانبياء ابراهيــم عليه السلام . قال تعــالى :

● ـ ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وماكان من المشركين » النحل: /١٢٣

ومن هنا كانت رسالة الاسلام مصدقة لما سبقها من الرسالات السماوية التي تنبع جميعــا من ينبوع الحق الواحد . كما قال تعالى « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » الصافات :/٣٧ .

ينظر كتاب شخصية الرسول في القرآن الكريم للدكتور محمد علي الهاشمي .

لقد كان نزول الوحي على الرسول الكريم بدء عهد الرشد الانساني ، الذي أكمل الله فيــه

=

للانسان شريعته ، وأتم عليه نعمته ووضع له منهج حياة ، خالدا دائمـا ، ثابتا في أصولـه لا يتغير ولايتبدل ، متطورا متجددا في فروعه يوائم الانسان ويلبي حاجاته الطارئة المتغيرة ، على اختلاف الازمـان والامصـار .

ان هذا المنهج الرباني الخالد الذي أوحاه الله لنبيه محمد ﷺ كان رحمة كبيرة للانسان ، يوم أنزله الله ، ومايزال ، وسيبقى المنهج الاكمل الذي يحقق للانسان التوازن في حياته الماديـة والروحية كما يحقق للمجتمعات التكافل والامن والاستقرار ، فالجميع في المجتمع الاسـلامي اخـوة متعاونون ، تسود أمرهم الشورى ، ويشيع في حياتهم الحب والتعاطف والتكافل ، وينتفي منهـا التشاحن والاثرة (الانانية) والاستغلال . وهذا لايتحقق للانسان الى في ظلال هذا الدين الذي أوحاه الله الى نبيه محمد ﷺ ، ومن ثم كان هذا الرسول الكريم رحمة الله المهداة الى البشر في جميع أزمانهم وأوطانهم ، قال تعالى :

● « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » الانبياء : ١٠٧/

الرسول المبلغ رسالة ربه عز وجل : لقد شاءت ارادة الله الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى واستعداد للضلال ، قال تعالى :

● « ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب مـن دساها » الشمس : /٧ــ١١

● « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، ومايغني عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى ، وان لنـا للاخرة والاولى » الليل : /٥ ــ٩

وان يدع مشيئتهم حرة في اختيار اي الطريقين ، وزودهم بالعقل يرجحون به احد الاتجاهين بعد مابث في الكون من آيات الهدى ، مايراه الانسان بعينه ويحسه بقلبه وعقله ، حيثما اتجـه آناء الليل واطراف النهار ، ثم شاءت رحمة الله بعباده ، بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحـده فوضعله ميزانا ثابتا في شرائعه التي جاءت بها رسله ، يثوب اليه العقل ، كلما غم عليه الامر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه ، عن طريق الميزان الثابت الذي لاتعصف به الاهواء . (ميـزان الوحي الالهي ــ الذي يرقى بالعقل الى كماله المنشود) .

وانزل الله شرائعه متدرجة ، الى أن أخذت شكلها الاخير في رسالة الاسلام التي حملهـا محمد ﷺ فبين للناس جميعا الطريق السوي ، وأمرهم بالسير فيه ، كما بين لهم الطريق المنحرف ، ونهاهم عن التورط فيه :

● « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولهـا » الانعـام : /٩٢ .

● « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفـرق بكم عن سبيله » الانعام : /١٥٣ .

وصرح الرسول الكريم بأمر ربه ، ونهض بأعباء الرسالة كما اراد الله منه ، فقـرع القلوب بزواجر المواعظ ولمس الارواح بأنس البشائر ، وخاطب الضمائر بآي الهدى والحق المبين (١) .

(١) ينظر كتاب عالمية الاسلام للمؤلف أحمد علي الملا ص ٧٧ ومابعدهـا .

وكانت النتيجة أن تفتحت لدعوته ، قلوب ، وغلقت دونها قلوب ، ذلك أن سنة الله في هذه الحياة والاحياء تضت ، أن من يفتح قلبه للهدى ، ويرهف حسه لسماع نداء الفطرة الصافية ، يرى الحق واضحا أمام عينيه فيؤمن به ، وأن من يغلق قلبه عن سماع كلمة الحق يتخبط في دروب الضلال .

فالقرآن الكريم كتاب هداية ونور للمتقين ، قال تعالى :

● « آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » البقرة : ١/

● « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » المائدة : ١٦/ »

لقد أرسل الله هذا الرسول الكريم ، ليحقق برسالة الاسلام والانسانية الاهداف العليا الحياة . انها رسالة الاسلام ، رسالة علمية تربوية ، ربت الانسان الفاضل ، وبنت الاسرة المتآلفة ، وأقامت الدولة الراشدة لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي ، وانعاش القوة المحركة للحضارة الانسانية .

لقد استطاع الرسول بتحكيم القرآن الكريم ، أن يمد البشرية بالتصور الواضح عن الكون وبالعقيدة الصحيحة الصافية عن خالق الكون ، وأن يقدم لها أكمل شريعة وأقوم منهج فيه سعادة الانسان والانسانية .

الرسول المرسل رحمة للعالمين : توالت آيات الكتاب الكريم ، تؤكد عالمية الرسالة التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ . وتعلن أنها الرسالة الاخيرة لدين الله الواحد ، **حملها رسول عالمي** لم يختص بجيل من الاجيال ، ولا بأمة من الامم ولا بجنس من الاجناس . حملها النبي الامي الذي تولى الله تعليمه دون أن يدخل على فطرته الصافية شيء من أفكار الارض وقيمها ، ومقاييس الناس وأعرافهم ، **ليحمل رسالة الفطرة الى الناس جميعا :**

● « قل ياأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي لـه ملك السموات والارض ، لا إلـه الا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » الأعراف : ١٥٨/

● « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » الفرقان : ١/

لقد نادى الاسلام بانسانية واحدة (تذوب فيها فوارق الجنس واللون واللغة ، والفوارق العارضة الاخرى ولا تفاضل الا بالتقوى والعمل الصالح الذي تبنى به الحياة الكريمة السعيدة) لتلتقي في عقيدة واحدة ، ونظام اجتماعي واحد (لتحقيق الطمأنينة الفردية — والانسجام العام) .

الرسول الكريم (ص) والمؤمنون : كان رسول الله ﷺ كل شيء في حياة المسلمين ، كان معلمهم ومربيهم وقائدهم وقدوتهم ، ويرى أنه بما حمله الله من أمانة اعدادهم ورعاية شؤونهم والسهر على مصالحهم أولى بهم من أنفسهم ، وهذا ماأكده القرآن الكريم بقوله عز وجل :

● « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم » الأحزاب : ٦/

ومن ثم توالت الآيات الكريمة ، تعلم المؤمنين آداب السلوك معه ، وتبين لهم أن شخصية

الرسول المنقذ ليست شخصية عادية ، وانما هي شخصية مفضلة مكرمة ، اختارها الله لحمل اكرم رسالة ، فينبغي أن تعطى ماتستحق من الحب والاجلال والتكريم :

● « يا أيهـا الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، ان تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ، ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » الحجرات : /٢–٣ .

وتبين الآيات ايضاً انه يجدر بكل مؤمن بالله ورسوله ، أن يكون كيسا فطنا ، دمث الخلق حسن المعشر دقيق الملاحظة ، وخاصة مع قائد الامة ورسولها ، لايدخل بيته الا باذن ، ولايغـادر مجلسه الا باذن :

● « يا أيهـا الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غـير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين الحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، والله لايستحي من الحق » الاحزاب : /٥٣ .

● « إنمـا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، ان الذين يستأذنونك ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فان استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » النور : /٦٢ .

وهكذا كان يعلمهم الرسول الآداب الاجتماعية ويطبعهم على حب النظام والطاعة ، ويلفتهم الى التوجيه الالهي الكريم ، ليصنـع منهم صـورا حية من الايمان المشرق، **كانها قرآن حي يدب على الارض** أو كان كـل فـرد منهم نموذج مجسم للاسلام يراه الناس (في مجال التطبيق والسلوك) يرون الاسلام بحقيقته الموضوعية علميا وتربويا ، ولقد كان طبيعيا أن يكون الرسول ﷺ وهـذه منزلته في حياة المسلمين ، الآمر الناهي والسيد المطاع الذي لايرد له أمر ، ولايخالف له رأي ، كمـا قال تعـالى :

● « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

● « واطيعوا الله واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » آل عمران : /١٣٢ .

● « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » النساء :/٨٠

● « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذيـن أنعـم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » النساء : /٦٩ .

وطاعة الرسول المطلوبة ، ليست بالطاعة الشخصية المجردة عن معانيها ، بل هي الطاعة الحقيقية المنبعثة عن أعماق الضمير ، والمرتبطة بطاعة الله ، وعلى انه ﷺ سفير العناية الالهية ومحبته وطاعته معراج الى كمال الثقة والايمان بالله ، طاعة ممتزجة بالحب والاحترام والتقدير ، لايشوبها ظلّ من حرج ، ولا يكدرها أثر من اعتراض . قال تعالى :

● « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » النساء : /٦٥ .

وهي سمة المؤمنين الصادقين ، وسبيلهم الدائم الى الفلاح والتقوى .

● **وحدة العقيدة :**

لقد تعرضت العقيدة الإسلامية في كثير من البلدان الإسلامية (وعلى مدار التاريخ) الى انحرافات خطيرة ، وتصوّرات خاطئة ، شوّهت جمال العقيدة ، وأوجدت مذاهب متعددة ، وطوائف متفرقة ، وما ذلك إلا لانتشار الجهل في صفوفهم ، لهذا فانه لا بد من إعادة النظر في ذلك الانحراف وتصحيحه ، بما يتوافق الكتاب والسنة ، وتجريد ــ العقيدة من الآراء البشرية (من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) التي لحقت بها ، ليتيسّر للأمة بتوفيق الله ــ الاجتماع واللقاء على ما يرضي الله .

=

● « إنما قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » النور : /٥١ .

هذه هي طاعة الرسول الكريم ، كما صورتها الآيات البينات ، إيمان وهدى ورحمة من الله ورضوان ، أما معصيته ومخالفته (مخالفة هديه ــ ومحاربة شريعته) ، فقد وردت الآيات القاطعات بتصوير فظاعة اقترافها ، وبشاعة ارتكابها ، اذ أن عصيانه عصيان الله ، وخروج عن أوامره المقدسة :

● « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم او ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » المجادلة:/٢٢

ثم راحت الآيات الكريمة تقرن اسم الرسول الكريم باسم الجلالة العظمى ، دلالة على ان شخصية ﷺ ان هي الا مرآة ساطعة تنعكس على صفحتها الرائعة الصافية أوامر الله ونواهيه وحكمته ورحمته وعدالته .

فشخصية الرسول ﷺ ــ اذن ــ هي الحكم الفصل بين المؤمنين ، اذا بدا شبح النزاع بينهم وحكمه قطعي لا راد له ، ولاخيرة في قبوله ، لانه حكم الله ، أوحاه الى رسوله ، **فاتباعه أولى** والرضى به أجدر . قال تعالى :

● « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » النساء : / ٥٩ .

● « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » الأحزاب : / ٣٦ .

لقد اتضحت لنا ــ من خلال الصفحات السابقة ــ معالم شخصية الرسول الاساسية بجلاء وصراحة وبساطة ، فهي الشخصية (العلمية ــ التربوية) التي أعدها الله اعدادا خاصا لتلقي وحيه وتبليغ هديه ، وتحكيم شريعته ، وهي الشخصية الاولى في حياة المسلمين ، فرسول الله ﷺ معلم المسلمين ومربيهم ، وقائدهم وقدوتهم ، ومصرف شؤونهم ، وموضح نهجهم ، وهي الشخصية المتكاملة التي جمعت ــ بتوفيق الله ــ الفضائل الخلقية العالية والمكارم الانسانية الرفيعة ، فاتسمت بالرقة والحنان والتواضع والرحمة والصبر والسماحة والشجاعة والقوة والاخلاص .

فان العقيدة هي الأساس الذي يرتفع عليها بناء الدين (ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) الزمر : /٦٥ • فاذا قوي الأساس سهل على الأمة تصحيح بقية الانحرافات الأخرى ، وأمكن لها الاجتماع واللقاء ، وحين تكون العقيدة واضحة في الأذهان ، مشرقة في القلوب ، تزول الحواجز التي قامت بين صفوف الأمة ، وفرّقتها الى شيع وأحزاب ويأذن الله بالألفة والمحبة ، على صعيد العقيدة الصافية والإيمان الصحيح •

والعقيدة المسلمة تجعل للانسان مثلاً أعلى متصلاً بالله ، يفيض بالخير والرحمة والسعادة ، ويهب الحياة معنى شريفاً سامياً ، في مبدئها من الله ، ومسيرتها في رسالتها ومصيرها أيضاً الى الله ، وبذلك تكون الحياة في نظر المسلم جديرة بالرعاية ، لتأخذ طريقها الطبيعي (كما أراد الله) نحو التطور والازدهار والتكامل • وفرق كبير جداً بين من يفهم الحياة كما أرادها الله ، فيوجهها للخير والانتاج لمثل أعلى ، وبين من يعيش ولا يعرف للحياة معنى غير الأكل والجنس ، وهذا سقم في الصحة النفسية والفكرية لذا فالحياة في نظر المؤمن فترة خير وفرصة إنتاج ، وهي مرحلة سعيدة ذات تجارة رابحة ، لا يضيق بالحياة ولو ضاقت ، أما غير المؤمن فانه كثيراً ما يملّ الحياة (لحجابه عن أهدافها السامية) ويضيق بها ذرعاً ، رغم أنها قد تكون لديه رخيّة الجوانب المادية •

ويمثل المعتقد الديني في الإسلام القوة الدافعة (المحركة) للعمل الصالح ، بينما يمثل العلم النظري عنصر (الإدارة) والمنطلق نحو الأهداف والغايات •

وسلوك المؤمن وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته ، فاذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام ، وإذا فسدت فسد واعوجّ ، ومن ثمّ كانت عقيدة التوحيد والإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان المؤمن ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته ، بصدقه وإخلاصه وتواضعه لله ، وسيره وفق منهاجه الأقوم •

ولقد كانت الدعـوة الى هذه العقيدة ، أول شيء قام بـه رسـول الله ﷺ لتكون حجر الزاوية في بنـاء الأمة المسلمة[1] ، ذلك أن رسوخ العقيدة (والإيمان الحق) في النفس الإنسانية يسـمو بها عن الماديـات الوضـيعة ، ويوجهها دائماً وجهـة الخـير والنبـل والنزاهـة والشرف ، وإذا سيطرت هذه العقيـدة أقرت الفضائل الانسانية العليا ، من الشجاعة والكرم والصبر والسماحة ، والايثار والتضحية ، وكل ما يهذب الحياة الفرديـة والاجتماعية ، ويرقى بها نحـو التطـور والإزدهار والتكامل ، ومن هـذا المنطلق رأينـا القرآن الكريم ينزل على رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشـر عاماً، لا يعني إلا بإصلاح العقيدة[1]، ولا يهتم إلا بإبرازها وإظهارها، وإقامة البراهين الواضحة

---

(١) ان الاسـلام (بحقيقته الموضوعية) ، ليس اسـلام فرقـة من الفرق ولا بلد من البلدان ، ولا مذهب من المذاهب ، انه اسلام القرآن والسنة ، واسلام الصحابة ومن تبعهم باحسان ،ويقـول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابـه (الخصائص العامة للاسلام) ، ص ١٩٧ : « ولقد سمعـت من احد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الامة كلمة جديرة بأن تسجل وتنشـر ، قـال : هل كان هناك سنة وشيعة عندما أكمل الله الدين لهذه الامة ، وأتم عليها النعمة ونزل قوله تعـالى :

● « اليوم أكملت لكم دينهم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » . المائدة / ٣

وكان جواب الحاضرين : لا . . . ، اذن جاء الخلاف بعد ذلـك في تفسير قضايا تاريخيـة ، وكان الجواب : نعم ، وبكل تأكيد ، وهناك قال الرجـل العاقـل المنصف ، الحريص على وحـدة الامة ، فلنغض الطرف عمّا حدث بعد قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) وليسـعنا كتاب الله ففيه كل الكفاية . . . .

هذا هو التوفيق الالهي ، يلهم صاحبه الرشد والانصاف ، ويعود به الى الأصالة ، فاذاهـو علـى مستوى الحقيقة والعناية الالهية كما قال تعالـى :

● « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . » المائدة / ١٥ ــ ١٦ .

(١) فيما يلي عرض وصفي موجز لكلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطـي ، استاذ أصـول الفقه والعقيدة في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، نشرتها كاملة مجلـة « نهج الاسلام » في عددهـا الاول (رمضان ١٤٠٠ هـ ــ تموز ١٩٨٠ م) وهي مجلة اسلامية فكريـة (فصليـة) جامعـة ، تصدرها في دمشق وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية .

وهذه الكلمة بعنوان (الدين والعلـم) . وفيما يلـي موجز عن هذه الكلمة ، باعتبـار أن موضوعها يتصل باصلاح العقيدة (من حيث تصحيح فهمها ، والعودة بها الى أصالتها صافية مما علـق بها من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ويستهل الدكتور البوطي كلمتـه كمـا يلـي :

عليها ، حتى إذا ما اطمأن الى أن هذه المبادىء قد ثبتت في العقول والقلوب ، ورسخت في النفوس ، أتى بعد ذلك بالتشريع المتناول جميع جوانب الحياة ، فلم يلق أي معارضة ما في أي حكم من الأحكام ، وما أن ينزل الحكم من

« ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ولا هادي له ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي العلم والرحمة وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

لعل من الضروري أن أشير بين يدي هذا البحث الى تصور خاطىء يقع فيه كثير من الباحثين، بصدد الموازنة بين الدين والعلم ، ذلك هو تصوروا أن جوهر الدين والعلم يتنافسان دائما على خطين متوازيين ، ينتهي كل منهما الى غاية معيّنة (والباحث المنصف يدرك في نهاية المطاف) أن الدين الحق نهاية في طريق العلم ، وليس خطا يناكبه ويوازيه وان اقبال الانسان الى الدينونة له ليس الا تحصيلا لثمرة العلم — على الحقيقة — .

معنى الدين : تستعمل كلمة الدين في اللغة العربية بمنى الخضوع والانقياد ، نقول دان له أي أطاعه وخضع له ومادة الكلمة تدل على الخضوع والانقياد ، وهي تشير الى العلاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له وينقاد لاوامره وأحكامه وهذا التعريف يشير — من حيث النتيجة — الى ذلك الوضع الذي يرشد الناس الى الاعتقاد الصحيح والسلوك الحسن ، والمعاملة المستقيمة ، بحيث يؤدي الى تنظيم حياة الانسان من حيث صلته بخالقه (واخلاص العبودية له) ومن حيث صلته بالمجتمع الذي يعيش فيه وهندسة العلاقات الاجتماعية على مقتضى (منهاج الله) وحكمته ورحمته وعدالة .

معنى العلم : (ويقصد به العلم التجريبي) : هو ناحية تأملية ، تدفع بالباحث المدقق الى البحث الدائب ، لاستطلاع ما وراء تجاربه العلمية من أسرار ونواميس ، تعلو على متناول الحس المباشر ، ويفعل ذلك بقصد الوصول الى اليقين العلمي الذي يربط بين الاسباب ومسبباتها لمعرفة الاشياء على حقيقتها . فأسلوب العلم في بحثه (حسي — تجريبي) يؤيد الدين في الاصل، وينميه في الواقع ، ومنهج العلم يدعو الى المعرفة الصحيحة ، وتنتهي مهمته لدى تكوين النظرية العلمية .

أما المنهج الديني فانه دعوة لا الى المعرفة الصحيحة فحسب ، ولكنه دعوة الى الثقة والايمان بالله (واهب الحياة) والى اعلاء كلمته (من خلال فاعلية الفكر — ونشاط النفس) استدلالا بالأكوان على المكون ، وبتصاريف الحياة على واهب الحياة وما تزدهر به الحياة .

يجب أن نعلم قبل كل شيء أن العلوم المختلفة ليست في حقيقتها الا أجزاء لكل واحد ، لا يستقل بعضه عن بعض نصلة ما بينهما كصلة الفصول المتعددة في الكتاب الواحد ، لا يتجلى في الذهن مضمون حقيقي لاي منها الا استنادا الى معرفة ما تضمنته الفصول الاخرى . فعلم الاجتماع مثلا وثيق الصلة بعلم التاريخ ، وعلم التاريخ موصول النسب بالتاريخ الطبيعي ، وهذا بدوره شديد الصلة بالعلوم الطبيعية المختلفة ، وهذه العلوم بدورها ترسم اشارات استفهام لا يتصدى لها الا علم الفلسفة ، وينتهي الامر بهذا العلم والذي قبله الى جدار هائل لا يمكن اختراقه ، ألا وهو جدار النواميس الكونية الثابتة ، والتي تدور على محورها أحداث الكون

قبــل الله حتى ترى المسلمين مسارعين الى طاعــة الله واتبــاع رضوانه .

في فصول هذا الكتاب وأبوابــه محاولة جــادّة لتحقيق هــذه المعاني

وتطوراته وهي نواميس لم ينل العلم منها حظا سوى الوصف لأغشيتها ومرئياتها الظاهرة . دون أن يملــك السبيل الى معرفة كنهها أو الى أي تبديل أو تغيير فيها (نظام الجاذبية العام — في علــم الفلــك مثلا) . واليك الدليل :

لقد تقدمت المدارك البشرية العامة تقدمــا كبيرا ، ولقد تهيــأ لانسان الحضارة الحديثة مــن أسباب المعارف والعلوم ما خيل اليه أنه حقق حلما لم يتحقق لغيره من قبل ، ومع ذلك فان انسان هذه العلوم كلها لم يستطع أن يزحزح شيئا من تلك السنن والنواميس الكونية عن مكانه ، فضــلا عن أن يقوى على نسخه وتبديلــه .

فلا تزال شقة ما بينه وبين المشيب وضعفه كما هي ، لم تسعفه علومه في اطالتها ، فضــلا عن أن تسعفه في القضاء عليه ، ولا يزال على الرغم من كل المنجــزات العجيبة التي وصل اليهــا يموت كما يموت أي مخلوق ضعيف في الكون ، بل لا يزال أمد ما بين ولادة الانسان وموته كمــا هي في جملتها . بدليل أن ما نلاحظه من كلمة « الجيل ، الجيل ، لاتــزال تحمل مدلولها اللغوي القديــم . دفعة من البشر تمرّ فوق جسر هذه الدنيا ضمن ميقات زمني لايتجاوز مائة عــام تقريبــا ، أي أن شيئا من العلوم الحديثة للطب والصحة ورعاية الحياة والابدان ، لم يستطــع أن يتدخل لتعديــل هذا الميقات الزمني المحدد لعمــر الجيل .

الانسان وهذا العالم الكبير : ثم ان هذا الانسان كلما التفت الى ذاته يتأمل فيها ، لم يدرك من هذه الذات الا مجموعة ظاهرات وعلاقات تختص وراءها أسرار عجيبة ، لا يختــرق اليها علم . ولا يصل اليها سلطان جهاز ولا فكر . لقد بذل كل ما أمكنه من جهد في سبيل أن يعلم شيئا عــن حقيقة الروح التي تسري في كيانه (والتي تظهر بآثارها وفاعليتها تصاريف الحيـــاة) ، فانفلت من سعيه جاهلا لم يأت بطائل ، كما قال تعالى :

● (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الاسراء : / ٨٥ .

● (يعلــم ما بين أيديهــم وما خلفهــم ولا يحيطون بشــيء من علمه الا بما شــاء ...) البقرة : / ٢٥٥ .

وأذعن الجميع بعد تجربة ومحاولة طويلتين بأن الروح شيء يستعصي على العلم وطبيعتــه ، ويند عن فكر الانسان وفهمه .

الحياة والمادة والحقيقة : أجل لقد أذعن بذلك حتى الماديين الذين قرروا (واستشهدوا أن يصدقهم الواقع) أن الحياة من مادة انطلقت واليها تعود . واليكم ما يقوله الامــام الاول للماديــة الجدلية (بعد ماركس) ، اليكم ما يقوله (انجلز) ، في كتابــه (انتي دوهرنغ) ، ان العلــم الطبيعي لم ينجح بعد في انتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى ، وفي الحقيقــة أنه لم ينجح بعد حتى في انتاج الهيولى البسيطة أو الاجسام الآحينية الاخــرى من العناصــر الكيماوية ، وبالتالي فانه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن ، أن يؤكــد شيئا بخصوص أصــل الحيــاة .

الكريمة ، في إبراز جانب العقيدة وإيضاح أثرها وفاعليتها في النفس والحياة.
ونسأل الله من فضله وكرمه أن يجعل هذا الجهد في موضع القبول

=

الحيرة حول أصل الحياة : وينقل (لينين) تأكيدا لهذا الكلام عن (فيورباخ) في تعليقاته الفلسفية المشهورة فان قيل لعل هذه الحيرة كانت قبل أن تتقدم العلوم الى الشأ والذي وصلت اليه فيما بعد ، قلنا ان العلوم تقدمت فعلا في كثير من المجالات ، ولكنها فيما يتعلق بمسألة النواميس الكونية عموما وسر الحياة أو الروح خصوصا ، فلا تزال باقية عند حدودها السابقة القديمة من الجهالة والحيرة .

لأدل على ذلك من التقرير الذي انتهى اليه مؤتمر علماء الذي عقد حول مائدة مستديرة في نيويورك عام ١٩٥٦ ، أصلا في الوصول الى فهم شيء من أصل الحياة ونشأتها على الارض ، وكان فهم العالم الروسي الكسندر الفانوفيتش اوبارين ، أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفياتية .

لقد قرر المؤتمرون في نهاية بحوثهم بالاجماع ، أن أمر الحياة لا يزال مجهولا ، ولا مطمع في أن يصل اليه العلم يوما ما ، وان هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة .

● انظر خبر هذا المؤتمر في كتاب قصة التطور الدكتور أنور عبد العليم ص ١١ — ٢٣ .
● وانظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية ص ٥٩ لصاحب هذا البحث . (أعني الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي) .

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد : هذا كله الى جانب ما يراه المتأمل في هذا الكون من كثرة هائلة تنتهي من الانسجام الى وحدة لا انفصام لها ، ومن تلاق عجيب فيما بين مظاهرها المتنوعة ، على تحقيق غايات محددة ، ضمن نظام دقيق لا يستقدم ولا يستأخر ، حتى ألجأ ذلك أئمة المادية (الجدلية) أن ينعتوا الطبيعة بالمعقلانية ، وأن يطلقوا على ما يبدو فيها من ظاهره (الغائيّة) ، (عقلانية الطبيعة) .

اذن فالعلم يوصل من خلال تبصيره بهذه الحقائق وغيرها الى يقين بأنه مقود في هذا الكون وليس قائدا ، محكوم عليه وليس حاكما ، يتحرك ولكن بمقدار طول الزمام المثبت في عنقه ، يتصرف ولكن ضمن نطاق الحكم الذي أبرم في شأنه ، (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) . ومن ثم فان العلم يوصل الانسان الى يقين ، بأن من وراء هذا الكون مكونا (هو الوجود المنظم لهذا الكون) (أعني وجود الله سبحانه) أبدع نواميسه ، فهو يمسكها بقدرته وتدبيره ، في قبضة عجيبة لا تغلب ، وبأن ما يسمى بعقلانية الطبيعة ليس في الحقيقة الا مظهرا لذلك الاله الذي دبّر فأحكم تدبيره .

هل في عقول الملحدين غباء — أم في عيون الجاحدين عماء
ايصح عقلا ان عقلا مبدعا — قد أبدعته طبيعة بلهاء
واذا الطبيعة ادركت وتصرفت — قلنا الطبيعة والاله سواء

=

عنده ، وأن يجعل منـــه عوناً على جمع قلوب الأمـــة على الهـــدى والتقوى والعقيدة الصحيحة ، إنه سميع مجيب •

١٤ شعبان ١٤٠٤ هـ الموافق ١٤ أيار ١٩٨٤ م وآخر دعواهم أن الحمـــد لله رب العالمين •

أحمد علي الملا   محمد بشير الرز

=

فاذا قرر العلم ذلك فقد أسلمنا الى يقين بوجود الله عز وجل ، والى يقين بأنه موصوف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقصان ، ثم ان العلم يقف عند ذلك الحد ليدفعنا الى مواصلة السير في الطريق .. وأنه الآن ليس الا طريق الاهتداء الى معرفة هذا الاله ، والتعرف (لحكمتـــه ورحمته وعدالة) ، لمشيئته وسلطانه ، والاصغاء الى أوامره وأحكامه •

وهكذا يتجسد ما أوضحناه من ان الدين الحق نهاية في طريق العلم ، وليس خطا يواكبه ويوازيه، وان اتبال الانسان الى الدنيونة له ليس الا تحصيلا لثمرة العلم • وهو يفوق في القداسة ممارسة اي جهد علمي بحد ذاتـــه •

نعم هذا هو الاسلام — وهو علم وحقيقة —

وأخيرا هذا هو الاسلام في قراره الاول والاخير ، ان العلم الحقيقي (الذي يثمر الايمان — بواهب الحياة) هو الذي يجب أن يكون ميزانا ، ولكن اليقين العلمي الذي يهيمن على العقل ، لا يستلزم دائما قدرة على التصوّر الذي يهيمن على الخيال ، ذلك أن القدرة على تصور الاشياء على حقيقتها تظل دائما متخلفة عن الطاقة العقلية لإدراكها • أرأيت الى الضرير (الأكمه) ، انه يدرك وجود الشمس المشرقة بعقله ، ولكنه لا يقوى على تصورها بخياله ، فلا يكون هـــــذا العجز الثاني **دحضا لليقين الاول** •

كذلك وجود الله عز وجل وما يتبعه من يقينيات متفرعة عن الايمان به ، لا مناص للعقل الحـــر من اليقين بهما ، ولكن لا سبيل للخيال البشري الى التقاط صورة صادقة عنهما » . انتهت كلمـــــة الدكتور البوطي •

تعليق وتحقيق : قبل المباشرة بهذه المهمة لا بد من الاشـارة الى أن ما ورد من تعريف (الدين) و (العلم) ، في بداية العرض الوصفي الموجز لكلمة الدكتور البوطي انما هو من قبيل الشرح الخاص لعنوان الكلمة من قبل المؤلفين ، اقتضى التنويه •

التعليق : **الوحي الديني حقائق موضوعية ،** ألقيت (باذن الله في روع واحـد من البشر ، امتاز على غيره بموهبة خاصة واصطفاء الهي (والله أعلم حيث يجعل رسالته) . امتاز الرســـول بسموّ مداركه ورقّة احساسه وباستعداد خاص يجعل قلبه وروحه (جوهر كيانه الذاتي — منبـــع الرغبات ومنطلق السلوك) متصلاً بالملأ الاعلى لتلقي وحي ربه المنزل ، لارشـــاد الخلق — باذن الله — الى حكمة الله ورحمته وعدالته واتباع رضوانه سبحانه ، عن طريق الحسّ والعقل المؤيّدين بالوحي ، كما قال تعالى (عن القرآن الكريم) •

● « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » الشعراء : ١٩٣/ — ١٩٤ •

=

=

● « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله . . . » البقرة : ٩٧/ .
وقد أيد الله الوحي والرسالة بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي ، حتى يذعن الفكر ويستسلم العقل البشري لوحي الله بلا مناقشة ، كما قال تعالى :

● « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » الاحزاب : ٣٥/ .

وعلى هذا الاساس نقول ان الوحي موصوف بالعصمة (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وبريء من ازدواجية القيادة ، يضمن بعقيدة التوحيد (وحدة الرأي — وتآلف القلوب) ، وهو ضمان لصيانة الحكمة وحراسة العدالة وشمول الرحمة والسعادة للانسان والانسانية .

وكذلك العلم الصحيح ونظرياته ، هي حقائق موضوعية ، كانت ثمرة نظر واستقراء وحصيلة استنتاج وتجربة ، هذه الحقائق استقرت في مدارك العلماء ، ممن أدمنوا التفكير والتأمل ، ثم ادمنوا الاختبار التطبيقي وامعان النظر في وحدات الكائنات ونواميسها وعلائقها ، بحثا عن الصلة الواقعة بين بعضها البعض ، فتم لهم (عن طريق البحث في خواص الاشياء ومنافعها) (طلبا لتسخير قواها الكامنة فيها) ما أرادوا ، فقرروها كنظريات علمية ، ثم يتركونها لخلفائهم وأعقابهم لاتمام بحثها ، وتطوير النتائج المرجوة من خصائصها ومنافعها ، وهانحن نرى أن مبعث الدين (منطلقه) والعلم مبعث واحد (اقرأ باسم ربك الذي خلق) هو الشخصية المعنوية للانسان وما استقر في نطرته من إلهام الهي ، أو ادراك عقلي ، أو خبرات حسية . وليس على التحقيق (في العقيدة بالوحي) ماينافي حقائق العلم . ولاخلاف (في الجوهر والموضوع) في نظر العالم المحقق والمتدين المخلص بين الوحي والعلم (في المنطلق والهدف) .

غاية الوحي أن تكون كلمة الله (منهاجه في الحياة) هي العليا ، رائدة موجهة ، ضابطة للسلوك ، مؤلفة للقلوب ، موحدة للرأي والهدف . وهي نفسها غاية العلم ، في معرفة الاشياء بحقائها ، وارتباط الاسباب بمسبباتها في كشف النظام العام الكوني للحياة (في الخلق والتدبير) ، تحقيقا للطمأنينة الفردية والانسجام العام .

وحين ينمو النشاط العقلي والبحث العلمي في ظلال الوحي الالهي (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ، فسنقتطف من شجرة التعاون بين العلم والدين أشهى الثمرات ، وكما قال تعالى :

● « من عمل صالحا من ذكر وانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » النحل : ٩٧/ .

ما أشد حاجتنا الى الوعي الاسلامي الصحيح (فقها لكتاب الله — واتباعا لسنة رسول الله ﷺ ، بالعلم الصحيح (المترافق بتربية الوحي والايمان) بنينا حضارتنا الماضية ، وبالمعرفة الصادقة نستطيع أن نواصل السير لنكون بحق جديرين بالاسهام الحضاري البناء .

ان الاسلام (عقيدة ومنهجا — عبادة وسلوكا) ، يوحي لنا بالتنافس الشريف لبناء الحياة الافضل ، وأن التراث الحضاري الانساني ملك للجميع . قال الله تعالى :

=

● « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » الملك /١ — ٢ .

ان ارتباطنا بعقيدتنا وتراثنا ولغتنا ، يدفعنا لمواجهة الركب الحضاري بقوة العلم ويقظة الايمان . أمتنا العربية والاسلامية — اليوم — مدعوة لبناء نفسها بناء حديثا في شتى المجالات (الاجتماعية الاقتصادية وغيرها) ، والطريق الى ذلك هو تعميق الثقة بالنفس (انطلاقا من العقيدة والايمان بالله) وابراز الكيان الفكري لامتنا . وهذا الكيان الفكري (المترافق بأصالته التربوية) يمكن أجيالنا المقبلة ان ينهلوا من معين الحضارة مايحتاجونه لبناء مجتمعهم واقتصادهم ، دون أن تحمل هذه الاستفادة أخطار الذوبان والضياع في متاهات تبعدنا عن أرضنا الطيبة وتراثنا الفكري المشرق .

ان الاسلام كان ولايزال رحمة وسعادة للانسان والانسانية ، قوة دافعة للحركة الحضارية ربى بعقيدته السمحة الانسان الفاضل وبنى الاسرة المتآلفة ، وأقام الدولة الراشدة ، يسير بالحياة بقوة العلم ويقظة الايمان ، ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكامل .

الباب التمهيدي

- المبحث الأول ـ تعريفات ومصطلحات •
- المبحث الثاني ـ نشأة علم الكلام والمذاهب الاعتقادية في الإسلام •
- المبحث الثالث ـ تعريف علم الكَلام ، ونشأة المذاهب الإسلامية •
- المبحث الرابع ـ دراسة أهم الفرق والمذاهب الإسلامية (وبيان ما اختص بها كل منها ـ من مذاهب وآراء) •
- المبحث الخامس ـ الفرق السياسية (الخوارج ـ الشيعة) •
- المبحث السادس ـ أهم المذاهب الاعتقادية (المعتزلة ـ المرجئة) (الأشعرية ـ الماتريدية مع تثبيت النقد العلمي) (لآراء ـ وأصول هذه المذاهب) ومدى (مخالفتها ـ أو موافقتها) للكتاب والسنة،ومذهب أهل السنة والجماعة، وذلك خلال العرض الوصفي الموجز لآراء هذه الفرق ، والمذاهب الاعتقادية المشار اليها •
- المبحث السابع والأخير ـ مصادر المعرفة في العقيدة الإسلامية (والمنهج الذي سلكه علماء الإسلام للوصول الى الحقيقة •
  معنى العقل والفكر والنظر (وموقف الاسلام من الفكر والنظر) •

تعريفات ومصطلحات

الايمــان

مفهوم الايمان او العقيدة (١) :

الايمان في اللغة : معناه التصديق • قال ابن منظور في لسان العرب :
واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الايمـان معنـاه التصديق •

قال الله تعالى :

- « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » يوسف /١٦ ــ أي بمصدّق •

والايمان في اصطلاح الشرع : التصديق بما جـاء به الرسـول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام مما علم من الدين بالضـرورة أو ما أشـبهها من الأدلّة اليقينية •

وقد فسّر النبي عليه الصلاة والسلام الايمان في الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنـه عندما سـأل جبريل النبي عليـه الصلاة والسلام : قال : فأخبرني عن الايمان ، قال : أن تؤمـن بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقـدر خيره وشرّه » أخرجه الامام مسـلم برقـم (١) •

---

(١) تطلق كلمة العقيدة على التصديق الناشيء عن ادراك شعوري أو لاشعوري يقهر صاحبه على الاذعان لقضية ما وللعقيدة أثر بارز في حياة الكائن البشري ، وفي تكوين شخصيته ، لانها تدفع ذلك الكائن البشري الى أنواع من السلوك بقوة وعزم وتصميم ، نظرا لسلطان العقيدة على الفكر والارادة ، وبالاضافة الى هذه الخصائص فان العقيدة الواحدة في الامة تمثل دورا كبيرا في تأكيـد وحدتها ، لان الافراد الذين يؤمنون بعقيدة واحدة يحسون بنوع من الترابط والتقارب في أفكارهـم وتصوراتهم ، وهذا التقارب يجذب أفراد المجتمع الى بعض (ويؤلف بين قلوبهم) ، ليتكون منهم مجتمع قوي متماسك ينطلق من منطلقات واحدة ، ويهدف لاهداف واحدة .

وقد ذكر القرآن الكريم ، كما بينت السنة النبوية الشريفة معاني الايمان (العلمية والعملية والأخلاقية) مما سنأتي على شرحه في فصول تالية باذن الله.

الايمان والاسلام وما بينهما من علاقة :

لقد مرّ بنا معنى الايمان لغــة وشــرعاً ، وأما الاسلام في اللغة فمعنــاه الاستسلام والإذعان والانقياد وتــرك التمرّد والإباء ، ومعنــاه في اصطلاح الشرع الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ مما عــلم بالدين بالضرورة ، أو قام عليه الدليل اليقيني .

على أنه قد جاء تفســير الاسلام في حديث جبريل (الذي رواه عمر بن الخطاب) والمشار اليه أعــلاه « وقال يا محمد أخبرني عن الاســلام ، قال : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رســول الله ، وتقيم الصــلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت ان استطعت اليه سبيلا » .

وفي حديث ابن عمر : « بنــي الاســلام على خمس ....[٢] » فما هي العلاقة بين الايمان والاسلام ؟

قد أفاض الإمام الغزالي (رحمه الله) في بيان العلاقة بينهما فقال :

« الحــق فيــه أن الشــرع قد ورد باستعمالهما على ســبيل التوارد والترادف ، وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل » .

أما على سبيل الترادف :

ففي قوله تعالى :

- « فأخرجنا من كان فيهــا من المؤمنين ، فما وجــدنا فيها غــير بيــت من المســلمين . »

ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد ، وقال تعالى :

- « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . »

وقال ﷺ : بني الاسلام على خمس ... » وسئل رسول الله ﷺ مرة عن الايمان فأجاب بهذه الخمس .

---

(٢) رواه البخاري ومسلم .

وأما الاختلاف :

فقوله تعالى : قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالايمان هنا التصديق بالقلب فقط ، وبالاسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح •

وفي حديث جبريل عليه السلام ، لما سأله عن الايمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره • »

وأما التداخل :

فما روي أيضاً عنه ﷺ أنه سئل فقيل أي الأعمال أفضل ؟ فقال ﷺ الاسلام ، فقال أي الاسلام أفضل فقال ﷺ الايمان » وهذا دليل على الاختلاف والتداخل ، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة ، لأن الايمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والاسلام إما تسليم بالقلب ، وإما تسليم باللسان ، وإما تسليم بالجوارح وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً[1] •

مفهوم الايمان أو العقيدة :

مفهوم الايمان أو العقيدة ينتظم ستة أمور :

أولا ــ المعرفة بالله ، والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، والمعرفة بدلائل وجوده ، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة •

ثانياً ــ المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة ، أو العالم غير المنظور ، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة وقوى الشر التي تتمثل في ابليس وجنوده من الشياطين ، والمعرفة بما في هذا العالم من جن وأرواح •

ثالثاً ــ المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل ، والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح[2] •

---

(١) احياء علوم الدين : (١١٦/١ ــ ١١٧) •

(٢) ينظر العقائد الاسلامية السيد سابق ص ٨ ومابعدها •

رابعاً ــ المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى ، وقادة الخلق الى الحق .

خامساً ــ المعرفة باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

سادساً ــ المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير.

وهذا المفهوم للايمان ، هو العقيدة التي أنزل الله بها كتبه ، وأرسل بها رسله ، وجعلها وصيته في الأولين والآخرين ، فهي عقيدة واحدة ، لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام ، قال تعالى :

- « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . » الشورى / ١٣ .

- « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله . » النساء / ١٣١ .

- « ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . » الزمر / ٦٥ ــ ٦٦ .

- وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . » الأنبياء / ٢٥ .

وما شرعه الله لنا من الدين ، ووصانا به ــ كما وصى رسله السابقين ــ هو أصول العقائد وقواعد الايمان ، لا فروع الدين ، ولا شرائعه العملية ، فان لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها ، وأحوالها ، ومستواها الفكري والروحي ، كما قال تعالى :

- « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » المائدة / ٤٨ .

وإنما جعل الله هذه العقيدة (عقيدة التوحيد ــ وما يتبعها من ايمان بالملائكة والكتب والرسل) عامة للبشر وخالدة على الدهر ، لما لها من الأثر البين والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات .

فالمعرفة بالله :

من شأنها أن تفجّر المشاعر النبيلة ، وتوقظ حواس الخير ، وتربّي ملكة المراقبة ، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرافها ، وتنأى بالمرء عن محقّرات الأعمال وسفسافها •

والمعرفة بالملائكة :

تدعو الى التشبّه بهم ، كما تدعو الى اليقظة التامة والوعي الكامل فلا يصدر من الانسان إلا ما هو حسن ، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة ، وإخلاص لله •

والمعرفة بالكتب الالهية :

إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للانسان كي يصل بالسير على مقتضاه الى كماله المادي والأدبي •

والمعرفة بالرسل :

إنما يقصد بها ترسّم خطاهم ، والتخلّق بأخلاقهم ، والتأسّي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس •

والمعرفة باليوم الآخر :

هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر •

والمعرفة بالقدر :

تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى الصعاب وتتخطّى الأزمات ، وتصغر دونها الأحداث الجسام من خلال الايمان بعدالة الله في نظامه العام الكوني للحياة والأحياء ، إيماناً يدعم الثقة بالنفس ويجعلها على مستوى الصبر والصمود إيماناً بحكمة الله ورحمته وعدالته في الخلق والتدبير ، إيماناً يؤدي الى الفلاح والظفر في نهاية المطاف (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) •

وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى ، فضلاً عن أنها حقائق ثابتة ، وهي تعدّ من أعلى المعارف الانسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق •

وغرس العقيدة (وتربية الايمان) هو أمثل طريقة لايجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة ، وتسهم بنصيب كبير في تزويدها بما هو أنفع وأرشد ، إذ أن هذا اللون من التربية يضفي على الحياة ثوب الجمال والكمال ، ويظللها بظلال الأمن والمحبة والسلام .

ومتى سادت المحبة ارتفعت الخصومة وانقطع النزاع،وحلّ الوفاق محل الشقاق وتقارب الناس وتآلفوا، وسعى الفرد لخير الجماعة، وحرصت الجماعة على إصلاح الفرد وإسعاده ، ومن ثم تظهر الحكمة واضحة من جعل الايمان عاماً خالداً ، وفي أن الله لم يخل جيلاً من الأجيال ، ولا أمة من الأمم، من رسول يدعو الى هذا الايمان ، وتعميق جذور هذه العقيدة .

وكثيراً ما كانت تأتي هذه الدعوة بعد فساد الضمير الانساني ، وبعد أن تتحطم كل القيم العليا ، ويظهر أن الانسان أشد ما يكون حاجة الى معونة إلهية ، تعيده الى فطرته السليمة (ووعيه الوجداني ـ والانساني) ليصلح لعمارة الأرض ، وليقوى على حمل أمانة الحياة .

منهج الرسل في غرس هذه العقيدة :

وقد كانت الرسل تعرض هذه العقيدة لأتباعهم ، عرضاً كله السهولة والبساطة والمنطق السليم ، فتلفت أنظارهم الى ملكوت السموات والأرض ، وتوقظ عقولهم الى التفكير في آيات الله ، وتنبّه فطرهم الى ما غرس فيها من شعور بالتدين ، وإحساس بعالم وراء هذا العالم المادي .

وعلى هذا السنن مضى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، يغرس هذه العقيدة في نفوس أمته ، لافتاً الأنظار ، وموجهاً الأفكار ، وموقظاً العقول ، ومنبّهاً الفطر ، ومتعهداً هذا الغراس بالتربية والتنمية ، حتى بلغ الغاية من النجاح ، واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك الى عقيدة التوحيد ، ويملأ قلوبها بالايمان واليقين، كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة الإصلاح

وأئمـــة الخير ، وأن يربّي جيلاً يعتزّ بالايمان ، ويعتصم بالحق ، فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا والعافية للناس .

وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز ، فقال جل شأنه :

● « كنتم خـــير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . » آل عمران / ١١٠ .

نشأة علم الكلام

والمذاهب التوحيدية في الاسلام

تمهيـد :

ان التيارات التي واجهها الاسلام بدءاً من بعثة خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كانت نوعين :

النوع الاول :

ما واجهه الاسلام في الجزيرة العربية من ضلالة مبعثها الجهل والبداوة، وترسب العادات والتقاليد القديمة، الى جانب صفتي العناد والعصبيّة .

ما واجهه الاسلام خارجها (وكان ذلك فيما بعد) من المذاهب العقلية والفكرية التي جاءت نتيجة المعاناة والاعتماد على المعارف المختلفة، كالمذاهب الدينية في بلاد فارس والمذاهب الفلسفية في بلاد الروم وعند اليونان، وعند من تأثر بهم .

فبأي سلاح واجه الاسلام أو المسلمون هذين النوعين من التيارات المختلفة ؟ إن هذا التساؤل من شأنه أن يلفت نظرنا الى ما ينطوي عليه الاسلام بحدّ ذاته، من عوامل الإقبال عليه والتقبّل له والاقتناع به، اذ هو في الحقيقة ليس جملة تصورات ومواصفات سلوكية تصلح للقبول والرفض على حد سواء، حتى نبحث له عن المؤيدات خارج حقيقته، كقوة المدافعين عنه، وكالمصلحة التي تتحقق للناس أو بعضهم في الخضوع له، وإنما هو جملة مبادىء واعتقادات لها في كيان الانسان جذور نفسية وعقلية تبعثه على الإذعان لها واليقين بها، ما لم تسدل غواش وحجب من العصبيات والأهواء على تلك الجذور ومكانها من الكيان الانساني .

إذن ، فالحقائق الاسلامية لها جذور ممتدة الى كيان الانسان في كلا مظهريه النفسي والعقلي معاً . لها جذور تتصل بأعماق كيانه النفسي من حيث هو دين الفطرة ، أي دين يتفق مع أصول ما فطر عليه الانسان من تطلعات وأشواق ، كما يتفق مع موازين العقل والمنطق وأحكامهما .

ثم إن موازين العقل والمنطق تنقسم هي الأخرى الى قسمين : قسم دلّ عليه منهج القرآن وحجاجه ، من البراهين العقلية التي يغلب أن يتعامل بها الناس ويعتمدوا عليها على اختلاف مللهم وأجناسهم ، وقسم استخرجه الفلاسفة ، واستخلصوه من مسالكهم الفلسفية التي اختصوا بها ، فكانت قيمة هذا القسم الثاني في الاحتجاج به والاعتماد عليه مقتبسة من قاعدة : « من فمك أدينك » فربّ مناقش على مقدمات خصمه لدعم مدّعاه ، يريه بذلك أن مقدمات الخصم لا تنتج في الحقيقة دعواه بل تنتج نقيضها .

مسالك الاسلام في مواجهة التيارات الجانحة على اختلافها

نستخلص من هذا أن مسالك الاسلام في مواجهة ، الضلالات والتيارات الجانحة على اختلافها تنحصر في المسالك الثلاثة التالية :

● **المسلك الاول :**

استثارة نوازع الفطرة الأصلية في كيان الانسان ، عن طريق بذل الجهد في سبيل إزالة الغواشي والحواجز التي قد تصد الانسان عن الشعور بها والخضوع لها ، إن الفطرة الانسانية في أبسط الناس عقلاً وإدراكاً تهدي أن لهذا العالم خالقاً ، وبعبارة أخرى : معرفة وجود الله مطبوعة في النفس طبعاً ، وإن أدنى التفات من العاقل السويّ الى نفسه تجعله يوقن بعبوديته لخالق مدبر عظيم .

● **المسلك الثاني :**

تحكيم موازين العقل والمنطق ، مما ائتلفت واجتمعت عليه عقول

الناس أجمع حتى غدت كالعملة العالمية الرائجة • وهذه الموازين العقلية والمنطقية يدعو القرآن الى استخدامها والى مواجهة الجاحدين بها ، بل ربما لقّن القرآن بأسلوبه المعجز الفريد كيفية الاحتجاج من ذلك ما يسمى بدليل العناية ، أو دليل الحكمة والتدبير ، أو دليل مظهر العلة الغائية في المخلوقات ، وهو دليل تصطبغ به المخلوقات كلها على تنوعها واختلافها ، فانك تلمس في نظامها وتآلفها ، يد الإتقان والصنعة ، وهو برهان ما بعده برهان على أن للتنظيم منظماً وللصنعة صانعاً ، وسنأتي على ايضاح هذه المعاني بشيء من التفصيل •

● **المسلك الثالث :**

وهو مسلك الفلاسفة الاسلاميين ، من أمثال الفارابي وابن سينا ، وأبي البركات البغدادي ، فقد اعتمدوا أو توكؤوا على منهج الفلاسفة في تقسيم الأشياء الى ممكن ، ومستحيل ، وواجب ، ثم في الاستدلال بأن الممكنات لا تتّسم بأحد صفتي الوجود أو العدم إلا بقدرة مرجّحة تحكم عليها باحدى الصفتين ، وصاحب القدرة المرجحة إن كان وجوده هو الآخر من نوع الممكنات فلا بد أن يستند وجوده بدوره على ذي قدرة أسبق منه يسبغ عليه صفة الوجود فاذا فرضنا وجود صاحب القدرة الثانية وجوداً ممكناً أيضاً وهكذا ••• تسلسل الى ما لا نهاية وهو باطل ومستحيل• إذن فلا بد من اليقين بأن الممكنات كلها لا بدّ أن تستند في أصل وجودها الى ذات واجبةالوجود ، ينبع وجوده من ذاته ، ولا يضفي عليه من غيره •[1]

وقد شغل كثير من الباحثين أنفسهم وغيرهم بالجدل والنقاش حول أفضل هذه المسالك الثلاثة وأجداها في تبصير الانسان العاقل بوجود الله وحمله على الدينونة له ، فمنهم من فضّل المسلك الأول ، ومنهم من أضاف إليه المسلك الثاني ، ومنهم من ذهب الى أنه لا بد من اعتماد مسلك

---

(١) ينظر كتاب العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٥ ومابعدها .

الفلاسفة والاستفادة من موازينهم الفكرية والمنطقية (عند الضرورة) •

والحقيقة أنه لا معنـــى للتفكـــير في إمكان الاستغناء بواحد (من هذه المسالك) عن الباقي •

فان المسالك الثلاثة ما ظهرت في عهـــد أصحاب رســـول الله ﷺ ، بـــل ظهرت متدرجة حسب ظهور الحاجة ، أي فكان الأساس في استعمالها ضرورة تناســـب العلاج مع المرض المشخّص ، دون تنطّع أو تكلّف ، ودون تقصير في استحضار العلاج المناسب •

ومن المعلوم أن السنوات الثلاث عشرة التي أمضاها رسول الله ﷺ في مكة في صدر البعثة هي المرحلة الأساسية الأولى في الدعـــوة الى الحقائـــق الاسلامية ، وإزالة الحجب والغواشي الصادّة عن رؤيتها واليقين بها ، ومـــن المعلوم أن الناس الذين كانوا من حـــوله آنذاك هم أهل مكـــة ، لذا لم يكن ثمـــة أي موجب للاستعانة (في نطاق دعوتهم للاسلام) بغـــير المسلك الأول، الذي يعتمـــد على استثارة دوافع الفطرة الأصيلة في كيان الانسان ، وتمزيق غواشي العصبّية والعنـــاد • على أن القرآن كان يلفت نظرهم ــ كلما دعـــت الحاجة ــ الى تحكيم موازين العقل التي هي محـــل إجماع وتقديـــر أولـــي الألباب والعقول في كل زمان ومكان[1] •

---

(١) يقدم لنا أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) صورة طريفة تشير الى وعي الانسان الوجداني وبعبارة أوضح الى العلاقة بين الوحي والعقل ، فالشرع والوحي (تدبير إلهي ــ عقل من خارج) والعقل الانساني (ميزان الله في أرضه ــ شرع من داخل) وهما متعاضدان في الغايـــة والهدف في الوصول الى حقائق الامور ، ولكون الشرع عقلا من خارج ، سلب الله اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله تعـــالى :

● « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينطق بما لايسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهـــم لايعقلون » البقرة : /١٧١ .

ولكن العقل شرعا من داخل ، قال الله تعالى في صفة العقل :

● « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم : /٣٠ .

والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول الى عقيدة سليمة راسخة ، وفكرة كليه واضحه تفسر هذا الوجود وتحل ألغازه ، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه ،وأهملوا جانبا هاما من الفطرة الانسانية هو الشعور والوجدان ، جانب القلب والروح ، كما أغلقوا على أنفسهم

فمن الطبيعي أن نستعرض آيات التبصير بوجـود الله ، والدعـوة الى اليقين بحقائق الاسلام وعقائده ، التي نزلت في هذه المرحلة من عصر النبوة ، فلا نجدها تحفـل إلا بالمسلك الأول ، مع تعريج على المسلك الثاني كلما دعت الحاجة ، على أن هذه الآيات التي نزلت في تلك السنوات هي جل الآيات التي تعالج أمور العقيدة وتبرهن عليها ، أو هي كلها ، إذ الآيات التي نزلت فيما بعد انتقلت الى بيان التشريعات والأحكام السلوكية والمبادىء الأخلاقية .

وما كانت ثمة حاجة الى تحكيم شيء من الموازين والقواعـد الفلسفية ، لنقل العرب آنذاك من ضلالة الكفر الى صـعيد الايمان ، لأن عقولهم فارغـة من الشبهات من جانب ، ولأن نفوسهم لا تـزال خاضـعة للفطـرة الانسانية الأصلية من جانب آخر .

ثم إنهم كانوا يتمتعون (الى جانب هاتين الميزتين) بمورد إيماني آخر ، انفردوا به عن كل من جاء من بعدهم ، وهو رؤيتهم رسول الله ﷺ وجلوسهم إليه ، وسماعهم منه ، فسرّحوا أعينهم في مظهره وسيماه ، وأنصتوا الى حديثه وشاهدوا جميل صفاته وأخلاقه .

لذا كان ايمانهم بعد ذلك ، تسليماً ، وسكينة عمـت جوانب نفوسهم ، فلم يكونوا ــ كما قال ابن خلدون[1] يقفون عنـد آيـة من المتشـابهات ، ولا يستعظمون نبأ قرآنيا حوى من عجائب الغيبيّات ، ولا يتساءلون عن شيء من ذلك بـ كيف ؟ أو لماذا ؟ بل كانوا يفرّون من الحـيرة عند المتشابهات الى ما يقابلها من المحكمات ، وكانت عظمة رسول الله ﷺ التي فاضت بها قلوبهم

=
بابا واسعا ماكان أحوجهم اليه ، وما أضل سعيهم بغيره ، هو باب الوحي . ان العقل مهما أوتي من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج محدود بحدود الطاقة البشرية ، مقيد بقيود الزمان والمكان والوراثة والبيئة ، فلاغنى له أبدا عن سند ومعين ، يسدده اذا اخطأ ، ويهديـه اذا ضل ، ويرده الى الصواب اذا شرد ، وهذا السند هو الوحي ، وهو أساس الدين ، يصـل بالعقل الى كماله المنشود » .

ينظر كتاب الايمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠٦ .

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٦ ط : بولاق .

تحملهم على أن لا يستعظموا من بعده أي نبأ أخبرهم به عليه الصلاة والسلام ، فما أيسر عليهم أن يقولوا بملء قلوبهم وعقولهم : سمعنا وصدقنا ، وليس من حولهم من يشكو شبهة فلسفية أو بدعة مذهبية علقت بذهنه ، حتى يضطرهم أمره الى البحث فيها وتفنيدها بأصول البحث والنظر .

على أن كثيراً من أولي الصدارة في العلم في ذلك العصر ، كانوا يرون أن الدخول في تفاصيل ما ورد به القرآن من الأمور الاعتقادية كالتنزيه وإثبات الصفات ونحو ذلك ، شيء يتجاوز حدود العقل وطاقته ، فلا يمكن أن يصل إليه الانسان إلا بأن يقيس الله على نفسه وذلك منبع لأخطار كثيرة[٢]، كانوا يغلقون السبيل في وجه كل من شاء أن يستثير الأفكار للبحث في هذه الأمور . على قلّة من كان يبحث فيها في ذلك العصر ، وقد علمت أن مالك بن أنس رضي الله عنه لما سئل عن معنى الاستواء ، في قوله عز وجل : « الرحمن على العرش استوى » قال :

الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » وروى البيهقي (في شعب الايمان) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

● « نزل القرآن على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم، ومتشابه، وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال .

ولكن الأمر لم يستمر على هذا الحال فيما بعد ، فقد نشأت عوامل مختلفة ألجأت كثيراً من المتصدرين للدعوة الى دين الله ، وتجلية مبادىء العقيدة الاسلامية في أذهان الناس ، أن يضيفوا الى المسلكين الأولين ، المسلك الثالث ، وهو الذي سلكه علماء الكلام فيما بعد .

وإليك أهم العوامل التي دعت الى هذا المسلك :

---

(٢) ضحى الاسلام لاحمد أمين ١٥/٣ .

أولا ــ ان كثيراً ممن دخلوا في الاسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة كاليهودية والنصرانية والمانوية والبراهمة ••• وكان فيهم كثير من علماء دياناتهم ، فلما ركنوا الى الاسلام ودرسوا أحكامه وتعاليمه أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم ويقارنون بينه وبين الاسلام ، فكان ذلك مثار حديث وجدل لدى كثير من الناس إذ الطبع والفكر الانساني يندفعان في مثل هذه الحال الى المقارنة ، واستثاره وجوه التشابه والخلاف ، والتعمق في إبراز ما يرى أنه الحق ، وهو شيء يدفع ولا ريب الى النظر والنقاش •

ولا نستبعد أن يكون في أولئك الذين تحولوا عن أديانهم الى الاسلام من كان لا يزال مفتوناً ومعجباً ببعض ما في دينه القديم ، فكان يثير أسباب الحديث عنه في المجالس ، ويكسوه لباس الاسلام ويقوم بالدفاع عنه بتلك الحجة • ولكنه لا يشكل ظاهرة عامة في ذلك ، كما يدل عليه كلام أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام ، وانما وقع شيء من ذلك بشكل جزئي ، وهو أمر طبيعي ومفروض الوقوع[1] •

ثانيا ــ ان الفتح الاسلامي ، كان أساساً لنشأة حضارة متكاملة المرافق والأركان ، وقد كانت المعرفة بفروعها المختلفة الدعامة الاولى فيها • فأعقب ذلك قيام حلقات العلم والبحث في شتى المسائل والموضوعات الدينية والأدبية وغيرها ، وعكف الناس على تدوين ما ينتهون إليه من زبدة محادثاتهم ومناقشاتهم ، فلم يكن بدّ عندئذ من الخوض في المتشابهات ، والبحث في غوامض الآيات ، وهو أمر يستدعي الاجتهاد ، ومن شأن الاجتهاد أن يوصل الى الخلاف •

ومن الطبيعي أن ينهض كل من الأطراف المتخالفة الى الاستدلال والحجاج لدعم ما يرى أنه الحق ، تلك ظاهرة تفرض نفسها على جميع الأمم

---

(١) ينظر ضحى الاسلام لاحمد امين : ١/٧ •

والشعوب لدى صعودها في مدارج الحضارة ، وعند اتساع سلطانها الفكري والثقافي والسياسي .

ثالثاً ــ كان من آثار اتساع الفتوحات الاسلامية ، وانتشار الدعوة الاسلامية في ربوع الأرض أن دخلت الآلاف بل الملايين في دين الله أفواجاً وقد كانوا ــ كما هو معلوم ــ ينتمون الى حضارات ويتمتعون بثقافات مختلفة ، فضلاً عما كانوا يتصفون به من أمزجة وأخلاق متفاوتة متنوعة ، فظهر فيما بينهم زنادقة أضمروا الباطل الذي كانوا يتبنّونه وستروه بظاهر من الاسلام والانصياع لأحكامه ، ثم أخذوا يدسّون باطلهم بدعاية من العلم والمنطق كلما سنحت لهم الفرصة ، وقد ذكر الشهرستاني أمثلة كثيرة لهؤلاء ، منهم ــ على سبيل المثال ــ أحمد بن حائط الذي كان يقول بالتناسخ مثل ما يقول البراهمة،ويقول في المسيح عليه السلام قولاً يشبه النصارى[٢].

وقد اقتضى ذلك أن يتصدى لهم علماء الاسلام فيكشفوا للناس زيفهم ويجردونهم عما يصطبغونه ، خداعاً من الحجج والبراهين الكاذبة ، وذلك يستوجب لا محالة نوعاً من الحجاج والاعتماد على المنطق ، لم يكن موجوداً فيما بينهم من قبل .

رابعاً ــ أحسّ كثير من علماء المسلمين والمتجردين لبيان العقائد الاسلامية والدفاع عنها بالحاجة الى الوقوف على المصادر التي يستقي منها الزنادقة وتجّار الشبهات حججهم وصناعتهم الجدلية ، كي يجادلوهم بمثل حججهم ، ويظهروا لهم وللناس الآخرين تهافتها وبطلانها ، أو يبيّنوا لهم عدم دلالتها على ما يزعمون من باطل . فاقتضاهم ذلك أن يقرأوا الفلسفة اليونانية ويطلعوا على منطق ارسطو وغيره ، وأن يمعنوا النظر والفكر في هؤلاء المبطلين .

فبهذا الدافع درس « النظام » منطق ارسطو ثم ردّ عليه ، ودرس أبو الهذيل العلاف أصول الفلسفة اليونانية ثم اشتغل بإبطالها ، وعكف كثير من

---

(٢) الملل والنحل للشهرستاني : ٧٧/١ على هامش ابن حزم .

المعتزلة على دراسة كثير من نظريات الفلاسفة واصطلاحاتهم •

خامساً ــ (وهذا العامل يشل روح العوامل الأربعة السابقة والمنهج إليها) ، ما تشبّع به علماء المسلمين بدءاً من عصر الصحابة من التوجيهات القرآنية التي تدعو المسلمين الى بذل كل جهد للنهوض بأعباء الدعوة الاسلامية ، وتخطط لهم أصول تلك الدعوة ، من مجادلة (بالتي هي أحسن) طبق مبادئها المرعية اذا اقتضى الأمر ذلك ، بل لقد درّبهم القرآن على أكثر من ذلك ، إذ وضع أمام أفكارهم نماذج من كيفية استعمال المنطق وأصول النظر في الكشف عن أحابيل المبطلين وتعرية مقاصدهم وأهدافهم كلما دعا الداعي الى ذلك •

من ذلك ما تراه في برهان (التمانع) في قوله تعالى :

● « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

ومنه ما تراه من بطلان (الدور) والرجحان بدون مرجّح في قوله تعالى :

● « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايؤمنون • »

ومنه ما تراه في برهان القياس بجامع العلة المشتركة في قوله تعالى : (وهو يردّ على النصارى منكري الحشر)

● « كما بدأنا أول خلق نعيده » وقوله تعالى وهو يردّ على النصارى أوهامهم عن المسيح عليه السلام :

● « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون • »

وما تراه من مظهر المحاكمة الفكرية في طريق البحث عن الصانع والمكوّن ، في حديثه جل جلاله عن سيدنا ابراهيم بدءاً من قوله تعالى :

● « وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ••• » الى قوله تعالى :

● « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين » .

فهذه الآيات .. وأمثالها من القرآن الكريم .. ترويض لعقول المسلمين وأفكارهم على النقاش والحجاج في طريق الكشف عن الحق ، وتجليته أمام بصائر أولي النهى ، كلما دعا الأمر الى ذلك .

ولا ريب أن المسلمين تمرسوا بهذه الأساليب القرآنية تدريجيا، وحصلوا منها ملكة أقدرتهم على رسم مناهج النظر ، وكيفية الجدال مع المبطلين . ثم إنهم وجدوا فيها الدعوة الصريحة لهم الى عدم الاكتفاء بما يتمتعون من نعمة الفطرة الاسلامية الأصيلة التي أغنتهم عن تكلف النظر في براهين المنطق وموازين الفلسفة ، بصدد دعوة غيرهم الى الاسلام . بل أمرهم الله أن يجابهوا فئات الناس كلاً حسب عقليته وماقد حمّله من شبه ومشكلات ، وهذا من بعض ما تضمنه قوله ﷺ :

● « كلّموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله »[1] .

فهذه هي أهم العوامل التي دعت المسلمين بعد استقرار الفتح الاسلامي أن يتجاوزوا المسلكين الأول والثاني في طريق التبصير بالعقائد الاسلامية والدفاع عنها ، ويقتحموا المسلك الثالث ، الذي التقى عليه فيما بعد علماء الكلام والفلاسفة الاسلامية ، ومن اتباعهم لهذا المسلك الثالث الذي (سبق أن عرّفنا به) نشأ وتكامل (علم الكلام) .

تعريف علم الكلام : وأرى أن خير تعريف له ما عرفه به ابن خلدون في مقدمته إذ قال : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين (في الاعتقادات) عن مذاهب السلف وأهل السنة . »

---

(١) رواه البخاري موقوفا على علي رضي الله عنه ، ولكن رفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم .

وقد ذكرنا مسالك الاسلام (الثلاثة) في مواجهة التيارات الجانحة على خلافها ، أنها خاضعة لمسلك القرآن في الدعوة الى الله ، وعلى أن يستعمل كل منها في المكان المناسب ، وطبقاً للحاجة الداعية ، دون تشدّق وتنطّع (تطرّف لا مبرّر له) ، ودون تقصير وإهمال .

أي فاستثارة الفطرة حيث تجثم الشّبه العقلية والفلسفية في العقل وتثقلها عن التحرّك سعياً وراء الفطرة (عبث لا يأتي بطائل) ، كما أن اصطناع المعارك العقلية للردّ على شبه عقلية لا وجود لها في المجلس أو بين الجماعة التي يثار الحديث عنها فيما بينهم ، (تنطّع ـ ممجوج وتضييع للوقت) ، مما يعتبر خارجاً عن حدود الحكمة الاسلامية الذي أمرنا الله أن تلتزم جادتها في دعوتنا الى الله ، (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة).

لقد عرض الامام الغزالي لبيان قيمة هذا العلم ، ومدى أهميته ، وقبل أن أوضح الرأي الذي يراه الغزالي في هذا العلم أقول : لا أرى أي تعارض بين من استنكر علم الكلام والاشتغال به ومن حبّذه ودعا إليه ، فان الطرفين لم يحرّرا محل البحث والخلاف بينهما ، ولو تحرر محل البحث في الموضوع لسقط الخلاف حول قيمة هذا العلم .

إن جمهورا من أصحاب الشافعي وأصحاب مالك وأبي حنيفة ذهبوا الى ان علم الكلام من الفروض الكفائية ، وأنها ليست أقل أهمية من علم أصول الفقه ومصطلح الحديث ، وعلوم القرآن ، بل يكاد يكون أشرفها جميعا لتعلقه باصول العقائد الاسلامية ، واحتجوا بالآيات القرآنية التي تتضمن الحجاج والنقاش في الاعتقادات ، وتدعو المسلمين الى دعوة الناس على أساسها ، كما احتجوا بأن علياً رضي الله عنه ، كان في مقدمة الصحابة الذين سنوا دعوة المبتدعة ، بالمجادلة الى الحق ، فقد ناظر رضي الله قدريّاً في القدر ، وأرسل ابن عباس ليناظر أحد الخوارج ، بل إن الشافعي ذاته أوتي قدرة على الجدل والمناظرة ما أوتي أحد في زمنه مثلها ، ولقد كان يناظر ويجادل كلما اقتضى الامر ذلك .

وحـل هذا الخلاف ، الذي نراه خلافاً في الظاهر فقط ، أن الذين استنكروا علم الكلام ، إنما حذروا من اتخاذه صنعة وديدنا ، والتنطّع بـه بموجب وبدون موجب. على أنهم أنكروه قبل أن تشتد ضراوة الزنادقة وتشيع شبههم على الناس ، وهذا الاستنكار بهذا القيد ليس محل خلاف ، فحتى الذين ألّفوا في علم الكلام واشتغلوا به (كالامام الباقلاني) حـذروا من استعماله في غير حاجة إليه .

أما الذين استحبّوه وعدوه من فروض الكفاية ، فانما عدوه كذلك ، بعد أن شاعت الشبه والمشكـلات ، وبعد ان تغلب تيار النقاش والجدل حـول آيات الصفات والآيات المتشابهة في المساجد وحلقات العلم ، على الوازع الذي كان يجعل الناس يلجؤون الـى السكينة الايمانية والتسليم لمراد الله ، كلما طرحت شبهة ، فاستلزم الأمر إعداد العدة وافحام الباطل بسلاحه ، واسكاته بذات الحجّة التي يصطنعها دعاته .

وهذا الاستحباب المقيد بهذا الحد لا نراه محل خلاف عند أحد الطرفين .

ثم إن الامام الغزالي ، أدلى بما يراه القول الفصل في حق هذا العلم ، فقال كلاماً طويلا أنقله ملخصاً بألفاظه :

« إن فيه منفعة ومضرّة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حـلال أو مندوب إليه أو واجب كمـا يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرّته في وقت الاستضرار ومحله حرام . وإذا وقعت الإحـاطة بضرره ومنفعته ، فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لايضعه إلا في موضعه ، وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة ... ثم قال : وان الشافعي وكـافة السلف إنما منعوا عـن الخوض فيه والتجرد له لمـا فيه من الضرر الـذي نبّهنا إليه . [1]

أقول : وإن علم الكلام اليوم ، في حدود الحاجة الماسة الى التصدّي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة ، مما يلبس أردية النطق والعلم في الظـاهر

---

(١) إحيـاء علوم الدين ١٠/٩٦ .

(كالمادية الجدلية ، ونظريات التطور وغيرها) ، من أشرف مايجب على المسلمين الاشتغال به والانصراف إليه . وهو ضمن حدود الحاجة اليه داخل في صميم المنهج القرآني للتبصر بحقائق الاسلام وعقائده[1] .

على أن هذا العلم لا تزيد فائدته عن كنس الوساوس الفكرية ، وطرد الشبه العقلية التي يخيّل الى موقع في شراكها أنها حقائق ثابتة ، أما تنمية اليقين بالله في القلب فعلاجه اتباع شيء آخر وراء هذا العلم ، هو الاستمرار في السعي الى تزكية النفس من أوضارها (جهاداً للنفس والهوى) ، عن طريق الإكثار من ذكر الله في الغدوّ والآصال ، والإكثار من تلاوة القرآن ، والعبادات ، وتطهير اللقمة (من شبهات الحرام) ، والابتعاد جهد المستطاع عن ظلمات الآثام والمعاصي[2] ، والله الموّفق .

وهذه المعاني التربوية تشير الى مقام الاحسان (أن تعبد الله كأنك تراه ، ــ فان لم تكن فانه يراك) ،وقد ورد هذا المعنى في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ في الاشارة الى الاسلام والايمان والاحسان) : « قال : أخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك .. » وختام الحديث الشريف :

قال : ثم انطلق فلبثت مليّاً ثم قال لي : « ياعمر ! أتدري من السائل »؟
قلت : الله ورسوله أعلم قال « فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .
رواه الامام مسلم ...

---

(١) ينظر كتاب العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٥ وقد أعطانا الاخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي تطبيقاً عمليا لهذا الرأي في نفس كتابه المشار اليه أعلاه (العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر)، حين تصدى للمادية الجدلية (فلسفة الشيوعية) وللاساس الذي أقيمت عليه فلسفة المادية الجدلية ، تعريفا بأصولها وقوانينها ، ونقدا علميا لاصول هذه الفلسفة ، بما يؤدي الى تهافتها ونقض أوهامها ، وذلك في الصفحات (٩٩ ــ ١٧٦) من كتابه المشار اليه (العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر) طبع مؤسسة الوحدة بدمشق عام ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م ، وجدير بالباحث الاجتماعي الاطلاع على هذا النقد العلمي البناء .

(٢) ينظر كتاب العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر ص ٢٥ ، للدكتور البوطي .

نشــأة المذاهب الاســلامية

ونعني في هــذا المقام بالمذاهب الاسلامية ، تلك التي اختلفت بعضها عن بعض في أمــور تتعــلق بالاعتقاد ولا شــأن لنا في هــذا الصــدد بالمذاهب الفقهيــة (المعهودة) التي يبحث فيها الفقهاء •

فنقول هنا باختصار : ان العوامــل التي عددناها أسبابا لنشــأة عــلم الكلام هي بذاتها أسباب أساسية لنشــأة المذاهــب الاسلامية ، كالأشعرية والماتريدية والمعتزلة ••• الخ) •

ذلك لأن مبادىء العقيدة التي كانت محصّنة بالتسليم القلبي ، ومكلوءة بحوافز الفطــرة الانسانية الأصيلة ، وليس في العقــل شــيء من المشوشات والشبهات التي تفــد عادة من خارج النفس لأسباب سبق ذكرها ــ أو ذكــر طرف منها ــ فان شيئا من عوامــل الخلاف لا يتسرب الى من هــذا شــأنهم وحالهم ، إذ الخلاف يأتــي نتيجــة التعمق في الشيء ، بحيث يتجاوز الباحث ظواهره البدهية الى بواطنه الظنّية ، فاذا انتهى الباحثون الى تلك البواطن ، لم يؤمــن عليهم من الاختلاف نظــراً لظنّية أكثر الأدلة ، وهو الأمــر الذي لا يضمن معه الاتفاق •

وليس من شأن أصحاب التسليم القلبي تجاوز الظواهر التــي لا مجال للخلاف فيها ، إذ أنهــم ما إن ينتهون الى ما وراءها من غوامض ومشكلات ، إلا ويطوون المســألة عن النظــر ، ويغلقون باب التأمــل الفكري ، مسلّمين الأمــر الى الله عز وجل ، ثم يعودون الــى الاستمساك بالجــذع الأساســي والظواهر الكلّية الواضحة ، التي لا مجال لنشوب الخلاف حولها •

وتلك هي حالة أصحاب رسول الله ﷺ في صدر الاسلام ، ولو اســتمر الأمر على تلك الحال لما تسلّل أي خلاف ، ولما ظهرت فرق أو مذاهب مختلفة•

ولكن لما ظهرت العوامل الخمسة التي عددناها عند البحث في أسباب نشأة علم الكلام ، انساق جمهور العلماء من بقايا الصحابة وجلّ التابعين ، بدون اختيار منهم ، الى مجاوزة ظواهر الحقائق الاعتقادية وظواهر نصوصها ، نحو التأمل والبحث في بواطنها الخفية أو القابلة للنظر والبحث، كما انساق كثير من العلماء الى العكوف على دراسة الفلسفة اليونانية أو على دراسة الشّبه الفكرية والعقلية عموماً ، فاضطرهم الحال الى البحث في كثير من دقائق الأمور الاعتقادية التي كانوا في غنى عن بحثها والنظر فيها ، لوسلمت لهم الحال السابقة فذرّ من جرّاء ذلك قرن الخلاف ، وظهرت الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة ... الخ.

ويضيف بعض الباحثين ، لا سيما المحدثون منهم الى هذه العوامل التي أشرنا اليها ، عاملاً آخر ، لم نتحدث عنه بصدد تعداد عوامل نشأة علم الكلام ، إذ لا علاقة له به في الحقيقة ، وهو العامل السياسي الذي يتمثل في الخلاف الذي نشأ حول أمر الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ ، فقد استتبع النظر في ذلك الأمر السياسي خلافات حول أمر الإمامة ، والأولى بها ، كما تفرعت عن ذلك خلافات فرعية أخرى ، استقطبت مذاهب ، أضيفت الى المذاهب الاسلامية .

ولا نرى علاقة لهذه المذاهب بما نحن في صدده من أسباب نشأة المذاهب الاسلامية التي اختلفت فيما بينها ضمن نطاق المسائل الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين .

ثم إن المذاهب الاسلامية التي نشأت على أعقاب البحث في غوامض المسائل الاعتقادية ودقائقها ، إنما تفرعت عن المذهب الأساسي الأول ، الذي كان ولا يزال يمثل جمهور المسلمين في عصر الصحابة وصدر عصر التابعين ، وهو المذهب الذي أطلق عليه فيما بعد مذهب أهل السنة والجماعة ويمثله الأشاعرة والماتريدية ، إذ الخلاف بين هذين الفريقين جزئي لا أهمية له ، فهما في حكم المذهب الواحد ، لذا فقد ظل المذهب الذي يمثل أهل السنة

والجماعة ، عنواناً على الحق الذي التقى عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة ، وكان أصحابه ولا يزالون هم سواء هذه الأمة وغالبيّتها العظمى .

أما تلك المذاهب التي تفرعت عنه ، كالمعتزلة والمرجئة والقدرية وغيرهم، فقد انفصلت عن جماهير أهل السنة،كما تنفصل الجداول الصغيرة المتعرجة عن النهر الغمر الكبير .

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى سياسة الاستشراق والمستشرقين اليوم ، حيال هذه المذاهب الجزئية الصغيرة ، فهي تضع نصب أعينها ضرورة التنويه بها ، والدعوة اليها ، وإبراز تراجم رجالها في إطار من الإجلال وعبارات الإعجاب ، أملاً في أن تحيا الخلافات التي نشأت فيما بينها من جديد ، وأن يلقى كل منها شيعة وأتباعاً ، فيتبدّد فيما بينها الخط العريض الذي كانت ولا تزال تلتقي عليه جماهير المسلمين ، أهل السنة والجماعة ، عسى أن يتحوّل أمر العقيدة الاسلامية الجامعة الى نحل متخاصمة متعادية ، كما هو الشأن بالنسبة للديانة المسيحية اليوم .

ومع ذلك ، فسندرس أهم هذه المذاهب ، ونقف على نقاط الخلاف فيما بينها ، لنتبين من خلالها السبب الذي من أجله كان مذهب أهل السنة والجماعة هو المستقطب لسواد المسلمين في كل زمان ومكان، ولندرك كيف أن هذا المذهب إنما كان استمراراً مستقيماً لما ترك عليه سيدنا محمدﷺ أصحابه، فقد كان ولا يزال أبعدها عن غلواء الفلسفة والتأثر بها ، وأقربها الى التمسك بما كان عليه السلف ، دون انحراف الى تشبيه ولا تجسيم ولا تعطيل[1] .

---

(١) ينظر كتاب العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٨

دراســة أهم الفرق الاسلامية

وبيان ما اختص به كل منها من مذهب وآراء

مقدمــة :

إعلم أن الفرق التي ذرّ قرنها بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد مرور عهد الخلافة الراشدة تنقسم في مجموعها الى قسمين :

آ ــ فرق سياسية يعــود العامل الرئيسي في خروجها عن سبيل الجماعة ومنهج الاعتدال الى مسألة الخلافة وما قد يتعلق بها ٠

ب ــ فرق اعتقادية يعود العامل الرئيسي في خروجها عن سـبيل الجماعة ومنهج الاعتدال الى مسائل تتعلق بأمور الاعتقاد ٠

وخطّتنا في هذا الكتاب أن نمرّ بالقسم الأول منها مرّاً سريعاً ، تتوخّى منه استحصال نظرة إجمالية الى الخلافات التي نشــأت حــول مسألة الخلافة والحكم في الاسلام ، والفرق التي توالدت من بعضها من جرّاء ذلك ، والتنبيه الى أنها غــدت بعد حين مرتعاً لأولي الأهــواء السياسية ، والنزعات الدينية ، دون أن تكون أصولها الفكرية الأولى جارية في الحسبان ٠

حتى اذا بدأنا بالقسم الثاني ، عرضنا فيــه لأهم الفرق الاعتقادية ، التي كانت أصولاً لفــروع نشــأت عنها ، وأوضحنا بقــدر من التفصيل مظاهر الغلوّ والانحراف التي انجرف اليها كل منها ، وكيف أنها **انفصلت** بذلك عن صراط هذه الأمــة المتمثل في كتاب الله وســنة رسوله ، والمتجلّى فيما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ طوال حياته معهم ، وطوال عهد الخلافة الراشدة، **انفصال الغصن المنحرف** عن جذعه الصاعد المستقيم ، فلا هــو مدغم فيــه

صاعد مستقيم معه ، ولا هو منبتّ عنه أو منقطع النسب إليه .

ثم نوضح بعد ذلك دور كـل من الإمام أبي الحسن الأشـعري وأبي منصور الماتريدي في تحصين ذلك الجذع الضخم الصاعد المستقيم ، من عبث العابثين وكيـد الزنادقة الذين تسللوا يهـدفون الى ذلك الجذع العظيم ، من خلال تلك الفرق وخلافاتها الناشئة فيما بينها ، ليقوضوا الجذع والأسـاس ، ويبدّدوا رؤيـة العقول والأفكار الاسلامية عنـه ، فلا تبصر أمامها إلا تلك السّبل الخلافية المتعرجة ، دون أن تهتدي الى الصراط العريض المنـير الذي ترك عليه رسول الله ﷺ أصحابه ، والذي هو المعتصم الوحيد من مغبّة كـل ضياع وانحراف الى متاهات السبل المتعرجة ، الى يوم القيامة .

وبذلك تكون دراستنا لهذه الفرق دراسـة علمية تأملية ، لكيفية نشأة الفروع الانحرافية عن الصراط العريض الذي كان عليـه أصحاب رسول الله ﷺ ، ابتغاء أن نعتبـر فنبتعد عـن متاهات تلك الفـروع ، متحصنين بذلك الصراط العريض ، ولا تكـون هذه الدراسـة سعياً الى حجب أنفسنا عـن هذا الصراط البيّن العظيم ، بشذوذات تلك الفرق ، على نحـو ما يجنح إليه المستشرقون ، إذ يظهـرون لنـا الاهتمام البـالغ بهـذه الفـرق وآرائها ، ويتظاهرون بالتأثّر والإعجاب الشديد بكثير منها ، وهو منهـج استشراقي في دراسة تاريخ الفرق ، لا تخف أهدافه على عامة المثقفين في هذا العصر .

أولا ـــ الفرق السياسية :

وقد قلنا أن العامل الرئيسي لنشأة هذه الفرق،هو الخلافة وما يتعلق بها.

والجدل الذي ثار حول مسألة الخلافة يدور ـــ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ـــ على المحاور التالية :[1]

ـــ أحدها : أيجوز إقامـة خليفتين في وقت واحد ، أم لا بـد أن يكون الخليفة واحداً ؟

ـــ ثانيها : هل يتحتم كون الخليفة قرشياً ؟

---

(١) المذاهب الاسلامية للشيخ أبو زهرة ص : ٣٤ و ٣٥ .

ـ ثالثها : هل يجب أن يكون من بيت النبوّة ، أي من آل بيت رسول الله ﷺ ؟

ـ رابعها : هل الخلافة مستلزمة للعصمة ، فلا ينالها إلا المعصوم الذي لم يرتكب معصية قط ؟

والمهم في هذا الصدد أن نلاحظ أن هذا الجدل ، وإن كان سياسياً في مظهره ، وبالمعنى الذي يفهمه الناس اليوم إلا أنه ديني في منشئه وأسسه ، وليس كما آل اليه الحال اليوم أن يكون الجدل والخلاف في أمر ما دينياً في مظهره سياسياً في بواعثه وأساسه .

إن مما لا ريب فيه أن ظهور هذه الفرق قام على عكس الصورة التي كثيراً ما تشاهد اليوم ، فما أهمها هذا الأمر حينئذ ، وما نهض أصحابها بالنقاش أو الجدل حوله ، وما انقسموا من جراء ذلك فرقاً إلا تمحيصاً وتحقيقاً لواجب إسلامي (في تصوّر كل منهم)، ولكنه بقي في تصوراتهم أمراً خاضعاً للنظر والبحث ، لا تتجلى فيه بواعث الاتفاق على يقين واحد ، فنشأ الاختلاف من جراء ذلك فيما بينهم .

على أن هذا الذي بدأ بدافع ديني كما أقول ، لم يلبث أن غدا فيما بعد ، ذريعة لكل ذي مطمح سياسي ، أو نزعة إلحادية ، أو هوى جانح عن سبيل الحق ، فغدت هذه الفرق بذلك مطايا لأصحاب الأغراض وأولي الانحرافات على اختلافها، وأنت تعلم أن دعاة السوء والزيغ لا يستطيعون أن يتسللوا الى المجتمع الاسلامي المتماسك إلا من نوافذ هذه الفرق وأمثالها إذ يتمادى بها الجدل والصراع ، فتنحرف عن الجادة ربما دون أن تنتبه الى أنها انحرفت عنها ، فتنفتح من ذلك ثغرة، وما هو إلا أن ينحط فيها ويتسلّل اليها المتربصون من أولي الزيغ تجار الزندقة والضلال .

وإليك بياناً موجزاً بأهم هذه الفرق الصغرى التي نشأت عنها .

الشـــيعة

من المعلوم أن نشــأة التشيّع كانت عند تمام البيعــة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، ولكنــه لم يظهــر مذهباً على صعيد المجتمع الاسلامي إلا في أواخر عهــد سيدنا عثمان رضي الله عنه . أما شــأنه فيما بين ذلك فانما كــان وجهــة نظــر قامت يــوم السقيفة[1] ، ثم هــدأت وطويت باستقرار الأمــر لأبي بكر رضي الله عنه واجتمــاع الناس على بيعتــه ، لا سيما عندما بايعــه سيدنا علي كرم الله وجهه بذاتــه ، وقــد كانت بيعتــه له بعــد وفاة فاطمــة

---

(١) لما قضى النبي ﷺ وكان قد ترك مسألة الخلافة شورى . اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة لمبايعة سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، فحضر اليهم نفر من المهاجرين عز عليهم ان يخرج الامر عنهم .

احتج الانصار بأنهم هم الذين آووا ونصروا ، واحتج المهاجرون (على لسان أبي بكر رضي الله عنه) يقول رسول الله ﷺ « الائمة من قريش » رواه الامام أحمد والحاكم . فأذعنوا له منقادين ورضخوا الى الحق طائعين بعد أن قالت الانصار (منا امير ومنكم أمير) ، وبعد أن جرد (الحبّاب بن المنذر) سيفه وقال :

« أنا جذيلها المحكك ـــ والجذيل المحكك خشبة تنصب للابل الجربى لتحك به جسمها اذا هاجها الداء ، وهذا مثال يراد به انه يستشفي برأيه وعقله .

وعذيقها المرجب ـــ والعذيق المرجّب : العذق النخلة ، الرجبة : الدعامة التي تستند اليهــا النخلة الطويلة حتى لاتتلاعب بها العواصف ، وهذا مثل أيضــا كسابقه .

من يبارزني ؟ . . . وبين دمدمة الحق ولجلجة الباطل قام بشير بن سعد الانصاري وقال :

« يامعشر الانصار . إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين . وسابقة في هــذا الدين ، ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لانفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل عــلى الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، فان الله ولي المنة علينا بذلك . الا أن محمدا ﷺ مــن قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لايراني الله أنازعهم هذا الامر أبدا ، فاتقوا الله ولاتخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لانتولى هذا الامر عليك ، فانك افضل المهاجرين ، وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له ان يقدمك أو يتولى هذاالامر عليك ابسط يدك نبايعك ، وقام الناس اليه فبايعوه ، وخرج الناس من السقيفة ، والبيعة معقودة لأبي بكــر .

رضي الله عنها بعشرة أيام ، وقيل بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أشهر وقيل غير ذلك[٢] .

ويتلخص مذهبهم الذين يتفقون جميعاً عليه في النقاط التالية :

أولاً — ليست الإمامة من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ، بحيث يعتمد الشخص الذي تختاره من بينها للنهوض بهذا الأمر ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ، وليس من شأن النبي إغفاله ولا تفويضه الى ما تراه الأمة ، بل يجب عليه أن يعين لهم الإمام من بعده .

ثانياً — لا بد أن يكون الإمام معصوماً من المعاصي بنوعيها : الكبائر والصغائر .

ثالثاً — إن علياً رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، هو الإمام الذي عيّنه رسول الله ﷺ للأمة من بعده .

فهذه النقاط الثلاث محل إجماع منهم جميعاً عليها ، على اختلافهم وتفرقهم عن بعضهم بصدد النظر في أمور أخرى .

ثم إنهم لما نظروا في أمر الخلافة من بعد عليّ كرم الله وجهه تفرقوا الى المذاهب التالية :

● مذهب يرى أن مساق الخلافة من بعد علي كرم الله وجهه في ولد فاطمة ، بالنص عليهم ، واحداً إثر آخر ، وأصحاب هذا الرأي هم الإمامية ، نسبة الى مقالهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الايمان .

● ومذهب يرى أن مسامتها في ولد فاطمة ، لكن بالاختيار من الشيوخ ، على ان يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جوادا شجاعاً ... وأصحاب هذا الرأي هم الزيدية ، نسبة الى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين .

---

(٢) ينظر ابن الاثير ٢/١٥٨ — والطبري ج٣ /٢٠٧) .

ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين ، ورأوه يقول بإمامتهما ، ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة المعتمدين ، وبذلك سمو (رافضة) •

● ومذهب يرى أن مساق الخلافة بعد علي وابنه السبطين ، الى أخيهما محمد بن الحنفية ، ثم الى ولده ، وأصحاب هذا الرأي هم الكيسانية ، نسبة الى كيسان مولى محمد بن الحنفية •

وقد نشأت منهم طوائف يسمون الغلاة ، تجاوزوا حدّ العقل والايمان ، فقالوا بألوهية كثير من هؤلاء الأئمة ، وقد تبرأ منهم أولئك الأئمة أنفسهم ، وعاقبوهم على ذلك عقاب المرتدين[1] •

ونحن نرى أن موضع النظر والبحث في هذه المسألة قد طوي وزال ، فقد عفى الزمن على ما يمكن أن يختلف المسلمون حوله في أمر الخلافة والأحق بها من مجموع الخلفاء الراشدين ، إذ هي مسألة تاريخية فصل الزمن والواقع في أمرها • وحسبك أن تعلم أن عليا كرم الله وجهه، وهو موضوع هذا البحث وبطل هذه المسألة وأصلها ، قد بايع بنفسه أبا بكر رضي الله عنهما واستقر الأمر على ذلك •

أفلا ترى أن نبش هذا الماضي الذي لا توجد له أي ظلال تطبيقية ، واتخاذه مادة تصديع لصف المسلمين ، وبذر أسباب الخلاف بينهم من أعجب الأعمال المبكية والمضحكة بآن واحد ؟ وإذا أعوزك أن تجد ما يثلج له صدرك ، حيال واقع مضى وانقضى ، في الصدر الأول من تاريخ المسلمين فاذكر أن هذا الترتيب الذي شاءه الله تعالى في تعاقب الخلفاء الراشدين هو السبيل الوحيد الى أن تسعد الأمة الاسلامية آنذاك بخلافتهم وإمرتهم جميعاً، فلو كان الترتيب على خلاف ذلك لخسر المسلمون خلافة واحد منهم على أقل تقدير ، أي لو كان سيدنا علي رضي الله عنه هو أول الخلفاء لما كان للمسلمين نصيب من خلافة أي من الثلاثة الذين كانوا قبله •

---

(١) عن مقدمة ابن خلدون بتلخيص ص ٩٦ طبعة بولاق .

أما ما وراء أمر الخلافة من المسائل الفقهية الفرعية التي أخذت فيها الشيعة باجتهادات خاصة بهم فأمر ذلك هيّن والخطب فيه يسير ، وإنما المدار في كل اجتهاد ينهض به عالم من علماء المسلمين أيّاً كان ، أن يكون اجتهاده معتمداً على مدرك ودليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

الخوارج

تعود نشأة الخوارج ـ كما هو معلوم ـ إلى الحرب المستعرة التي قامت بين علي رضي الله عنه ومعاوية في موقعة صفين . فقد دعا معاوية الى تحكيم القرآن عندما أحسّ بالهزيمة تحدق به . فقام في جيش علي رضي الله عنه من يؤيد هذا التحكيم ، ويضغط على علي رضي الله عنه أن يقبله .

فلما خضع علي للتحكيم ، وقام حكم من هذا الطرف وحكم من ذاك ، ونجحت الخطة التي كان قد وضعها معاوية للفوز بما يريد ، عاد أولئك الذين ضيقوا على عليّ أن يقبل التحكيم يلومونه ويعنفونه على ما صنع ، وانقلبوا عليه بعد أن كانوا شيعة له ، وانحاز عنه منهم اثنا عشر ألفا فلحقوا بحروراء ، ـ وهي قرية من قرى الكوفة ـ وأمروا عليهم شبيب بن ربعي التميمي ، فخرج علي رضي الله عنه إليهم ، وقامت بينه وبينهم مناظرات ، وإنما سموا بالحرورية لاجتماعهم في هذه القرية وانحيازهم إليها ، وهم من أكبر فئات الخوارج عدداً وأشدهم ضراوة وتمسكاً بما يرون .

روى المسعودي أن عليا رضي الله عنه لما قدم الكوفة ، جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر : جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنيّة ، لا حكم إلا لله ، فيقول علي رضي الله عنه حكم الله انتظر فيكم فيقولون :

● « ولقد أوحي إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

فيقول علي :

● « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون » .

ولقد كانت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب لا مجال للحديث عنها ، ثم كان مقتله على يد واحد منهم ، وهو عبد الرحمن بن ملجم[1] .

أهم المعتقدات التي انفرد بها الخوارج :

قد عرفت مما سبق أن الخوارج كانوا يعانون من ضيق في التفكير ، وغلظة في الطبع ، وقسوة في معالجة الأمور ويعود ذلك الى أن أكثرهم من الأعراب والقبائل الجافية ، لم يتذوقوا طبيعة الشريعة الاسلامية ولم يتمرسوا

---

(1) وفي حلية الاولياء لأبي نعيم عن ابن عباس قال : لما اعتزلت الحرورية قلت لعلي : يا أمير المؤمنين أبرد عني الصلاة لعلي آتي هؤلاء القوم فأكلمهم ، قال : أتخوفهم عليك ، قال : قلت كلا ان شاء الله فلبست أحسن ما أقدر عليه من اليمانية ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم لم أر قوما أشد منهم اجتهادا ، أيديهم كأنها ثفن إبل — جمع ثفنة وهي ركبة البعير ومامس الارض من كركرته — ووجوههم مقلبة من آثار السجود ، قال : فدخلت عليهم فقالوا : مرحبا بك يا ابن عباس ، ماجاء بك ؟

قال : جئت احدثكم على أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي ، وهم أعلم بتأويله ، فقال بعضهم : لا تحدثوه وقال بعضهم : لنحدثنه . قال : فقلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به ؟ وأصحاب رسول الله ﷺ معه . قالوا ننقم عليه ثلاثا قلت : وما هن ؟ قالوا : أولاهن — أنه حكم الرجال في دين الله ، وقد قال الله عزو جل « ان الحكم الا لله . قال : قلت وماذا ؟ قالوا — قاتل ولم يسب ولم يغنم لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم وان كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت ثم ماذا ؟ قالوا : ومحا نفسه عن أمير المؤمنين ، فان لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت أرأيتم ان قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ مالا تنكرون ترجعون ؟ قالوا : نعم .

قال : قلت أما قولكم انه حكم الرجال في دين الله فانه يقول :

● « ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله متعمدا فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » وقال في المرأة وزوجها :

● « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » .

أنشدكم الله أفحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم ؟ فقالوا : اللهم في حقن دمائهم واصلاح ذات بينهم ، قال : : أخرجت من هذه ؟ قالوا نعم .

قال : وأما قولكم أنه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فقد كفرتم ، وان زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الاسلام ، ان الله عز وجل يقول : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فأنتم تترددون بين ضلالتين ، فاختاروا أيهما شئتم ، أخرجت من هذه ؟ اللهم نعم .

قال : وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين ، فان رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا ، فقال : اكتب هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا :

بمعرفتها ، فزادتهم عصبتهم بلاء وأضافت الى جهالتهم عناداً عندها وتشبثاً بها .

وقد تمسكوا ــ دون سائر المسلمين ــ بمعتقدات جعلت لهم مذهباً متميزاً نجملها بما يلي :

أولا : الخليفة لا تتم له الخلافة إلا بمبايعة تامة صحيحة ، يقوم بها عامة المسلمين لا فريق منهم فاذا حاد الخليفة بعد ذلك عن الحق أياً كان وجب عزله ، فان لم ينعزل وجب قتله .

ثانيا : جميع الناس في أمر الخلافة سواء ، لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره ولا بين عربي وأعجمي . وقد بايعوا من بينهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وهو غير قرشي وسموه أمير المؤمنين .

ثالثا : يكفر المسلم ، في اعتقادهم ، بارتكاب معصية ما دون أي تفريق بين معصية وأخرى أو صغيرة وكبيرة[1] ، حتى ولو انزلق اليها خطأ أو بدافع اجتهادي ، كأن اجتهد فأخطأ فهي خطيئة مكفرة ، ولذا كفّروا علياً رضي الله عنه بالتحكيم ، مع أنه دخل مكرها ، وقبله اجتهاداً . فهذا دليل على أنهم يكفّرون المسلم بأي ذنب اقترفه أو خطيئة وقع فيها ، لا بارتكاب الكبائر فقط ، كما نقل عنهم .

رابعا : ثم إنهم يجيزون أن لا يوجد إمام للمسلمين أصلاً ، إذا اتفقوا فيما بينهم على ذلك ، وسارت أمورهم دون حاجة إليه .

وقد كانوا يأخذون بظواهر النصوص، دون أن يعملوا فيها العقل والنظر

=

والله نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله اني لرسول الله وان كذبتموني ، اكتب يا علي بن عبد الله فرسول الله كان أفضل من علي أخرجت من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم ، فرجع منهم عشرون الفا ، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا .

ينظر حلية الاولياء لأبي نعيم : (١/٣١٨ ــ ٣٢٠) ، مناظرة ابن عباس للخوارج .

(١) ينظر الفرق بين الفرق للبغدادي : ص ١١٧ .

إطلاقاً ، فبينهم وبين الظاهرية من هذا الجانب نسب وتشابه •

لذا كان علي رضي الله عنه إذا جادلهم لم يحدثهم عن نصوص كتاب أو سنة ، بل كان يناقشهم بعمل رسول الله ﷺ ، إذ لا مناص لهم من الاعتداد به والخضوع له •

فرق الخوارج : ثم إن الخوارج اختلفوا فيما بينهم في جزئيات شتّى ، بعد اتفاقهم أو اتفاق أكثرهم على هذه الاصول الأربعة التي ذكرناهم عنهم •

وكبار فرق الخوارج التي نشأت عن اختلافاتهم تلك ، ستة هي :

● الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والإباضية ، والثعالبة • وأقل هذه الفرق غلواً ، الإباضية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباض ، كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة يكفر كفر نعمة لا كفر ملّة ، أي لا يخرج بها من الملة الاسلامية ، ويقولون إن دار مخالفهم من أهل الاسلام دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فانه دار بغي[1] •

قال الشهرستاني : وقد قاتلهم علي رضي الله عنه بالنهروان مقاتلة شديدة ، فما انفلت منهم إلا أقل من عشرة ، فانهزم اثنان منهم الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى تل موروز باليمن ، وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع[2] •

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني : ١٨١/١ على هامش الملل لابن حزم •

(٢) المرجع المذكور •

ثانيـــاً

المذاهب الاعتقادية

مقدمـــة :

تنقسم المذاهب الاعتقادية التـــي انحرفت وتفرعت مـــن الخط العريض الذي التقت عليه الأمـــة الاسلامية في حياة رسول الله ﷺ ، وعهـــود الخلافة الراشدة من بعده ــ الى قسمين :

القسم الأول ــ مذاهب رئيسية نســبياً ، أي بالنســبة للفروع التـــي نشـــأت عليها •

القسم الثاني ــ مذاهب فرعيـــة صـــغيرة ، تفرعت عـــن تلك المذاهب الرئيسية، عندما اختلف أصحابها فيما بينهم على بعض من الفروع والجزئيات•

ونحن هنا لن نتحدث عن شيء من مذاهب القســـم الثاني ، فهي كثـــيرة متنوعة ، أطـــال عبد القاهر البغدادي في تفصيلها وبيان كيفيـــة تفرعها عـــن مذاهبها الرئيسية الأولى وأنها ما يقارب سبعين فرقة[1] •ب

وإنما نتناول أهم المذاهب الرئيسية التي كان لها شـــأن أو تركت أثـــراً في تاريخ المذاهب الاسلامية ، والحقيقة ان المذاهب التي تمتاز بهذه الصـــفة يمكن أن تنحصر في كل من مذهبي : الإعتزال ، والإرجاء •

أما الاشاعرة والماتريدية الذين ظهروا بعـــد ذلك، فالواقـــع أن تصنيفهما مع هذه المذاهب جارٍ على سبيل التجوز والمشاكلة ، إذ سنجد أن عمـــل كل

---

(١) ينظر الفرق بين الفرق ، للبغدادي .

من الإمام أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي كان بمثابة إزاحة الأنقاض أو الركام عن معالم الطريق العريضة الثابتة من قبل ، والتي التقى عليها جمهور العلماء وسواد الأمة الاسلامية، بدءاً من عصر النبوة فما بعد ، فما ابتدع أحد منهما في العقيدة الاسلامية رأياً ولا أضاف اليها من عنده جديداً ، بل عاد كل منهما بسواد الأمة (التي كادت تضيع بين صراعات أرباب السبل المتعرجة المتفرعة) ، الى الملاذ والمرجع الأول والأخير ، ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

أما خلافات كل من هذين الإمامين مع بعضهما فهي خلافات لفظية محصورة ليست داخلة في شيء من جوهر العقيدة وبنيانها .

تصور عام لكيفية نشأة المذاهب الاعتقادية وتوالدها :

على أننا وان كنا سنقصر حديثنا على المذهبين الرئيسيين : الاعتزال ، والإرجاء إلا أن من الضروري أن نتبصر جيداً ، من خلال عرض خارطة موجزة عامة ، كيفية توالد المذاهب الاعتقادية بعضها عن بعض ، والمسار الذي اتخذه كل منها لنفسه ، وكيف بدأت انحرافاتها عن الصراط العريض، ثم الى م انتهت أو تبدّدت .

وقد رأيت ، أن خير من تتبع ذلك وعرضه عرضاً جامعاً وجيزاً ، العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري ، في مقدمته العلمية الهامة على كتاب « تبيين كذب المفتري فيما نسب للامام الأشعري » للحافظ ابن عساكر ، وهو الذي أشرف على طباعته ، وتولى تحقيقه والتعليق عليه . ومن الخير أن أنقل النص الذي يتولى بيان صورة هذا التشابك أو التوالد لتلك المذاهب كما هو ، مع شيء من التلخيص .

فقد قال تحت عنوان لمعة في نشأة الفرق ما نصه :

« ... وبعد التحكيم في وقعة صفين انفضّ الخوارج من حول على

كرم الله وجهه ، وغلوا حتى أخذوا يكفّرون مرتكب الكبيرة[1] .

ولما توفي علي ، دام أناس على مشايعته ومشايعة آله ، فسمّوا الشيعة ، وكانت زنادقة الرافضة تجد بينهم مرتعاً خصباً لزرع بذورهم كلما تكرر اضطهاد آل البيت من بني أمية وغيرهم . وحين تخلى الحسن السبط عن الخلافة لمعاوية ، اعتزل الفريقين جماعة ، ولزموا مساجدهم يشتغلون بالعلم والعبادة ، وكانوا قبل ذلك مع علي رضي الله عنه ، حيثما كان ، وهم أصل المعتزلة[2] .

ويقال أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ، ابنا محمد ابن الحنفية ، ثم أخذ الثاني يردّ على الخوارج في مسألة الايمان ويقول : الايمان هو الكلمة والعقد دون الأعمال . **فسمي هو وجماعته** (مرجئة) لتأخيرهم العمل عن الايمان . وحدث منهم طائفة تقول : لا يضرّ مع الايمان معصية ، وهم مرجئة البدعة .

« وكان عدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس أظهروا الاسلام في عهد الراشدين ثم أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الأساطير بين من تروج عليهم ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم ، فتلقفوها منهم ، ورووها لآخرين بسلامة باطن ، معتقدين ما في أخبارهم من جانب الله من التجسيم والتشبيه ، ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم ، وقد يرفعونها (افتراء) الى الرسول ﷺ أو (خطأ)، **فأخذ التشبيه يتسرب الى معتقد الطوائف** ، ويشيع شيوع الفاحشة ... فأول من انخدع بهم الشيعة ، ولكن سرعان ما تراجعوا عن ذلك بمناظرة المعتزلة لهم . وقد سمع ــ معبد بن خالد الجهني ــ من يتعلل بالمعصية بالقدر ،

---

(١) سبق أن أوضحنا أن الذي يدل عليه صنيعهم ، وتكفير كثير مهم لعلي رضي الله عنه ، انهم يكفرون بمطلق ارتكاب الذنب ، حتى وان كان مبناه خطأ اجتهاديا .

(٢) اعتمد العلامة المحقق في هذا على ماذكره أبو الحسن الفرائقي الدمشقي (المتوفى سنة ٣٧٧) في كتابه : « رد أهل الاهواء والبدع » .

فقام بالردّ عليه ، ينفي كون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد ، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف ، فضاقت عبارته وقال (لا قدر — والأمر أُنُف)[1] ، ولما بلغ ذلك ابن عمر تبرأ منه ، **فسمي جماعة معبد قدرية** .

وكان غيلان بن أسلم الدمشقي ينشر بدمشق رأى معبد ، فطلبه عمر بن عبد العزيز ونهاه عن ذلك وكشف شبهته ، فانتهى وقال (يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالاً فهديتني وأعمى فبصّرتني وجاهلاً فعلمتني ، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً) .

ولما بدأ يذيع أمر (معبد) أخذ في الردّ عليه (جهم بن صفوان) بخراسان ، فوقع في الجبر ، ونشأ عنه (مذهب الجبرية) .

وكان — واصل بن عطاء — بعد أخذ الاختزال عن أبي هاشم يحضر في مجلس الحسن البصري ، وقد ذكرت في مسألة الايمان في المجلس ، فبادر واصل الى القول بأن الكافر المجاهر والمؤمن المطيع لا خلاف في تسميتهما

---

(١) أي أن الامر مستأنف ، من غير أن يكون سبق به سابق قضاء وتقدير ، وانما هو على اختيارك ودخولك فيه ، فكان معبد أول من أظهر القول بنفي القدر ، وأصبحت الفرقة التي تنتسب اليه تسمى « القدرية » .

وعند ظهور هذا الرجل وأخذه في نشر دعوته « شرع علماء المسلمين يحذرون الناس من الالتقاء به والاستماع اليه تطبيقا لقول القائل : « لاتمكن زائغ القلب من اذنيك » .

جاء في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال : « أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوافق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والاخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي يكل الكلام إلي فقلت : أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ، ويطلبون العلم ، وذكر من شأنهم ويزعمون أنه لاقدر ، وأن الامر أنف ، قال : فاذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وانهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لاحدهم ملء أحد ذهبا فأنفقه ، ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » ثم ساق حديث عمر بن الخطاب ، وفيه سؤال جبريل عن الاسلام ثم عن الايمان فقال رسول الله ﷺ : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » صحيح مسلم : ٣٦/١ — ٣٧ .

ولقد ورد عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ انه قال : « القدرية مجوس هذه الامة » اخرجه ابو داود والحاكم في مستدركه .

كافراً ومؤمناً ، ومرتكب الكبيرة حيث كان موضع اختلاف في إطلاق أحدهما عليــه تأبى إطلاق هذا وذاك عليــه ونقول فيه أنه فاســق ، أخذاً بما اتفقوا وهجراً لما اختلفوا .

فلم يرتض الحسن كلامه فانسحب واصل من المجلس وأخذ ينشر مذهب الاعتزال والأصول الخمسة (المميّزة لمذهب الاعتزال ــ والتي سنأتي عــلى شرحها) ، مع صاحبيه عمرو بن عبيد وبشر بن سعيد وعنهما أخــذ بشــر بن المعتمر وأبو الهذيل العلاف ، وبالتالي تخرج أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم وابراهيم النظام ... فهؤلاء هم قادة الاعتزال في بصرة وبغداد .

وأول من عرف بخلق القرآن الجعد بن درهم بدمشق ، وكان جهم أخذ ذلك القول من الجعد ، وضمّه الى بدعــه الذي قــام باذاعتها ، ومن جملتها نفي الخلود .

ولما قام الحارث بن سريج بخراسان ضــد الأموية داعيــاً الى الكتاب والسنة اعتضد بجهم وكان مقاتل بن سليمان ينشر هناك نحلة في (التجسيم) فأخذ جهم يردّ عليهم وينفي ما يثبته مقاتل ، فأفرط في النفي حتــى قال : ان الله لا يوصف بما يوصف به العباد ولم يفرق بين الاشتراك في الاسم والاشتراك في المعنى .

وبعد أن بدأ يطرأ بعض الفتور على الفتــوح ، ازداد الناس تفرغاً لتلك الآراء المبثوثة وتغلبت على عقولهم شــهوة التعمق فيها ... وبدأت تترجــم كتب الملاحدة والثنوية من الفرس ، حتى استفحل أمرهم . فأمر المهدي علماء الجدل من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين فأقامــوا البراهين وأزالوا الشبّه وأوضحوا الحق وخدموا الدين ... وكان القائمون بأعبــاء تلك المدافعات طائفــة من والمعتزلة . وقــد عــلق بنفوس هــؤلاء المدافعين ما لا يستهان به من أمراض نفسية عدت إليهم من مناظريهم، وكان غالب الفقهاء وحملة السنة طول هذه المكافحات يأبون الخوض في تلك المســائل . ويجرون على ما عليــه الصحابة وخيار التابعــين من الاقتصــار على ما ثبــت بالدين

بالضرورة ، مع أن حفظة الدين كان لهـم من الأسلحة ما لا يمكن مقابلته إلا بمثل أسنّتهم • ففي هذه الظروف تولى المأمون وأخذ يشايع المعتزلة ويقربهم حتى حمل الناس على القول بخلق القرآن والتنزيه حسبما يوحي إليـه عقـله وعقل خلطائه • وراج الأمر على ذلك مدة خلافة المعتصم والواثق، الى أن رفع المتوكل المحنـة ، وأظهـر الامام أحمـد فيها من الثبـات ما رفـع شأنه ، ولم يكـن للمتوكل ما يحمد عليه أكثر من أن رفع المحنة ومنع الناس عن المناظرات في الآراء والمذاهب •

ثم ابتدأ رد الفعـل يأخـذ سيره الطبيعي ، من انقماع أهـل النظـر والمعتزلة ، وأهل السنة من الفقهاء والمحدثين يواصلون العمـل في علومهم من غير جلبـة ولا ضوضاء ••• وكانت المعتزلة مع هـذا ، تتغلّب على عقـول المفكرين من العلماء ويسـعون في استعادة سلطانهم على الأمـة ، وأصـناف الملاحدة والقرامطة توغلوا في الفسـاد واحتلوا البـلاد ، حيث لم يبـق في ثغور الدفاع عن الدين من يرابط بحجج دامغـة تمحق مخرقتهم ، لانشغالهم بنفوسهم عما جد من الأحوال •

ففي مثل هـذه الظروف الحرجة ، غـار الامام أبـو الحسن الأشعري رضي الله عنه على ما حلّ بالمسلمين من ضروب النكال ، وقـام لنصرة السـنة وقمع البدعـة ، فسعى أولاً بالاصلاح بين الفريقين من الأمـة بارجاعهما عن تطرفهما الى الوسط العدل ، قائلاً للأولين : أنتم على حـق إن كنتم تريدون بخلق القـرآن اللفظ والتلاوة والرسـم ، وللآخرين أنتم مصيبون إذا كـان مقصودكم بالقديم الصفة القائمة بذات الباري غير البائنة منه ، يعني الكـلام النفسي ••• وهكذا حتى وفقه الله لجمـع كلمـة المسلمين وتوحيد صفوفهم وقمع المعاندين وكسر تطرفهم •

وتواردت عليـه المسائل من أقطـار العالم فأجاب عنها (بحكمة العالم المؤمن) بتوفيق الله ، فطبق ذكره الآفاق ، وملأ المكتبة الاسلامية بكتبه وكتب أصحابه في السنة والرد على أصناف المبتدعـة ، وفقهـاء المذاهب يتجاذبون الأشعري الى مذاهبهم ويترجمونه في طبقاتهم ••• فالمالكية كافة وثلاثة أرباع

الشافعية وثلث الحنفية تقريبا وقسم من الحنابلة على طريقة الأشعري في الكلام ، والثلثان من الحنفية على الطريقة الماتريدية •

ثم قال العلامة الكوثري : « ومن الجلي أنه لا دخل للعلم في نشأة الخوارج والشيعة بل ولدتهما العاطفة السياسية ، ثم اندس فيهما خصوم الدين الزنادقة ، فتطورتا أطواراً شائنة •

فهذا النص الذي نقلناه بطوله ، يكشف لنا المنظور العام للمناخ والأجواء التي نشأت وتوالدت فيها المذاهب الاسلامية المختلفة ، التي تفرعت منحرفة عن المنهج الاسلامي العام الذي التقى عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين •

أما الآن فعلينا أن ندرس أهم هذه المذاهب دراسة علمية ، تعني بما اختص به كل منها من الاتجاهات الاعتقادية ، مع شيء من النقاش العلمي الذي يكشف عن قيمتها ، وهذا يعني أنه لا يهمنا في المقام الأول أن ندرس نشأة هذه المذاهب وحياتها من الزاوية التاريخية •

المعتزلة

قد علمنا مما ذكره الشيخ زاهد الكوثري نقلاً عن أبي الحسين الطرائفي الدمشقي المتوفي سنة ٣٧٧ للهجرة ، أن أصل المعتزلة هم أولئك الذين كانوا من شيعة سيدنا علي رضي الله عنه، فلما تخلى الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية ، اعتزلوا الناس وانقطعوا لمساجدهم وعبادتهم • ولا نستبعد أن يكون اسم الاعتزال قد نشأ والتصق بهم بشكل ما منذ ذلك العهد •

على أنه لا يهمنا في هذا الصدد أن نحقق تاريخياً عن نشأة كلمة الاعتزال وكيفية ولادة أو ظهور أفكارهم ، كما اهتم بذلك طائفة من المستشرقين والمؤرخين العرب ، وإنما يهمنا أن نتبين البدع التي اختص بها أصحاب هذا

المذهب ، وأقدم القائلين منهم بها ، وأن نحاكمها الى شيء من البراهين المعتمدة في هذا الصدد[1] .

---

(1) للعقل مكان رفيع في الاسلام ، فالقرآن يخاطب العقل (بحثا عن الحقيقة) ، ويبني الايمان على نظر العقل وأدلته ، وقد دعا القرآن الى تقدير العقل ، والرجوع اليه فيما اختص به من تفكير . ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام ، وقد وردت مادة « عقل » بصيغة المضارع (يعقلون) ، تعقلون ، يعقل ، نعقل) في خمسين آية . والعقل في اللغة ضد الحمق ، ومسمي العقل لانه يعقل صاحبه عما لايحسن ، وهو القوة المهيئة لقبول العلم والمعرفة ، ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة مستخدما لذلك كل الالفاظ التي تدل عليه ، أو تشير اليه من قريب أو بعيد ، من التفكر والنظر ، والتدبر ، والحكمة ، والتذكر ، والعلم والفقه ، والرشد ، الى غير ذلك من الالفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية ، على اختلاف معانيها وخصائصها ، مما يعتبر ايحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان .

العقل فهم ، وفكر يتقلب في وجوه الاشياء وبواطن الامور ، ليدركها على حقيقتها ، ويعرفها بأسبابها ونتائجها ، العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وهو أيضا ميزان التعادل (التوازن) في الانسان ، وسر الله فيه ، به تعرفه ، أي تدرك حكمته ورحمته وعدالته ، وتعرف نفسك ، حيث خلقك فسواك فعدلك) ، وتعرف مبدأك ومنتهاك ، وتعرف مكانك في الوجود الذي أنه فيه .

وعقل الشيء معرفته بدليله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه ، العقل قبس من نور الله ، وميزان الله في أرضه مناط التكريم والتكليف (والمسؤولية) في الانسان ، أودع الله فيه خصائصه المميزة ، وقوانينه المنظمة (كمركز قيادة في الذات الانسانية) ، تمكن الانسان من التلاؤم مع واقعه ، وتنمية مواهبه ومكاسبه ، وتنسيق علاقاته بالآخرين ، تحقيقا لغاية وجوده ، وهو ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون .

والعقل الذي يخاطبه الاسلام ، هو العقل الذي يدرك الحقائق (كقوة مفكرة — متطورة) ، ويتجه نحو غايته بالوعي (العلمي — التربوي) الصحيح ، وقد اتخذ له الاسلام منهجا في تحريره والحفاظ على أصالته ليعمل نشيطا في ميادين الخير ، ومايفيد المجتمع الاسلامي والانساني علما وحضارة وتطورا وازدهارا وأول دعائم الاسلام في تحرير العقل والفكر ، تحرير الانسان من أصفاد الجهل وظلمته ، لان الجهل هو عامل التخلف الحضاري يطمس الحقائق ، ويضيع الاوقات ، ويحدث الأزمات (ومنها الفقر والمرض) ، ويجعل النفوس مستعدة لقبول البدع والاهواء والأوهام المضللة ، قال تعالى :

● « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » المائدة : /٥٠ .

والدعامة الثانية في الاسلام (التحرير العقل والفكر) تحرير الانسان من طاعة الاهواء ، والانقياد الاعمى لمغرياتها ، لان طاعة الاهواء من أقوى عوامل الانحراف للانسان في سلوكه ، قال تعالى :

● « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص / ٢٦ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

● « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

=

ومن المتفق عليه أن قادة الاعتزال (المتمثل في أصوله الخمسة التي سنذكرها) هم :

أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، ثم واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وبشر بن سعيد ، ثم يشمة بن المعتمر ، وأبو الهذيل العلاف ، ثم أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، وابراهيم النظام .

إلا أن لأصل الاعتزال نسباً الى (معبد الجهني) ، وهو أول من تكلم في القدر فنفاه وقال : الأمر أنف ، كما أسلفنا ، فعنه أخذ واصل بن عطاء

=

وهكذا بنى الاسلام الدعامة الثانية للعقل والفكر ، حين عمل على تطهير النفوس من رواسب الاهواء المضللة لان ذلك من أكبر العوامل في اعتدال النظر وصحة التفكير واستقامة السلوك .

ويحدثنا (حجة الاسلام) الإمام الغزالي عن العقل (ميزان الله في أرضه) فيقول :

« ان الوحي وان كان تعليما من الله فهو انما يأتي للبشر بلغاتهم ، وبحسب مفهومات عقولهم لما في عالمهم وما في أنفسهم ، غير أن حقائقه ومقاصده ، تحتاج في كثير من الاحيان وفي أمور معينة الى فهم يتجاوز ظواهر الالفاظ ، ويعلو على ظاهر الاشياء ، ويحتاج أيضا الى تأويل يرفع الفكر الى الحقائق التي يشتمل عليها التعليم الإلهي ، وهكذا تظهر مشكلة فهم الوحي ، ودراسة العلاقة بين ماجاء فيه ، وبين مايعرفه الانسان فيتصوره بما لديه من وسائل المعرفة .

والامام الغزالي يقف في تاريخ الفكر الاسلامي ، عالما بالدين ، وناقدا للفلسفة ، وصاحب رأي طريف وهام في العلاقة بين الوحي والعقل (بعد أن يشرح فاعلية العقل ، كأداة للمعرفة اليقينية والبرهان الصحيح) وعند أبي حامد أن العقل أداة المعرفة ، لكن الحواس تشوش عليه ، وهذا يوجب نقد المعرفة الحسية (مثلا — هل الشمس على حقيقتها كما يراها الحس ؟) ، والخيال أيضا ((أو الوهم كما يسميه أبو حامد) يشوش وظيفة العقل ، فعلى الانسان (الراشد) أن يحارب سلطان الوهم ، لكي يستطيع تصور الامور المجردة والحقائق غير المحسوسة .

لم يفرط الغزالي في تقديره للعقل كما أفرط الفلاسفة العقليون والمعتزلة من قبله . ولم يقدمه على الشرع فيما يجب أخذه عن طريق الشرع (من العقائد الدينية — والاحكام الشرعية) والمسائل الخليفة ، ولم يعول عليهولم يثق فيه عند التصديللمسائلالغيبية ، بل كان يؤكد دائما عدم قدرةالعقل على الاحاطة بهذه المسائل ، وان للعقل حدودا ينبغي عليه الوقوف عندها ، وأنه لا يمكن اقامة العقيدة والاحكام الشرعية والقواعد الخلقية على العقل وحده ، والذي يقتصر (في هذا المجال) على محض العقل ، ولا يستضيء بنور الشرع ، فلن يهتدي الى الصواب .

ينظر كتاب « عالمية الاسلام » ص ٢٣ ما بعدها للمؤلف .

بدعة إنكار القدر[1] . وعن معبد أخذ غيلان الدمشقي ، وقد أسلفنا أنه أعلن توبته (علي بن عمر بن عبد العزيز) وعاد عما كان يقول بـه : إن صحّ هـذا النقل وصدق غيلان في توبته .

---

(1) ينظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١١٤ ، بتحقيق محي الدين عبد الحميد .

ويضرب الغزالي أمثالا للعلاقة بين الوحي والعقل ، وهي أمثال تتكرر في كتبه ، ولنذكر منهـا ما نجده في كتابه : (معارج القدس في مدارج معرفة النفس) :

« العقل لن يهتدي لكماله الا بالشرع (الوحي) ، لان العقول متعددة بلا حدود ، والامزجـة مختلفة كذلك والعقل متدرج في مقاييس الذكاء ، فعلى أي عقل نعتمد ؟ ، وهل عصـم أي عقل مـن نوازع الاهواء ؟ ..

فالشرع رائد العقل (المتجرد عن الهوى) الى كماله المنشود ، والعقل ميزان الله في أرضـه كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغني أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .

وأيضا ـ فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خـارج ، ولن يغني شعاع ما لم يكن البصر ، وأيضا ـ فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده ، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت .

ويؤكد هذه المعاني (شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي ـ المتوفي عـام ٧٢٨ هـ) في كتابه : « بيـان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ص ١٣ وما بعدها ما يلي:

« ان العقل ليس أصلا لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطيـا له صفة لم تكن لـه ولا مفيـدا له صفة الكمال ، ان كل من أثبت ما أثبته الرسول ﷺ ونفى ما نفاه ، كان أولى بالمعقول الصريح، كما كان أولى بالمنقول الصحيح . وان من خالف صحيح المنقول (الوحي) فقد خالف أيضـا صريـح المعقـول .

ان ما جاءت به الرسل هو الحق ، وان الادلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل ، وان صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول ، وانمـا يدخل التناقض بيـن (ما يدخـل في السمع ـ الشرع ـ وليس منه) و (ما يدخل في العقل ـ وليس منه) . وقد ورد في نفس الكتاب المشار اليـه أعلاه (في مقدمته) ما يلي :

وذلك في وصف الامام ابن تيمية من قبل المحقق (علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطـار ـ في كتابه حياة ابن تيمية) حيث قال الاستاذ البيطار في مقدمة كتابه حرف (ب) ما يلي :

وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقل أن يتكلم في مسألة الا ويذكـر فيها أقوال المذاهب الاربعة ولما طلب منه (أي من الامـام ابن تيمية) أن يكتب عقيدته فقـال : اكتبوا ـ وهو ان اعتقاد أهل السنة والجماعة : الايمان بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفـه به ورسولـه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل .

ينظر كتـاب (حياة شيخ الاسـلام ابن تيمية) بقلـم علامة الشـام الشيخ محمد بهجـة البيطـار ـ الطبعة الثانية ـ المكتب الاسلامي .

ثم إن أفكار الاعتزال التي أخذت عن قادتهم الذين ذكرنا أسماءهم ، تشعبت واختلفت ، فافترق المعتزلة من جراء ذلك الى أكثر من عشرين فرقة قال عنها عبد القاهر البغدادي ، إن كل فرقة منها تكفّر سائرها[1] .

غير أن القاسم المشترك الذي لا بد منه ، فيمن يسمى معتزليا ، يمثل في الاصول الخمسة ، كما ذكر أبو الحسن الخياط في كتابه الانتصار ، وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] .

وهذه الألفاظ التي اتخذت شعاراً على أبرز آرائهم التي اختصوا بها ، لا تدل على أي شيء تميزوا به ، إذ التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مبادىء عامة ليست خاصة بفئة دون أخرى من المسلمين . ولكن فلننظر الى الآراء التي تكمن تحت كل منها ، فانا سنعلم عندئذ أن هذه الشعارات وضعت بمثابة جذب إليها ودفاع عنها وحماية لها .

إذن فلنبدأ بدراسة هذه الأصول كلاً على حدة ، مع القدر الذي لا بد منه من التفصيل .

الاصل الاول ــ (التوحيد) ــ :

وهو أهم الأصول التي ميزتهم وأبرزت خصائص مذهبهم .

وتوحيد الله دعامة الاسلام والايمان ، وهو القاسم المشترك بين المسلمين عموماً ، لا فرق في ذلك بين فريق وآخر . غير أن المعتزلة رتّبوا على هذه الدعامة العامة مفهوماً وأحكاماً انفردوا بها عن جمهور المسلمين،وهي:

أولا ــ نفي صفات المعاني عن الله تعالى :

وهي صفة السمع والبصر والعلم والقدرة والارادة والكلام والحياة .

---

(1) الفرق بين الفرق البغدادي ص ١١٤ بتحقيق محي الدين عبد الحميد .

(2) ينظر الملل والنحل للشهرستاني على هامش الملل والنحل لابن حزم : (١/٥٤) .

ولكنهم نسبوا الى الله تعالى آثار هذه الصفات من كونه سميعاً بصيراً عليما ... الخ . أي فهو جل جلاله يعلم دون أن تتحقق له صفة اسمها العلم ، ويقدر بدون إسناد صفة إليه اسمها القدرة . والذي حملهم على ذلك تصوّرهم بأن نسبة صفات المعاني ان الله ، تستلزم القول بوجود قدماء لا أول لهم غير الله عز وجل ، وهم هذه الصفات ، وذلك مما ينافي توحيد الله عز وجل ، واليقين بأنه لا يشبهه ولا يشترك معه غيره في شيء من صفات الوهية ومن أبرزها القدم أي عدم وجود بداءة لوجوده .

ولا يخفى على المتأمل ما في هذا الكلام من التمحّل الذي يرفضه العقل والعلم ، وحسبنا لبيان ذلك أن نقول :

١ ــ الصفة عرض لا تتقوّم بذاتها ، ولا وجود لها إلا بوجود من يتصف بها ، فاذا نسبنا الى الله صفة العلم مثلا ، فان هذه الصفة ليست شيئا قائما بذاته حتى يستلزم وصف الله به القول بقديم آخر غير الله عز وجل يقوم الى جانبه ، أو يتلبّس به كتلبس الرداء بمن يرتديه ، وإنما هي معنى من المعاني لا تتجلى إلا في عالميته تعالى وكونه عليما ، وكذلك القول بالنسبة للصفات الأخرى .

٢ ــ إن القرآن وهو كلام الله عز وجل ، نسب إليه سبحانه وتعالى صفة العلم بالاضافة الى وصفه بكونه عالما أو عليما . فقال جل جلاله (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) والعلم من صفات المعاني والسمع والبصر ... وهو نص قرآني جازم بعكس ما يتصوّره المعتزلة ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأن ذو القوة المتين ، ونسب الى ذاته صفة القوة فقال تعالى :

● « أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة » .

فاذا أثبت القرآن صفة العلم لله تعالى ، فقد انحلت المشكلة ، ولم يبق موجب لحجب بقية صفات المعاني عنه[1] .

---

(١) راجع مقالات الاسلاميين للاشعري : ٢٤٣/١ بتعليق محي الدين عبد الحميد .

ثانيا ـــ نفي امكان رؤية الله تعالى يوم القيامة :

قالوا لأنها تستلزم صفة الجسمية وكينونته في جهة ، ضرورة أن المرأي بالعين إنما يرى بعد انحصاره بين خطي زاوية النظر ، وهما ينافيان ـــ على حد فهمهم ـــ مقتضيات توحيد الله عز وجل . إذ من معاني توحيده نفي المماثل والمشابه له .

ولا يخفى أن هذا تنطّع ، يأباه قواعد النظر والبحوث ، كما يتعارض مع نصوص كتاب الله تعالى ، فهم يعتمدون في قولهم بأن رؤية الله يوم القيامة من المستحيلات ، على أن الناس لن تتجاوز طاقاتهم البصرية ، هذه الحدود التي يتمتعون بها اليوم ، وأنها إنما تعتمد آنذاك على هذه الأداة الباصرة ذاتها ، بما أودعه الله فيها من إمكانات ورتب لها من شروط .

فعلى أي دليل اعتمدوا في قرارهم هذا ؟ أي من أين لهم أن أصحاب الوجوه التي ستحشر ناضرة ، كما قال تعالى[1] ، لا يتمتعون من قوة الإبصار وكيفيته وأداته إلا بمثل أو بنفس ما كانوا يتمتعون به في دار الدنيا ؟... ومن أين جاءهم الدليل أن قدرة الله تعالى لا تطول أن تبدع لهم أعيناً جديدة أقوى نظراً ، ودون أن تكون قائمة على الشروط التي كانت مقيدة بها في الدنيا ؟.

من البداهة بمكان أن قوانين أخرى غير القوانين التي تحكم حياتنا وتقلباتنا اليوم ستتحكّم في سير الحياة الآخرة بكل ما فيها من تقلبات وأحوال . وإلا فما أكثر ما وصلنا من الأخبار عن طريق كتاب الله وصحاح السنّة ، وهي تنبىء عن أحداث ستجري يوم القيامة ، لا تخضع لشيء من مألوفات حياتنا الدنيوية هذه أفننكرها أو تتأولها ، اعتماداً على تقتضيه مقاييس حياتنا اليوم ؟.

ومع ذلك فان النصوص القرآنية أبرمت هذا الأمر ، ولم تدع مجالا لشك أو اختلاف فيه ، فقد قال تعالى :

---

(١) قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » القيامة / ٢٢ ـــ ٢٣ .

● « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربّها ناظرة . » القيامة / ٢٢ـ٢٣ .

ولا سبيل الى إقحام أي تأويل مقبول الى كلمة (ناظرة) ، لصرفها عن المعنى الذي هي نص في الدلالة عليه .

وقال جل جلاله ـ عن الكافرين وحالهم يوم القيامة :

● « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين / ١٤ .

وقد علمت أن محجوبيّتهم عن الله لا تصلح أن تكون بمعنى إنكار وجوده والعقبى ، وإنما هو احتجاب الذي يمنعهم عن التمتع ، برؤيته ، وهو يدلّ كما فهم الشافعي وغيره على أنه عز وجل لما حجب قوما عنه بالسّخط دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا[٢] .

ثالثاً ـ زعم ، أن كلام الله تعالى مخلوق ، وأنه ليس إلا هذا الذي يخلقه الله على الشفاه عند قراءة القرآن ، فليس له ما يسمّيه جماهير المسلمين الكلام النفسي ، الذي هو عز وجل به آمر وناه ومخبر ، والذي يدل عليه ألفاظ القرآن المتلّوة .

وإنما حملهم على ذلك ما توهموه من أن إثبات قديم لله تعالى خدش في عقيدة وحدانيته وانجراف الى نوع من الشرك ، فكلامه القديم يعني وجود قديم ثان معه (كما مرّ بيانه في نفيهم لصفات المعاني . قالوا فليس له إلا هذه الألفاظ المنطوقة من قبلنا وهي مخلوقة .

غير أن الخلاف ما بينهم وبين أهل السنة والجماعة يؤول أخيرا الى خلاف لفظي كما أوضح شارح المواقف ، إذ أنهم لا ينفون مدلول ما يسميه الجمهور بالكلام النفسي ، بل يثبتونه مثلهم ولكن لا يذهبون مذهبهم في تسميته بالكلام النفسي ، وانما هو راجع في الحقيقة الى صفة العلم إن كان

أمراً أو نهياً ، وهم يرون أن الارادة والأمر بمعنى واحد[1] .

إلا أن هذا التخريج منهم غير صحيح إذ ليس الإخبار داخلا في كل حال في صفة العلم ، فان الرجل قد يخبر عما لا يعلمه خلافه أو يشك منه ، كما قال صاحب المواقف ، وكذلك الأمر الذي هو الكلام النفسي ، قد يأمر المتكلم ولا يريده ، كما هو مشروح في أماكنه[2] .

الاصل الثاني ــ العدل ــ :

فقد استلزم أصلهم هذا القول بأشياء انفردوا بها ، على خلاف كبير فيما بينهم في تفصيلها . وأهم هذه الآراء : القول بأن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه ، والقول بأن الله حيثما أمر العبد بشيء فهو لما قد أمره به مريد ، فلا انفكاك بينهما ، وأنه لا يفعل أو يخلق أو يأمر إلا بما فيه الصلاح . وسنبين تخبطهم في هذه التصورات ، من خلال بيان وجيز لحقيقة كل منها.

وقد علمت أن نسبة العدل الى الله تعالى محل اتفاق من سائر المؤمنين فحاشا أن ينسب الى الله عكسه ولكن المعتزلة فهموا أن العدل بالنسبة الى الله يتوقف على أنه لا يحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، ولا يأمرهم بما لا يريد بل يفعلون ما يشاءون بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم ، وقالوا إنه وليّ كل حسنة أمر بها وبريء من كل سيئة نها عنها[3]. ثم ان الارادة الموجهة الى أفعال العباد هي بعينها الأمر الموجه اليهم[4] ، وأمره وارادته لا يتوجهان إلا الى خلق أو فعل ما فيه الصلاح والخير .

أولاً ــ القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، قول ألجؤوا أنفسهم اليه إلجاء فراراً أن ينسبوا الى الله خلاف العدل الذي هو متصف به . فقد خيّل

(١) شرح المواقف للعضد : ٢/٣٦١ .

(٢) ينظر شرح المواقف : ٢/٣٦١ وكبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

(٣) ينظر خلاصة مذهبهم في ذلك في مروج الذهب للمسعودي : ٣/٢٢١ ــ ٢٢٢ .

(٤) مقالات اسلامية للاشعري : ١/٢٣٣ .

اليهم أنهم اذا قالوا بأن الله هو الذي يخلق صلاة الانسان اذا صلى وشربه للخمر اذا شربها ، فقد أصبح تكليفهم بالأوامر ونهيهم عن النواهي عبثاً ، وعاد تحميلهم لما توعدهم به من العقاب شططا •

ولم يتنبهوا أن مناط التكليف هو الكسب الذي وهبه الله للانسان (والذي يعني حرية الارادة والاختيار) ، وهو الانبعاث الذاتي عن طريق الارادة الى الفعل الذي يشاءه ، فيه يستأهل الأجر أو العقاب • أما الفعل فيخلقه بقدرة تنفيذية تنبث في أعضائه وأعصابه وأوصاله ، تحقق ما اتجه اليه كسبه بمحض ارادته واختياره ، وليس في هذا شائبة ظلم ولا تعسف أو عبث •

ألا ترى أن الله تعالى أناط الجزاء الأخروي بالكسب أو الاكتساب أكثر من مرة • فقال سبحانه :

● «كل نفس بما كسبت رهينة» ● «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» •

ولو تأملوا لتنبهوا الى أن مقومات الفعل لا تعني وجوده ، إذ هو على الرغم من خلق الله لها جميعا ، لا تتحول الى واقع إلا بعد وجود الكسب الخفي الذي يتجه به العبد (عزماً ــ وارادة) • فعندئذ يطلق الله لأعضائه وأوصاله العنان ويخلق فيها القدرة على التحرك ، طبقا لأوامر القلب الذي هو مصدر الارادة والكسب (تأسيساً على أن الرغبة منطلق العمل الارادي) •

على أن المعتزلة لاحظوا ما في قولهم هذا من الانحراف الى طريق الكفر، إذ مؤدّاه أن الله يتصف بالعجز حيال ما يخلقه العبد لنفسه من فعل ، فتحفّظوا في القول ، وجاء قولهم بهذا الشكل : « بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم » فقد نزهوا الله بذلك عن العجز واعترفوا أن الله هو الذي خلق في العبد القدرة التي يخلق بها أفعال نفسه ، ونجوا بذلك من كفر كان لا بد لهم أن ينزلقوا فيه •

ومآل هذا التحفظ ، أو القيد ، لو تنبهوا ، الى أن الذي خلق الفعل

في العبـد ، انما هو ذاك أودع فيـه القدرة عليه ، والذي أودع فيه القـدرة عليه إنما هو ــ باعترافهم ــ الله عز وجل •

لقـد أرادوا بهـذا الذي قالـوه أن يفرّوا من الجبـر الذي قال بـه الجبرّية ، وأن يردّوا عـلى (جبرهم) ، ولكن الأمـر لا يحوجهم الـى أن يركبوا في الأمر شططاً ، وينسبوا خلق الفعـل دون برهان إلى إنسان •

ثانياً ــ قولهم بأنه لا يأمـر إلا بمـا أراد ، ولا ينهـي إلا عما كـره ، فبين أمـره وارادته تلازم لا يقبل انفكاكاً ، وبين نهيه وكراهيته تلازم مثله •

وإنما حملهم على ذلك تصور أنـه جل جلاله لو أمـر العبد بفعل وأراد منه نقيضه فقد أصبح أمره منه عبثا ، وتكليفـه بما لم يرده شططاً وظلماً ، ولما كان الظلم لا يجوز عليـه وكان العدل واجبا منه ، فقد اقتضى ذلك أن يكون أمـره تعبيراً عن ارادتـه ، وأن تكون ارادته سبباً لأمره •

غير أن المعتزلة وقعوا في شـر مما أرادوا الفرار منه ، فقـد التزموا أن الله تعالى قد يريـد شيئاً ثم لا يتحقق مراده ، ذلك لأن كثيراً ممن أمـرهم الله تعالى بأوامر ونهاهم عن نواهي لم يأتمروا بما أمرهم به ولا انتهوا عما نهاهم عنه ، فاذا كان أمـره عن ارادته ونهيـه تعبيراً عما لا يريـد ، فان كثيرا مما يريده لا يتحقق وكثيرا مما لا يريده هو الذي يتحقق وفي ذلك والعجز ما نجزم بأن الله تعالى منزّه عنه •

أما جمهـور أهل السنة والجماعـة فقد قرروا أن ما يأمـر به الله عـز وجل ليس دائما هو بعينه ما يريده الله عز وجل فقد ينفك أحدهما عن الآخر •

مثال ذلك ، الاستاذ الذي يريد أن يمتحن تلميذه ، فانـه ما أراد امتحانه إلا وأراد من خلال ذلك النتيجة التـي سينتهي التلميـذ اليها سـواء أكانت نجاحاً أو رسوباً ، غير أن هـذه الارادة من الاستاذ لا تجعـل الطالب ملجـأ (مكرهاً) ولا تجعـل الاستاذ (ظالماً) ، فمثل ذلك ارادة الله المتعلقة بكفـر الكافـر •

ثالثاً ــ قولهم إن الله حكيم لا يفعل إلا ما فيه صلاح وخير فذلك منه واجب ، أما الأصلح ففي وجوبه منه خلاف عندهم[1] .

ومحل الوهم والتخبّط في كلامهم هذا أنهم جعلوا ما سموه الصلاح أصلاً متبعاً في أفعال الله تعالى وأحكامه .

فكان ما اعتبروه حكمة وصالحاً هو الموجّه لأحكامه وأفعاله عز وجل. وفي هذا من المفاسد ما لا يخفى على ذي بصيرة . فقد استلزم ذلك أولاً أن يكون الصلاح والفساد حقيقتين قائمتين بذاتهما دون خلق الله عز وجل ، واستلزم ذلك ثانياً أن تكون ارادة الله تعالى مشوبة بالقسر ، وذلك نظراً الى أن إرادته لا بد أن تكون منضبطة بالصلاح أو الأصلح ، واستلزم ذلك أن لا تكون الحاكمية ، الحقيقية لله عز وجل وإنما لهذا الذي سمّوه الصلاح أو الأصلح .

وقال جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة ، إن الصلاح والحكمة لا ينفكان عن أحكامه وأفعاله سبحانه وتعالى ، غير أن كلاً من الصلاح والحكمة تابعان لقضاء الله وفعله ، وليس قضاء الله وفعله مسوقين وراء الصلاح .

ولو أن المعتزلة راجعوا أنفسهم في تفسير معنى العدل في حق الله عز وجل لرجعوا الى ما اتفق عليه جمهور المسلمين من القول بأن الصلاح هو ما حكم به الله عز وجل، وليس ما حكم الله به يجب أن يكون تابعاً للصلاح.

والخطأ الذي ارتكبوه في تفسير العدل في حق الله عز وجل أنهم فسّروا العدل من الله ومن عباده بمعنى واحد ، مع أن بينهما فرقاً كبيراً .

إن مبدأ العدل بين الناس بعضهم مع بعض ، انما ينبثق سلطانه من كون الناس أحراراً ، بعضهم تجاه بعض ليس لأحد منهم سلطان على آخر ، أما الله عز وجل فلا يتصوّر منه أن يرتكب ظلما في حق عباده قط حتى يكون

(١) الملل والنحل للشهرستاني : ٥٦/١ على هامش الملل والنحل لابن حزم .

لعدله ضوابط معينــة يجب أن يلتزم بها ، إذ هو المالك لرقابهم والحق المطلق في أن يفعــل بهم ما يشــاء ، فكيف يتصوّر منــه الظلم الذي هــو تصرّف الرجل بحق غيره دون رضاه ، حتى يتصوّر أنه ملزم باتباع نهج العدل معهم.

ولقد أوقعتهم الغفلة عن هذه الحقيقة في شــطط القــول وأقحمتهم في مكابرات وتناقضات مع الواقع المشاهد،وكم نوظروا في هذه المسألة فسكتوا، ولكن العناد صدهم عن الإذعان بالحق والرجوع اليه .

وقد تفرع عن هذا الرأي الذي نادى به المعتزلة ، وهو وجوب اتبــاع حكم الله عز وجل للمصلحة أو الأصلح طرح لمســألة فلسفية طال النقاش فيها وهي حقيقــة الحســن والقبح الكائنين في الأشياء أو الأفعــال ، أيمكن أن يكون لكل منهما معنى جوهري ذاتــي ثابت بحدّ ذاتــه ، أم هو لا يعدو أن يكون معنى اعتبارياً من الإلف أو الحسّ أو الشعور أو ترتيب الله الثواب أو العقاب عليه ؟ فتشبّثت المعتزلة بالرأي الأول ليبنوا عليــه القول بأن الحسن هو محور أحكام الله عز وجل ؛ والمحور لا بد أن يكون له وجــود ثابت بحدّ ذاتــه ، وذهب بقيــة المسلمين الــى الرأي الثاني ، ولذا فــان مصدر القبح والحسن في الأشياء ــ في مقياس الدين ــ إنما هو حكم الله عز وجل، فبــدون أن يتنزل حكمه عز وجل لا يمكن أن يتبين لنا الصلاح والفساد أو الحســن والقبيح، اللهم إلا فيما يتآلف الناس عليه أو بالنظر لما جبلت إحساساتهم عليه. وهذا شيء متطور متبدل[1] ، غــير أن خلافا جزئيا قــام هنا بــين الماتريدية والأشاعرة ، سنتحدث عنه عندما نتكلم عن هاتين المدرستين .

الاصل الثالث : الوعد والوعيــد :

وخلاصة ما يقولونه في أصلهم هذا أن كلاً من وعــد الله ووعيده نازل لا محالة فوعده بالثواب واقــع ، ووعيده بالعقاب واقع أيضا ، ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضا ويترتب على قولهم هــذا أن الله لا يغفــر لمرتكب

---

(١) ينظر تفصيل النقاش في هذه المسألة كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٢٢ ــ ١٢٥ .

الكبائر إلا بالتوبة إذ أنه صادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته[٢] غير أن جمهور المسلمين وقفوا في هذه المسألة عند قوله عز وجل :

- « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ... »

- « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

فاذا كانت حجة المعتزلة في تمسكهم بأصلهم الثالث هذا،أن إخباره صدق ولا مبدل لكلماته ، فان مضمون هاتين الآيتين من جملة إخباره وصادق كلماته، فهي أيضاً لا يلحقها خلف ولا تبديل ، وهكذا فانهم ملزمون بالرجوع الى مذهب جمهور المسلمين ، بموجب حجتهم ذاتها .

ومذهب جمهور المسلمين يستند الى مقتضى جميع ما أخبر به الله عز وجل وعدا ووعيدا وإخبارا بأنه سبحانه وتعالى اذا شاء تجاوز عن كل الذنوب والمعاصي أيّاً كان نوعها إلا الشرك بالله عز وجل .
وواضح أن مجموع ما تتضمنه هذه الاخبارات كلها أن وعد الله باثابة لا يلحقه خلف ، أما وعيده بمعاقبة العصاة فعائد الى مشيئته ، وعفو الله عن مرتكبيها مأمول وغير بعيد[٣] .

ويبدو أن المعتزلة أرادوا أن يردّوا من خلال أصلهم هذا على المرجئة الذين تطرفوا الى نقيض هذا الرأي ، إذ قالوا لا يضر مع الايمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فلم يجدوا سبيلاً للرد عليهم سوى أن يتطرفوا الى نقيض قولهم ، وقد علمت أن كلا طرفي (قصد) الامور ذميم ، ولا موجب لهذا التطرف أو ذاك بعد وجود الآيات القرآنية الصريحة التي تضع المسلم على صراط الاعتدال ، وهو ما التقى عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة وخلاصته أن :

---

(٢) مروج الذهب للمسعودي : ٢٢٢/٣ .

(٣) ينظر شرح جلال الدين الدواني على العقائد العضدية : ١٦٤/٢ .

١ ــ وعد الله بالمثوبة لا خلف فيه لأن سائر الآيات التي أخبرت به أطلقت دون استثناء •

٢ ــ وعيد الله بالعقاب ثابت في كتابه ، وتنفيذه يوم القيامة عائد الــى مشيئته ، وعفو الله عن مستحقيه مأمول وغير بعيــد ، إلا أن يكونوا مشركين أو في حكمهم كالملحدين • وذلك لأن الآيات التي أخبــرت بالوعيــد عادت ففتحت باب الأمل بالعفو وأخبرت بأن الله إن شاء عفى عن كل ما دون الإشراك والجحــود به •

الأصل الرابع المنزلة بين المنزلتين :

قال البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ، وهو سبب نــداء المعتزلة بهذا الذي هو في الحقيقة أصلهم الاول الذي انطلقوا منه :

كان واصل بن عطــاء من منتابي مجلس الحسن البصري في زمان فتنــة الأزارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمــة الاســلام على فرق :

فرقة تزعــم أن كل مرتكب للذنب صغير أو كبــير مشرك بالله • وكان وكانت الصفرية (من الخوارج) يقولون في مرتكبي الذنوب بأنهــم كفــرة هذا قول الأزارقة (من الخوارج) وزعم هؤلاء أن أطفال المشركين مشركون ، كما قالته الأزارقة ، غير أنهم خالفوا الأزارقة في الأطفال •

الى أن قال البغدادي : «•••وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأمــة يقولون : ان صاحب الكبيرة من أمــة الاســلام مؤمن ، لما فيــه من معرفة بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى ، ولمعرفته بأن كل هذا القول مضى سلف الأمة وأعلام التابعين » •

فلما ظهرت فتنــة الأزارقة بالبصرة والأهــواز ، واختلف الناس عنــد ذلك في أصحاب الذنوب على الوجوه الخمسة التي ذكرناها ، خرج واصل بن عطــاء عن قول جميــع الفرق المتقدمــة ، وزعم أن الفاســق في هذه الأمــة

لا مؤمن ولا كافر وجعل الفسق فنزله بين منزلتي الكفر والايمان ، فلما سمع الحسن البصري ببدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده من مجلسه ، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة ، وانضم اليه في الضلالة عمرو بن عبيد[1] •

وذكر الشهرستاني تفصيل هذا الموقف الذي وقفه واصل بن عطاء فشذبه عن جمهور المسلمين وبقية الفرق الأخرى ، وكيفية اعتزاله حلقة الحسن البصري فقال :

« ••• والسبب أنه دخل واحد على الحسن البصري ، فقال يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل (العمل) على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟ » •

فتفكّر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب ، قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزل بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن • فقال الحسن : اعتزلنا واصل ، فسمّي وأصحابه معتزلة •

ثم قال الشهرستاني « ووجه تقريره أنه قال : ان الايمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا وهو ليس بكافر مطلق أيضا ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة منه لا وجه لإنكارها ، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان ، فريق في الجنة وفريق في السّعير ، لكنه

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي : ص : ١١٧ ، ١١٨ •

يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار ، وتابعه في ذلك عمرو بن عبيد ، بعد أن كان موافقاً له في القدر وإنكار الصفات[1] .

فما الفرق بين ما ذهب اليه غلاة الخوارج ، وهذا الذي قاله واصل بن عطاء ، ثم تابعه عليه جمهور المعتزلة ؟ . لا فرق بين مضمون القولين ، إذ القاسم المشترك بينهما هو القول بخلود صاحب الكبيرة في النار ، وقد علمنا من بدهيات هذا الدين أنه لا يخلد في النار إلا الكافر ، إذ قد ورد في الصحيح أنه لا يبقى في النار من يكون في قلبه مثقال ذرة من الايمان .

أما ابتداع المعتزلة لعبارة خاصة بهم يعبّرون بها ، وهي قولهم هو في منزلة بين المنزلتين فليس وراءها من طائل ، ما داموا يقولون بخلوده في النار .

فان قلت : لعل الفرق بين القولين يظهر في معاملة المسلمين لصاحب الكبيرة في دار الدنيا ، قلنا ما هو هذا الفرق ؟ وما علمنا مما وقفنا عليه في كتاب الله وسنة رسوله إلا أن المسلم يعامل صاحبه في الدنيا على أنه أحد رجلين : مسلم أو كافر ، وما أنبأنا أحد هذين المصدرين عن حالة ثالثة إذا رؤي الانسان عليها كان واقفاً بذلك في منزلة بين منزلتي الاسلام والكفر ، وما أنبأنا عن المعاملة الخاصة التي يجب أن نعامله بها على أساس منزلته تلك .

وان قلت : ولكنهم يقررون أن خلود صاحب الكبيرة في النار يكون مقروناً بنوع من التخفيف من عذابه فهو كما قالوا يقيم في دركة فوق دركة الكافرين قلنا : فمن أين وقفوا على خبر تلك الدركة التي هي خاصة بذوي الكبائر من المؤمنين الذين لم يتوبوا ، ومن أنبأهم بهذا ؟... أما نحن الذين علمنا أن هذه الغيوب لا سبيل لنا الى وجه اليقين بها إلا عن طريق الخبر الصادق عن طريق قرآنه أو سنته فما وصلنا مما يتعلق بهذا إلا قول الله عز وجل :

إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء « وهو يقرر نقيض ما تنبّأ به المعتزلة تماما .

---

(1) الملل والنحل للشهرستاني : ١/٦٠ و ٦١ على هامش الملل والنحل لابن حزم .

الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وانما اختلفوا في هذا الأصل عن بقية المسلمين ، بقولهم ان النهوض بهذا الأصل واجب على جميع المؤمنين وليس خاصاً بفئة منهم دون أخرى •

ولعلهم إنما ذهبوا الى هذا المذهب لما رأوا في عصرهم من مظاهر الزندقة والدسّ في دين الله عز وجل ، ولذا نجدهم يتصدون للذود عن الحق أمام الزنادقة الذين انتشروا انتشاراً مريعاً في أوائل العصر العباسي •

والحقيقة أن هذا الأصل الخامس ، سلوكي أكثر من أن يكون اعتقادي ، ولا ينطوي على خلاف ذي أهمية عن جمهور المسلمين • بل بوسعنا أن نقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي يلزم به جميع المسلمين على نحو وعن طريق عدد يقع موقعاً من الكفاية وإبلاغ كلمة الحق لجميع المسلمين ، فان لم يسدّ القائمون بهذا الأمر مسدّاً كافيا وجب أن يشترك معهم غيرهم ، فان كان المنكر لا يقضى عليه والمعروف لا يحل محله إلا بنهوض جميع المسلمين ، فان القيام بهذا الأصل يصبح واجبا عينيّا على جميع المسلمين الذين يتمكنون من القيام به بوجه ما وعلى وجه سليم ، وذلك في حدود علمهم واستطاعتهم •

ويكفي في الأدلة على هذا قوله عليه الصلاة والسلام :

● « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » •

قال القرطبي في تفسيره : « أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغيير على كل من قدر عليه ، وأنه اذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدّى الى الأذى،فان ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره••»[1]

وأنت تعلم أن النهي عن المنكر هو الوجه الثاني للأمر بالمعروف وبينهما تلازم في الوجوه والنتائج ، إذن فما هو مظهر الشذوذ أو اختلاف المعتزلة عن جمهور المسلمين بالنسبة لهذا الأصل الأخير ؟•

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبي : ٤٨/٤ — وينظر الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٤٧

الحقيقة أن الشذوذ محصور في أن المعتزلة جعلوا من أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أداة لترويج أصولهم الأربعة الأخرى • فقد نشطوا في الدفاع عن الاسلام وفي مقاومة الزندقة وأهلها ولكنهم كانوا يقيمون دفاعهم عنه على أساس من تلك القواعد والأصول التي انحازوا بها عن جمهور الأمة وعامة الأئمة •

منهج المعتزلة في البحث والاستدلال

تغلبت على المعتزلة النزعة العقلية ، فكان من نصيب اعتمادهم على صحيح المنقول من جراء ذلك ضئيلاً جداً ، بل كانوا يرون أن مقياس الحق قبول العقول ، فكل ما قبله العقل فهو الحق الذي يجب المصير اليه والتمسك به • وكل ما لم يقبله العقل فهو الباطل الذي يتحتم رفضه •

وقبل أن نوضح سبب ظهور هذه النزعة لديهم يجب أن نجلي حقيقة قد تلتبس على كثير من الباحثين وهي أن مدار النصوص والنقول التي يهتدى بها ، على ما يجزم به العقل ويقضي به[2] • فقيمة النصوص الصحيحة الثابتة أنها تهدي الى حكم العقل الصحيح ، وليس العكس •

وظاهر هذا الكلام يقتضي تصويب المعتزلة في منهجهم الذي سلكوه ألا وهو تغليب المحاكمة العقلية في أمور العقيدة ، والتهوين من أمر النصوص في جنبها إذ كأنهم بذلك يتمسكون بما جاءت به النصوص تبياناً له ألا وهو الحق الذي لاميزان له إلا العقل •

وهذه النظرة تكاد تكون صحيحة من حيث المبدأ ، ولكن الزيغ يتسرب اليها في مرحلة التطبيق ، فان الحق انما يدل عليه العقل الكامل الصافي من شوائب الأهواء ورغائب النفس ، وعقول أفراد الناس كانت ولا تزال مشوبة

---

(٢) قد أشرنا آنفا الى راي شيخ الاسلام أحمد بن تيمية بأن صريح المعقول لايناقض صحيح المنقول كما ان حجة الاسلام (الامام الغزالي) وضع النقاط على الحروف في هذا الموضوع ، كما اشرنا .

بعكر تلك الأهواء والرغائب ، وقلما استطاع أن يتحرر من الوقوع تحت تأثيراتهما . على أن من الحقائق الثابتة ما لا سبيل للعقل وحده (حتى وان صفا من الشوائب) الى دركها والوصول الى واقعها[1] :

فمن أجل ذلك كان لابد للوصول الى ما يقضي به المعقول من الاعتماد على صحيح المنقول ، والا تخالفت العقول فيما تزعم أنها سائرة للوصول اليه من الحق الذي لاينبغي الاختلاف فيه ، وتجاوزت حدود طاقتها وادراكها ، فانحطت في عماية من الاوهام التي لاتنتهي عند شاطىء ولا تقف عند قعر .

ولو أن (المعتزلة) حكّموا نصوص الكتاب والسنة أولا ، لا سيما في الأمور الغيبيّة التي لا سلطان للأدلة العقلية عليها ، ثم تأملوا في تلك الأوهام الفلسفية تأمل المتبصّر الناقد ، مدركين بأن العقل الانساني حدّاً لا يستطيع تجاوزه ، فان هو أكره على تجاوز ذلك الحدّ ، خاض على غير بيّنة واضطرب في مجهلة ـــ أقول ـــ لو أنهم فعلوا ذلك أولا لما جرفهم تيار ذلك الضياع ولما تمزقوا ، وآلوا الى ما يزيد عن عشرين فرقة كل منها يكفّر الاخرى ، وذلك أثناء سعيهم الى هداية الآخرين ومقارعتهم بالحجة العقلية فيما زعموا .

فهذا القدر كاف ، في التعريف بالمعتزلة وأصولهم الفكرية الكبرى التي اختصوا بها ، وقيمة هذه الاصول في ميزان الكتاب والسنة ، وما التقى عليه سواد هذه الأمة .

---

(١) والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول الى عقيدة سليمة راسخة وفكرة كلية واضحة تفسر هذا الوجود وتحل ألغازه ، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه ، وأهملوا جانبا هاما من الفطرة الانسانية وهو الشعور والوجدان ، جانب القلب والروح ، كما أغلقوا على أنفسهم بابا ما كان أحوجهم اليه ، وما أصل سعيهم بغيره ، هو باب الوحي . ان العقل مهما أوتي من الذكاء والقدرة على التجربة والاستنتاج محدود بحدود الطاقة البشرية ، مقيد بقيود الزمان والمكان ، والوراثة والبيئة ، فلا غنى له أبدا عن سند ومعين يسدده اذا أخطأ ، ويهديه اذا ضل ويرده الى الصواب اذا شرد ، وهذا السند هو الوحي الذي يقود العقل الى كماله المنشود ، (ويضمن وحدة الراي والهدف) .

ينظر كتاب الايمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠٦ .

المرجئــة

لما ظهرت بدعــة الخوارج ـ وهي قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة ، بـل بتكفير مرتكب أي ذنب كما سبق بيانه وانتشرت مقالتهم هـذه بين النـاس ، وابتدعت المعتزلة في ذلك قولا ثانيا ، وهو الحكم على مرتكب الكبيرة بأنـه قائم في منزلـة بين منزلتي الايمان والكفر مع خلوده في النار يـوم القيامة ، وتلاغط الناس حول هذا الأمر وجرى الجدل والنقاش فيـه ، قـام من ينادي برأي ثالث في مسألة ارتكاب الكبيرة خصوصا ، والمعاصي كلها عموما ، وهم الذين سمّوا بالمرجئة .

فما هو الإرجاء ؟ وما هو الرأي الثالث الذي نادوا به ؟ وما هي فرقهم ؟

يقول الشهرستاني (في كتابه الملل والنحل) : « الإرجـاء على معنيـين أحدهما التأخير ، قالوا : (أرجه وأخـاه) ، أي أمهـله وأخّره ، والثانـي إعطاء الرجاء . أما إطـلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمـل عن النيـة والقصد ، وأما بالمعنى الثاني فظاهر ، إنهم كانوا يقولون : لا تضـر مع الايمان معصية ، كما لا تنفـع مع الكفـر طاعة ... »[1] .

إذن فكلمة (الإرجـاء) بالمعنى الاصطلاحي الذي يطـلق على هـذه الفرقة مشتقة بآن واحـد من كلا معنييها : (التأخير ـ وإعطـاء الأمـل) ، إذ أن رأيها في المعصية التي يرتكبها المؤمن قائم على اعتبار كلا هذين المعنيين.

ثم إن اسم المرجئة يطـلق فـيراد به (مرجئـة الخوارج) و (مرجئـة

---

(١) الملل والنحل الشهرستاني : ١٨٦/١ على هامش كتاب الفصل في الملل والنحل والاهواء.

القدرية) ، كما يطلق ويراد به (المرجئة الخالصة) ، ولا شأن لنا في هذا المقام إلا بالحديث عن المرجئة الخالصة ، فهؤلاء فريقان :

فريق يرى أنه لا يضر مع الايمان ذنب ، ولا تنفع مع الكفر طاعة ، والايمان عند هذا الفريق هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة له بالقلب . فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ، وما سوى من المعرفة من الطاعات فليس من الايمان ، ولا يضر تركها حقيقة الايمان ، ولا يعذب على ذلك اذا كان الايمان خالصا واليقين صادقا[٢] وربما اختلفوا فيما بينهم في دقائق تتعلق بتعريف الايمان ، ولكن القاسم المشترك بينهم هو القول بأن المعاصي لا تستوجب العذاب يوم القيامة اذا كان مقترفها مؤمنا بالله عز وجل[٣] .

وفريق يرى أن مرتكب الكبيرة مرجأ الى الله عز وجل ، فقد يغفر له وقد يأخذه بجريرة ذنبه ، ولا يشكل رأي هذا الفريق مذهبا مختلفا عما عليه سواد الأمة وجمهور المسلمين ، من أن العاصي أمره مفوّض الى الله عز وجل ، قد يتوب عليه وقد يعفو عنه ، ومن ثم أطلق على هذا الفريق الثاني (مرجئة السنة)[٤] .

إذا تبين هذا ، فالمرجئة الخالصة ، أي الذين لا علاقة لهم بالجبر ولا بنفي القدر[١] ، ولا بالخروج على عليّ رضي الله عنه ، اختلفوا عن كل من المعتزلة

---

(٢) المرجع السابق : ١٨٧/١ ومقالات الاسلاميين : ١٩٧/١ .

(٣) ينظر المرجئة وما بينهم من خلاف وراء هذا القاسم المشترك في الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ — ٢٠٧ ومقالات الأسلاميين للاشعري : ١٩٧/١ — ٢١٥ .

(٤) الملل والنحل : ١٩٧/١ .

(١) ورد في كتاب (مفتاح السعادة — الحسن البصري) حين سئل عن القدر : أأجبر الله عباده ؟ فقال : هو أعدل من ذلك . فقيل أفوّض اليهم ؟ (ويقصد بالتفويض هنا — بالمعنى العلمي — تركهم غير خاضعين لنظام عام في الخلق والتدبير ، وكأنهم — غير مكلفين ولا مسؤولين)، فقال (أي الحسن البصري) هو أعز من ذلك .. عملا بقوله تعالى : أيحسب الانسان أن يترك سدى .

فلو اجبرهم لما عذبهم ... ولو فوض اليهم لما كان للامر والنهي معنى . انتهى كلام
=

والخوارج وجمهور المسلمين ، بما ذهبوا اليه من أن المعصية لا تضـر صاحبها إذا مات مؤمناً صادقاً في ايمانه ـ على اختلاف في تحديد معنى الايمان ـ وأن الطاعة لا تنفع صاحبها اذا مات كافراً .

يضاف اليهم أصحاب غيلان الدمشقي الذي كان يصنف الـى عقيـدة الإرجاء هذه (نفي القدر) ويسمون (مرجئـة القدريـة) ، كما يضاف اليهم أصحاب جهم بن صفوان الذي كان يجمع الى الإرجاء القول بالجبر ويسمون (مرجئة الجبرية) ، وهكذا فقد اصطبغ بعقيـدة الإرجاء كثـير من القدريـة والجبرية والخوارج ، كما تمسك بها وحدها آخرون ، وهم الذين يسـمون « المرجئة الخالصة » .

نقد عقيدة الارجـــاء :

يلاحظ أن القول بالإرجاء إنما ظهـر بدافع ردّ الفعل تجـاه ما ذهـب إليه الخوارج من ناحيـة ، وما قال به المعتزلة من ناحيـة أخـرى ، دون أن يعتمـد على أي دليـل من كتاب أو سـنّة ، فما رأينا واحـداً من أصحاب الإرجاء ورؤساء فرقة دافع عن هذا الرأي بآيـة من القـرآن أو حديث وارد عن رسول الله ﷺ .

بل إن نصوص القرآن الجّليـة ، والأحاديث الكثـيرة الثابتـة تنقض أقوالهم ، وتثبت نقيض ما يزعمون . من ذلك قول الله عز وجل :

● « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم أو يتـوب عليهم والله عليـم حكيم » التوبة / ١٠٦ .

=

الحسن البصري .

أجل ـ هذا طرف من حكمة الحكماء ، العلماء الامناء ورثة الانبياء (يحمل هذا العلم من كـل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهليـن) . فما أشد حاجتنـا الـى أمثالهم .

وقوله سبحانه :

● « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نـاراً وسيصلون سعيراً » النساء / ١٠

وقوله جل جلاله على لسان المؤمنين إذ يخاطبون أناساً يساقون يـوم القيامة الى العذاب :

● « ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين • فمـا تنفعهم شفاعة الشافعين » المدثر / ٤٢ ــ ٤٧ •

وقوله سبحانه : قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشـعون • والذين هم عن اللغو معرضون • والذين هم للزكاة فاعلون ، الى قوله تعالى : أولئك هم الوارثون » • المؤمنون / ١ــ١٠ •

فأنت ترى أن الله عز وجل فتح احتمال كل من المغفرة والعقاب للعصاة ، وهو يتنافى مع الجزم بأن المعصية مع الايمان لا تضر • كما ترى أن الله عـز وجل توعد الذين يأكلون أموال اليتامى بدون حـق ــ وهو من المعاصي كما تعلم ــ بأن يصلهم سعيراً ، وان كان الإكرام بإخلاف الوعيـد محتملا ، فهـو غير مقطوع به ، ولو كان إخلاف الوعيـد مقطوعاً به ، لما كان لهذا الوعيد أي معنى ، ولعاد عبثاً من القول ، والله منزه عن ذلك •

ثم أنت ترى أن الله يحكي في حوار المؤمنين مع الكافرين العصاة اعتراف الكافرين بأن سبب العذاب الذي استحقوه تركهم الطاعات الذين كلّفوا بها ، من صلاة وصدقة ونحوهما ، الى جانب كفرهم بالله عز وجل • فاذا اسـتحق تارك الطاعات العقاب عليها مع عقاب كفره ، أفلا يستحق بعض هـذا العقاب من سـاواه في ترك الطاعات وان خالفه في الجنوح الى الكفر ؟••• أما الآيـة الأخيرة ، فهي نص قاطع ، وكأنما أنزل للردّ على أوهام المرجئة • فأنت تـرى أن الله قيّد فلاح المؤمنين يـوم القيامة بشـرط لا بـد منـه وهو أداؤهـم

الطاعات التي أمروا بها وانتهاؤهم عن المعاصي التي نهوا عنها ، ومعنى ذلك أنه اذا فقد شرط انضباطهم بتلك الأوامر والنواهي فلا فلاح لهم يوم القيامة ، بل يتناقص فلاحهم بنسبة المعاصي التي ارتكبوها والطاعات التي أعرضوا عنها .

والدليل النقلي الوحيد الذي يتمسك به المرجئة لترويج شبهتهم هو ما يفهمونه من قوله سبحانه وتعالى :

● « فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى » والليل : ١٤ ـ ١٦ .

فقد فهموا من الآية ما يدل عليه ظاهرها ، من أن الاصطلاء بالنار يوم القيامة خاص بالكافرين الذين كذبوا بما جاء به الرسل وأعرضوا عنه ، وعلى هذا فان لم يكذّب به لا يمسه الاصطلاء وان ارتكب ما ارتكبه من الأوزار .

غير أن هذه الآية ـ كأي آية أخرى من القرآن ـ لا يجوز أن تفهم وتفسر بمعزل عن الآيات الأخرى التي تتولى بيان المراد منها . وحسبك من الآيات الأخرى التي تنفي هذا الوهم ، الآية التي تلي هذه مباشرة ، وهي قوله تعالى :

● « وسيجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى » .

فان الله عز وجل لم يفسّر الأتقى (الذي وعد بتجنيبه عذاب تلك النار)، بمن آمن باللهورسوله ثم وقف عند حدود ذلك الايمان ، بل فسّره بمن أضاف اليه العمل الصالح، فآتى زكاة ماله ، وقام بالطاعات المنوطة به ، والآية صريحة في بيان ذلك .

بقي أن نتساءل : فلماذا حصر الله تعالى وعيد الاصطلاء في الأشقى الذي فسّره بمن كذّب وتولّى ، وأين هو مكان ذلك الذي يتبوّأ درجة « الأتقى » ولكنه لم ينحط الى الكفر الذي ينزل به الى درجة الأشقى ؟ وخير الأجوبة على هذا ما ذكره الفخر الرازي قائلا :

(الجواب على ذلك من وجهين ، الأول ما ذكره الواحدي ، وهو أن معنى لا يصلاها لا يلزمها في حقيقة اللغة ، يقال : صلى الكافر النار اذا لزمها مقاسياً شدتها وحرّها ، وعندنا أن هذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر ، أما الفاسق فاما أن لا يدخلها (اذا تاب صادقاً)، أو إن دخلها تخلّص منها . الثاني أن يخصّ عموم هذا الظاهر الآيات الدّالة على وعيد الفسّاق والله أعلم[1] .

أقول : والآيات الكثيرة الدّالة على وعيد الفسّاق ، تستوجب تفسير يصلاها بـ « يلازمها » . كما قال الرازي ، وبذلك يتحد الوجهان في الجواب على هذا الاستشكال .

وبذلك نكون قد أتينا على نقد عقيدة الارجاء ، بعرض وصفيّ موجز .

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي : ٥٩٢/٨ .

الأشـــاعرة

الأشاعرة والأشعرية نسبة الى الإمام أبي الحسن بن اسماعيل الأشعري، ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ وتوفي عام ٣٣٠ هـ وقيل كانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ .

ظهر هذا الإمام في وقـت كثرت فيه الفـرق الصغيرة المتناثـرة ، التي اشتغلت بتكفيرها بعض لبعض ، واشتد فيه أمـر المعتزلة ، فأصبحت أقـوى تلك الفرق وأشدها دعـوة لمذهبها وجدالاً .

يقول الشيخ محمد أبو زهـرة في كتابه : (المذاهـب الاسـلامية) : « اشتدت حملة المعتزلة على الفقهـاء والمحدّثين ، ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدّث مشهور فكرهم الناس ، وصاحب ذكرهم البلاء والمحـن ، وتأرثت العداوة حتى نسي الناس خيرهم ، فنسـوا دفاعهم عـن الاسـلام ، وتصديهم للزنادقة وأهـل الأهـواء ، ولم يذكروا لهم إلا اغراؤهم الخلفـاء بامتحان كل إمام تقي ومحدّث مهديّ » .

الى أن قال : « وظهـر في آخر القرن الثالث رجلان امتازا بصدق البلاء، أحدهما أبو الحسن الاشعري ، ظهر بالبصرة ، والثاني أبو منصور الماتريدي ظهر بسمرقند ، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلاف في القرب من المعتزلة والبعد عنهم[1].

ولقد كان أبو الحسن الأشعري معتزلياً في أول أمره ، تمرّس بدرايـة أفكارهم ومعرفة أساليبهم في الجـدال والنقاش ، وأقبـل مثلهم الى عـلوم الفلسفة ودرس الكثير منها ، ولكنه تبرّأ بعد ذلك منهم ، وأعـلن توبتـه من

(١) المذاهب الاسلامية الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦٥ .

اعتناق أفكارهم ، ثم انتصر للحق الذي كان عليه سواد الأمة الاسلامية الى ذلك العهد ، وفي مقدمتهم المحدثون والفقهاء ، وقد كان له في ماضيه معهم وتمرسه بأساليبهم ودرايته للفلسفة اليونانية التي هي جل معتمد المعتزلة، ما يسّر له السبيل الى تعريتهم والكشف عن باطلهم ، فمن أجل ذلك كان ظهور المذهب الحق ـ الذي سارت عليه الجماعة ـ على يديه ، حتى نسب هذا المذهب اليه ، مع أنه كان موجوداً من قبله ، وكان سواد الناس من علماء وعامة يتناقلونه ويتواصون به ، ولكن لم يكن ثمة من يجابه به المعتزلة ويزيف لهم آرائهم ، إذ كان جميع المحدثين والفقهاء منصرفين عن ذلك الى دراسة ما هم بصدده من علوم الحديث والرواية أو دراسة الأحكام الفقهية واستنباطها من مصادرها الشرعية .

فلما ظهر أبو الحسن الأشعري ، وانشق عن المعتزلة ، قيض الله منه مدافعاً للحق الذي اجتمع عليه سواد الأمة ، كاشفاً عن زيف الانحرافات التي انجرف اليها المعتزلة ، موضحاً مدى ضلالهم في ابتعادهم عن نصوص الكتاب والسنة واعتماد الفلسفة اليونانية بدلاً منهما .

فكيف ترك الاعتزال ؟. وما هي العوامل التي حملته على ذلك ؟.

خير من يجيبنا على ذلك ، ابن عساكر المتوفي عام ٥٧١ هـ قال رحمه الله يروي عن اسماعيل بن أبي محمد بن اسحاق الأشعري رحمه الله :

« الأشعري شيخنا وإمامنا ومن عليه معوّلنا ، قام على مذهب الاعتزال أربعين سنة وكان لهم إماماً ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ، فبعد ذلك خرج الى الجامع فصعد المنبر وقال :

معاشر الناس ، إني انما تغيبت عنكم في هذه المدة ، لأني نظرت ، فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهداني الى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ـ وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ـ ودفع الكتب الى الناس : فمنها كتاب

« اللمع » وكتاب أظهر منه عـوار المعتزلة سـماه بكتاب « كشف الأسـرار وهتك الأستار » وغيرهما . فلما قرأ تلك الكتب أهـل الحديث والفقـه من أهل السنة والجماعة أخذوا بمـا فيها وانتحلوه ، واعتقدوا تقدمـه واتخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم اليه .

لم يكن الاشعري مبتدع من مذهب بل كان نصير أهل السنة والجماعة :

يظن كثير من الناس أن الامام الأشعري ابتـدع هو الآخر لنفسه مذهباً في أمـور العقيدة ، ودوّنه في كتبه ثم دعا اليه ، فاجتمع عليه الناس ، فنسبوا اليه لأخذهم بأقواله ، وقيل عنهم أشعريين . وهذا في الحقيقة وهم كبير ، فان الامام الأشعري لم يبتدع لنفسـه مذهباً ولا رأياً ، بل لفـت نظـره (وقـد أمضى شطراً من عمره وهو يتبنى أفكار المعتزلة) ، ما يعتقده رجـال السـنة والحديث ومعهم الفقهاء ، المشتغلون بدراسة الأحكام الشرعية في مسائل أصول الدين ، وهو الاعتقاد الذي ورثوه من جيل التابعـين ، وورثه التابعـون من أصحاب رسول الله ﷺ . مأخوذاً من نصوص الكتاب والسنة .

وعلى الرغم من أن سـواد الأمـة وجمهرة علماء المسلمين كانوا عـلى هذا المنهج يسيرون وبهـذا المعتقـد يتمسكون ، إلا أن ظهـور تلك الفرق الأخرى بخصوماتها وجدالهما ، مع دعـوة كل منها الى ما يروق لها من بـدع جديدة لم تكن من قبل ، حجب ذلك المنهـج عن الانظار ، وصـرف الاسماع عنـه الى ضجيج تلك المناقشات والمجادلات ، فعادت عقيدة جمهور المسلمين (في غمرة تلك الصراعات) ، أشبه ما تكون بالجادة العريضة التـي تكاثرت فوقها الأتربـة والحجارة والرمال ، فضاع على الناس معالمها وتاهـوا عـن حدودها ،فكان على الامام أبي حسـن الاشـعري محصوراً في إزاحـة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة ، وتجليتها أمام الأنظار ، وتنبيـه الناس الى اتبـاع ما عليـه جماعة المسلمين منذ عصر النبوة ، مدعوماً بنصوص الكتاب والسنة ، وذلك تنفيذاً واتباعاً لوصية رسول الله ﷺ باتباع الجماعة والتحذير من الشرود عن جادتها العريضة الى السبل التائهة المتعرجة ، وهـذا ما نبّـه

اليه جلّ الذين ترجموا له . يقول بن عساكر نقلا عن الشيخ أبي القاسم القشيري ما نصه :

اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن اسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة الحديث ومذهبه مذهب أصحاب الحديث ، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة[1] .

ويقول ابن السبكي في طبقات الشافعية : اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ، ولم ينشيء مذهباً وإنما هو مقرر لمذهب السلف ، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ ، فالانتساب اليه إنما هو بأنه عقد على طريقة السلف نطاقاً وتمسّك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً[2] .

ويقول ابن خلكان : « هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة واليه تنسب الطائفة الأشعرية .

وقال عنه ابن العماد في كتابه شذرورات الذهب : « وقد بيّض الله به وجوه أهل السنة النبوية وسوّد به رايات أهل الاعتزال والجهميّة ، فأبان به وجه الحق الأبلج ، ولصدور أهل العلم والعرفان أثلج[2].

عقيدة الامام الاشعري :

وقد لخص الأشعري عقيدته في كتابه الإبانة ، وانا لنلاحظ أن منهاج الامام الأشعري في بناء العقيدة يقوم على النقاط التالية :

أ ـ الأخذ بكل ما جاء به الكتاب ، وبكل ما جاءت به السنة ، لا فرق في ذلك بين سنة متواترة وآحاد ، ما دامت ثابتة صحيحة .

---

(١) تبين كذب المفتري ص ١١٢ و ١١٣ .
(٢) طبقات الشافعية لابن السبكي : ٣/٣٦٥ .
(١) وفيات الاعيان : ٢/٣٢٦ .
(٢) شذارات الذهب : ٢/٣٠٣ .

ب ــ الأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه ، مع تنزيه الله تعالى عن الشبيه والنظير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، فهو يعتقد أن لله وجهاً لا كوجه العبيد ، وأن لله يداً لا تشبه يد المخلوقات • (وظواهر نصوص الآيات الموهمة للتشبيه ــ تهدف الى تقريب الوجود الإلهي للأفهام ليس إلا)[٣] •

جـ ــ إثبات جميع الصفات التي أثبتها الله لنفسه ، مع اليقين بأنها ليست كصفات المخلوقات ، وان اتفقت التسمية أحياناً •

د ــ ان الانسان لا يخلق شيئا ، ولكنه يقدر على الكسب ، أي يملك اختياراً وإرادة ، وعلى هذا الكسب (صحة الانبعاث الارادي الحر) يدور التكليف (والمسؤولية)•

هـ ــ كل ما وعد الله به واقع ونافذ ، ومن جملة وعده تأميله الفاسقين والعاصين بالعفو والمغفرة اذا شاء ذلك (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) ، ومن جملة وعده أن ينكشف لمن شاء من عباده يوم القيامة ، فيرونه رؤية صحيحة لا يضارّون فيها • (وجوه يومئذ ناضرة الى ربّها ناظرة) •

وقد سلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل أولا والعقل ثانياً ، فهو يثبت ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله تعالى ورسله واليوم الآخر والحساب والعقاب والثواب ويتجه الى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على ما جاء بالقرآن السنة عقلا ، بعد أن وجب التصديق بها كما هي ، نقلا ، فهو ــ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة ــ لا يتخذ من العقل حاكماً على النصوص ليؤولها أو يمضي ظاهرها ، بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص يؤيدها •

وقد برع الامام الأشعري ــ كما يقول الشيخ أبو زهرة ــ فيالاستدلال

---

(٣) وقد أثر عن رسول الله ﷺ فيما رواه أبو نعيم في حلية الاولياء : « تفكروا في آيات الله ولاتفكروا في الله ، فانكم لن تقدروا الله قدره . أي أن الله (في ذاته) لا تحيط به الفكرة .

العقلي وارتضاه مسلكاً صحيحاً إذا جاء خاضعاً لسلطان النصوص الثابته وسبب ذلك :

١ إنه تمرّس بدراية أفكار المعتزلة وطريقتهم في الاستدلال والنقاش وأساليبهم في الجدال ٠

٢ ـ تصدى بعد ذلك للرد على المعتزلة وكشف انحرافاتهم فلا بد أن يلحن بمثل حجّتهم وان يتبع طريقتهم في الاستدلال ليقطع شبهاتهم وليرد حججهم عليهم ٠

٣ ـ تصدى للرد على الفلاسفة والقرامطة واضرابهم ٠ وكثير من هؤلاء لم يكن يفحمه إلا الأقيسة المنطقية والدليل العقلي[1] ٠

(١) المذاهب الاسلامية الشيخ محمد ابو زهرة : ٢٧٧ و ٢٧٨ .

الماتريدية

هي نسبة الى الامام محمد بن محمد بن محمود أبي منصور الماتريدي ، نسبة الى ما تريد ، وهي محلة أو ضاحية في سمرقند من بلاد ما وراء النهر ، وقد كان الى جانب إمامته في أصول الدين وعلم الكلام أحد فقهاء الحنفية ، فقد تلقى الفقه على مذهب أبي حنيفة عن نصر بن يحيى البلخي المتوفي سنة ٢٦٨ هـ .

وقد كانت بلاد ما وراء النهر موطن مناظرات ومجادلات في الفقه وأصوله ، ولما انتقلت أصداء الاعتزال الى تلك البقاع أقبل العلماء هناك يتناظرون في علم الكلام أيضا . وقد عاش الماتريدي في تلك الحلبة وتغذى بروح تلك المناظرات الفقهية والأصولية والكلامية ، وبرع في علم الحجاج والمنطق والفنون العقلية والنقلية ، فقيّض الله منه الرجل الثاني للزود عن الحق وإزاحة الشبهات لأولى البدع والضلالة .

يقول أبو زهرة في كتابه (المذاهب الاسلامية) : « عاش أبو منصور الماتريدي وأبو الحسن الأشعري في عصر واحد ، وكلاهما كان يسعى للغرض الذي يسعى اليه الآخر ، بين أن أحدهما كان قريبا من معسكر الخصم وهو الأشعري فقد كان بالبصرة موطن الاعتزال والمنبت الذي نبت فيه ، وكانت المعركة بين الفقهاء والمحدثين وبين المعتزلة بالطرق الذي كانت البصرة أحد أحواضه . أما أبو منصور الماتريدي فقد كان بعيداً عن موطن المعركة ، ولكن تردّد صداها في أرجاء الأرض التي يسكنها ، فكان في بلاد ما وراء النهر معتزلة يرددون أقوال معتزلة العراق ، وقد تصدى لهم الماتريدي[٢] .

---

(٢) المرجع السابق محمد أبو زهرة : ص ٢٩٢ .

منهجان في مذهب واحد :

من هنا نعلم أن الغاية التي استهدفها كل من أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي واحدة ألا وهي الدفاع عن معتقد أهل السنة والجماعة سواد الأمة ضد هجمات المبتدعة وأوهامهم لا سيما المعتزلة ، فلا غرو أن تتمثل الغاية الواحدة في معتقدات واحدة • ولقد علمت أن أبا منصور الماتريدي كان حنفي المذهب ، وقد كان أبو حنيفة ممن كتب في أصول الدين ، وله في ذلك كتابه (الفقه الأكبر) وكتب أخرى وكانت عقيدته موروثة ـ وهو من أقدم الأئمة الأربعة ـ من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ، دون تزيد أو انحراف أو ابتداع ، فكانت هي نفسها عقيدة الماتريدي ، وعنها ، وعنها كان دفاعه ، واليها كانت دعوته •

بيد أن نهجه الى ذلك ربما اختلف في بعض الجوانب عن منهج أبي الحسن الأشعري ، ويتلخص الفرق بينهما في ذلك ، في أن الأشعري كان لا يقيم لسلطان العقل الاجتهادي وزناً أمام النصوص حتى وإن كانت واردة عن طريق الآحاد ، ولم ترق الى درجة التواتر ، أما الماتريدي ، فقد كان يقيم لأحكام العقل وزناً أكثر من ذلك ، بمعنى أنه يسعى الى التوفيق بينه وبين المنقول إن أمكنه ذلك دون تكلّف أو تمحّل •

غير أن هذا الاختلاف اليسير في المنهج لم يتسبب عنه أي خلاف جوهري في النتائج والمعتقدات الأساسية • بل العكس هو الصحيح •

ولعلنا استوفينا بهذا القدر الكافي في التعريف بهذين الامامين ، وأثرهما في الدفاع عن الحق الذي التقى عليه جمهور المسلمين ، منذ عصر الصحابة الى هذا اليوم •

مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية

ولسائل أن يسأل : العلم الجازم في العقيدة الاسلامية من أين يحصل الانسان عليه، وماهي مصادره التي تورث اليقين،وما هو المنهج الصحيح للوصول اليه؟

للاجابة عن هذا السؤال يجدر بنا أن تتحدث أولاً عـن مصادر المعرفة بشكل عام ، ثم مصادر المعرفة في العقيدة الاسلامية •

أ ــ مصادر المعرفة :

لقد قسم العلماء العلوم النظرية الى ثلاثة أقسام :

- **أحدها : ما يكون عن طريق الخبر المتواتر :**

كعلمنا بأن مكة موجودة ، وعلمنا بأن الله قد أرسل رسولاً اسمه محمد عليــه الصلاة والسلام وما أشبه ذلك •

- **الثاني ما يكون عن طريق العقل بالنظر والقياس :**

وذلك كالعلم بحدوث العالم ، والعلم بأن زوايا المثلث تساوي قائمتين ، والعلم بأن الخطين المتوازيين لا يتلاقيان ما داما متوازيين •

- **الثالث ما يكون من جهة التجارب والعادات :**

وذلك ما يعرف في الطب في منافع الأدوية ومضارها وأشبه ذلك ، وهذا النوع من المعرفة خاص بالماديات •

إذن ــ لدينا ثلاثة طرق للوصول الى الحقيقة وهي : الخبـــر الصادق ــ

التجربة ـ العقل فما هو النهج الذي سلكه علماء الاسلام للوصول الى الحقيقة عن طريق هذه الأدلة الثلاثة ؟

المنهج الذي سلكه علماء الاسلام للوصول الى الحقيقة :

إن المنهج الذي وضعه علماء الاسلام ، قد صاغوه في قاعدة عظيمة هي :

● ان كنت ناقلاً فالصحة ● أو مدعياً فالدليل ، إذ القضية التي يراد إثباتها والتي هي موضوع البحث، لا تخلو من أن تكون إما خبراً منقولا أو دعوى يدعيها الانسان من عنده من غير أن ينقلها عن قوم آخرين .

فاذا كانت القضية خبراً ، فينبغي أن يكون البحث محصورا في تحقيق النسبة بين الناقل وبين مصدر الخبر فاذا ما ثبت صحة النقل ، وزال الشك تحقق لدينا مضمون الخبر ، وأصبح لدينا حقيقة علمية معنية ، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية .

وإذا كانت القضية المدعاة دعوى يدعيها الانسان من عنده ، فان البحث ينبغي أن يتجه الى الأدلة العلمية المنسجمة معها والتي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء .

إذا عرفت هذا فما هو المنهج العلمي الذي وضعه علماء الاسلام لتحقيق النسبة بين الخبر ومصدره ولتحقيق القيمة العلمية مفي الدعوى .

أولا ـ المنهاج الذي اتخذه علماء الاسلام للتحقق من صدق الخبر :

لقد وضع العلماء المسلمون لتحقيق ذلك فنوناً ثلاثة :

● أحدهما : فن مصطلح الحديث ● الثاني : فن الجرح والتعديل ● الثالث : فن تراجم الرجال .

حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على ميزان دقيق يتضح منه الخبر الصحيح من غيره ، والفرق بين الخبر الصحيح الذي يورث الظن ، والخبر الصحيح الذي يورث اليقين .

لقد قسم علماء المصطلح الخبر من حيث الصحة وعدمها الى أربعة أقسام :

القسم الاول :

الخبر الصحيح وهو الخبر الذي يرويه العدل الضابط عن مثله ، حتى يصل الى المصدر الاول لهذا الخبر ، بشرط أن لا يكون منه شذوذ ولا علّة .

- والشذوذ هو أن يخالف الثقة في الرواية من هو أوثق منه .
- والعلة هي مرض خفي في السند لا يطلع عليه إلا جهابذة الخبراء في علم الحديث .

القسم الثاني :

الخبر الحسن ، وهو الخبر الذي عرفت صدقه وصحّت وتناقله العدل الضابط عن مثله ، إلا أن رجاله لم يشتهروا رجال الخبر الصحيح .

القسم الثالث :

الخبر الضعيف، وهو الخبر الذي لم يستجمع شروط الصحة ولا شروط الحسن ، بأن فقد وصفا أو أكثر من أوصاف الحديث الصحيح أو الحسن .

القسم الرابع :

الخبر الموضوع ، وهو ما نسب الى مصدره كذبا واختلاقا ، وهو في الحقيقة ليس نوعا من أنواع الحديث .

وبناء على هذا فما كان موضوعا أو ضعيفا فلا يلتفت اليه في بناء الأحكام عليه ، وما كان حسناً فانه يستفاد منه في استنباط الأحكام الفقهية الفرعية ، وأما في ميدان العقيدة فلا يصلح أن يكون دليلا فيها ، لأن مبنى العقيدة على اليقين ، والحديث الحسن لا يفيد ذلك .

وأما الخبر الصحيح فهو الذي يكون مجالاً لأن يستدل به في ميدان

العقيدة ، إلا أن الخبر الصحيح ليس كله على درجة واحدة ، فان من الخبر الصحيح ما يفيد الظن ، وهو الخبر الصحيح في أول درجاته ، فهذا أيضا لا يصح الاستدلال به في شؤون العقيدة ، بل يستفاد منه ويعتدّ به في نطاق الأحكام العملية ، كما ذكرنا في الحديث الحسن ، ومنه ما يفيد اليقين ، وهو الخبر الصحيح في أعلى درجاته ، وهو ما يسمى عند علماء المصطلح بالحديث المتواتر .

فما هو الحديث المتواتر ، وما هي شروط قبوله ؟

الخبر المتواتر وشروط قبوله :

الخبر المتواتر : هو نوع من أنواع الصحيح بل هو أعلى أنواع الصحيح، ولذلك يعرفه العلماء بأنه ما يرويه جمع عن جمع عن جمع وهكذا الى أصل الخبر بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب ، ويكون مستندهم في كل طبقة الحسّ (من سماع أو مشاهدة) . وهذا النوع من الاخبار موجب للعلم اليقيني ، ولقد ذكر الامام الغزالي في المستصفى شروطاً أربعة للمتواتر :

● أن يخبروا عن علم لا عن ظن ● أن يكون علمهم ضروريا مستندا الى محسوس ● أن يستوي طرفاه وواسطته في الصفات ، وفي كمال العدد . ● العدد وقد ذكرنا في تعريف المتواتر أنه يشترط فيه العدد الذي يستحيل تواطؤهم على الكذب .

ولقائل أن يقول : من أين للباحث أن يعلم شروط الخبر الصحيح ، فانه قد يرى سلسلة الرواية ، فكيف يستطيع أن يعلم اتصال هؤلاء الرواة بعضهم ببعض ، وأنهم جميعا عدول ثقاة ضابطون ؟

والجواب عن هذا أن نقول : إن كلاً من علمي الجرح والتعديل، وتراجم الرجال إنما وضعا تذليلاً لسبيل هذا البحث ، وتيسيراً للاطلاع على الواقع الذي ينبغي الوقوف عليه .

وفي المكتبة الاسلامية مؤلفات كثيرة تعني بهذا الشأن .

ثانيا ــ المنهاج الذي رسمه علماء الاسلام للتحقق من صحة الدعوى :

الدعوى التي يدعيها المدعي إما أن تكون أمراً يتعلق بموجود مادي ، وإما أن يتعلق بأمر تجريدي أو غيبي أما ما يتعلق بأمر موجود مادي فلا بد من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين من التجربة والمشاهدة ، إذ هو الوسيلة الطبيعية للادراك اليقيني في مثل هذه الأمور •

وعلماء الاسلام بل الاسلام عندما بين للانسان أن هذا الكون بما فيه مسخر لمنفعته ، ومذلل للاستفادة منه كان هذا أعظم دافع لأن يبحث في أي شيء في هذا الكون لينتفع به ، وهذا لا يتم إلا عن طريق التجربة والمشاهدة ، قال تعالى :

● « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر منه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » النحل / ١٤ •

● « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » النحل / ١٢ •

فالنصوص القرآنية الآنفة الذكر وغيرها من النصوص التي تتحدث عن التسخير تحمل في طياتها دعوة صريحة الى التجربة والاستفادة من هذا الكون، إذ أن الاطلاع على ما أودع في هذا الكون لهو أعظم دافع الى الايمان بخالقه سبحانه وتعالى •

ان القرآن الكريم أشار الى حقائق كونية ، ولم يفصل القول فيها ، ليدفع هذا الانسان الى الوصول اليها عن طريق التأمل والتفكر والتجربة ، ليكون نهاية مطافه الايمان بخالق هذا الكون ومبدعه ، ثم الايمان بقدرته وحكمته ، قال تعالى :

● « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » فصلت / ٥٣ •

هذا ومع أن القرآن الكريم قد تحدث عن بعض الحقائق الكونية وطلب

من الناس أن يتفكروا ويتأملوا ويجربوا حتى يصلوا الى معرفة هذه الحقائق، لم نر الى الآن أنـه ظهرت حقيقة علميـة ثابتة تخالف وتعارض أي قضية من القضايا التي نص عليها القرآن ، سـواء أكـان ذلك في ميـدان العقيدة أم غيرها • لأن من القواعد العقليـة الثابتة : « أن الحقائق لا تتعارض » •

ولئن بدا عند بعض الباحثين أن هناك تعارضاً بين ما جاء به العلم وما جاء به الدين فان مردّ ذلك الى واحد من ثلاثة أسباب •

أحدها : أن يكون الشيء الذي يدّعي صاحبه أنه علم لم يصل بعد الى مرحلة العلم المقطوع به الثابت بالأدلة اليقينية ، كالنظريات التي لم تتأكد بعد والتي ما زالت رهـن البحث والنظر ، أو التي لا سبيل الـى إثباتها بأدلـة علميـة يقينية ، وإن اعتقد بعض العلماء أنها علم ، لعدم وجود ما هو الأقوى منها في نظرهم •

الثاني : أن يكون هذا الشيء الذي نسب الى الدين لم يصل بعـد الى درجة القطع في نقل النص الذي تضمن هذا النوع •

الثالث : أن يكون الفهم الذي فهم به النص الديني فهماً مخطئاً ، وهـذا النوع لا يتحمل النص الديني وزره ، وانما يعبر عن رأي من فهمـه على هذا الوجه المخالف للحقيقة العلمية التي توصلت اليها الوسائل الانسانية ، وذلك كمسألة كروية الأرض ، ودورانها حول نفسها وحول الشمس وما الى ذلك ، هذا فيما يتعلق بأمر مادي من الدعاوى •

وأما ما يتعلق من الدعاوى بأمر تجريدي أو غيبي غـير خاضع لشيء من الحواس الظاهرة ، فمنه ما نجد في القرآن الكريـم أو السنّة المتواترة نصـاً واضحاً فيه ، ومنه ما لا نجد في شيء منهما نصاً واضحاً عنه •

فأما المنصوص عليه في أحدهما :

فهو داخل في ذلك بالمدركات اليقينية ، وسبيل اليقين فيـه أنه من حيث (نقل ــ الكتاب والسنة له) ، يرجع الى الخبر اليقيني المتواتر ، إذ أن القرآن

الكريم هو اللفظ الموحى بـه الى محمد ﷺ ، والواصل الينا عـن طريـق التواتر ، فلا شـك أن قرآنية ألفاظه متواترة مقطوع بها ، ومثل القـرآن في ذلك السنة المتواترة .

وأما من حيث صدق ما تضمنه القرآن نفسه ، فتلك مسألة أخرى مردّها التحقيق في ظاهرة الوحي ، وإقامة البراهين العلمية اليقينية ، وهذا ما تتحدث عنه عند التحدث عن النبوات .

ومعنى هذا أن النصوص القطعية الثابتة في الكتاب أو السـنة تعطينـا يقيناً بمضمونها عندما تتحقق بالبرهان القطعي صدق النبي ﷺ بـأن هـذه الأخبـار وحي من عند الله عز وجل .

هذا ولا بد من التنبيه على أن هذا القسم الذي ورد فيه نصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة لم يهمـل علماء المسلمين البحث فيـه عن طريق العقل والفكر المجرد (لا لأنهم يشكّون في صدق هذا الطريق) ، بل إنما فعلوا ذلك من أجل أن يشقوا الى اليقين طريقاً آخر في البحث ، الى جانب ثبوت عن طريق الخبر الصادق المتواتر .

وهكذا يسلك الفكر الاسلامي الى الايمان بوجود الله ووحدانيته بذلك مسلكين كلاهما منهج علمي صحيح .

أما المسلك الاول :

فيبـدأ بمرحـلة البـحث عـن ظاهـرة الوحي ، فـاذا تجاوزها ثنّى بمرحـلة البحـث في صـحـة النقـل وتوافـر مقـومات اليقـين فيـه ، **فاذا تجاوزها استيقن الامر وصدقه لصدق كل مقدماته .**

واما المسلك الثاني :

فيحتاط للأمر (وخاصة بالنسبة للملحدين ـــ الذين يفقـدون رصـيد الايمان) ، فيبحث في الأمر على هدي من الفكر المجـرّد والبراهين العقليـة المحضة ، دون أن ينطلق بذهنه الى النبوّة وحقيقتها ، والى القرآن وصدقه ،

وكلا المسلكين ينتهيان بالباحث الى اليقين ، بل إنهما ليلتقيان أخيراً ليشد كل منهما من إزر الثاني •

وأما ما لم يتعرض له الخبر المتواتر اليقيني بأي نص واضح صريح :

فسبيل معرفة الحق فيه منحصرة بالنظر العقلي وحده ، وقبل أن نتحدث عن ذلك يجب علينا أن نبين الحقائق التالية :

أولا : معنى العقل والفكر والنظـــر :

يولد الانسان وليس عنده شيء من المعرفة والعلم ، فهو من هذه الناحية صحيفة بيضاء لم يكتب عليها معلوم ما •

ويولد وليس لديه سوى مجموعة من الغرائز (كالخوف ــ وحب البقاء)، وسوى مجموعة من الحواس التي هي : (السمع والبصـر والذوق والحس والشم) • ولكنه الى جانب مزوّد بقــوة عظيمة مدركة ــ هي العقــل ، تلك القوة التي اختص الله بها الانسان من بين مخلوقاته (ونقصد بها القوة المفكرة ــ المتطورة) ، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً •

وقد أوضح الله ذلك في كتابه العزيز ، بقوله تعالى :

● « والله أخرجكم من بطــون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكــم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » النحل / ٧٨ •

● « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شــيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين • ثم جعل نسله من ســلالة من ماء مهــين • ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون • » السجدة / ٦ــ٩ •

إن قوة العقــل تبدأ عملها بادراك الأشياء عن طريق الحواس ، وتختزن صورها في جبهته الى وقت الحاجة اليها ، وعندما يتطلب معرفة مجهــول يأتي الى هذه المعلومات المختزنة فيرتبها ترتيباً خاصاً ، ويتوصل بها الى معرفة ذلك

المجهول ، مفرداً كان ـ وهو التصوّر ـ أو نسبة ـ وهو التصديق ـ بهذا الترتيب هو التفكير .

فالتفكير اذن هو ترتيب أمور معلومة للتوصل بها الى (مجهول ـ تصوري) أو (تصديقي) وارادة العقل وتطلبه لاستخراج هذا المجهول هما ما يسمى « النظر » ، ولهذا قيل العلوم التي تستخرج عن طريق التفكير والبحث « العلوم النظرية » ، ومن هذا نفهم أن أي مجهول نتوصل الى معرفته ، فمنطلق البحث فيه عن طريق الحواس التي جعلها الله سبيلاً للمعرفة عند الانسان .

قال ابن حزم ما ملخّصه : لا طريق الى العلم أصلاً إلا من وجهين :

أحدهما : ما أوجبته بديهة العقل وأوائل الحس ، والثاني مقدمات راجعة الى بديهة العقل وأوائل الحس .

فعن ادراك الحواس :

أول ما يحدث لها من التمييز الذي ينفرد به الناطق من الحيوان ، فهم ما أدركت بحواسها الحس ، كعلمها أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها ، والرائحة الرديئة منافرة لطبعها . وكعلمها أن الأحمر مخالف للأخضر والأصفر والأبيض والأسود ، وكالفرق بين الخشن والأملس ، والحار والبارد والحلو والحامض والمرّ والمالح ، وكالفرق بين الأصوات ، فهذه ادراكات الحواس لمحسوساتها ، والادراك السادس علمها بالبديهيات ، فمن ذلك بأن الجزء أقل من الكل ، فان الصبي الصغير فيأول تمييزه اذا أعطيته ثمرتين بكى، واذا زدته ثالثة سرّ، وهذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء، وان كان لا ينتبه الى تحديد ما يعرف من ذلك ، ومن ذلك علمه بأنه لا يجتمع المتضادان فانك اذا وقفته قسرا بكى ونزع الى القعود ، علماً منه بأنه لا يكون قائماً قاعداً معاً ، ثم أخذ ابن حزم رحمه الله يضرب أمثلة على البديهيات ، ومن ذلك أن الجسم لا يكون في آن واحد بمكانين ، وأن المكان الواحد لا يكون فيه جسمان .

ثم قال رحمه الله : « فهذه أوائل العقل التي لا يختلف منها ذو عقل » .

ثانيا ــ موقف الاسلام من الفكر والنظر :

ان الاسلام هو الدين الذي أعلى من شأن العقل وعدّه أداة صالحة لتعرّف الحقائق ، وفي رأسها الايمان بالله وقدرته ووحدانيته ، وهو الدين الذي طلب من الانسان ، أن ينطلق الى الايمان من الدليل والبرهان ، ولذلك دعا الى إعمال العقل والتفكير به ، وذمّ الذين يهملون عقولهم ويعطلون نعمة الله فيهم ، ويلوذون بتبعيّة أو تقليد من غير تفكير ولا نظر ، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الأمور التالية :

أ ــ لقد طلب القرآن الكريم من الانسان أن يفكر فيما يدعى اليه إما منفرداً بنفسه ، وإما مجتمعاً مع أناس آخرين . قال الله تعالى :

ب ــ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله ، مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » سبأ/٤٦ .

ب ــ لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين ، ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول ، قال تعالى :

● « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . » آل عمران (١٩٠ ــ ١٩١) .

جـ ــ لقد عدّ القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقى إليهم ، ولا يعملون فيه عقولهم ، عدّهم كالبهائم . قال تعالى :

● « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون » البقرة/ ١٧١ .

● « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون

بها ولهم أعـين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعـام بل هم أضل أولئك هم الغافلون •» الأعراف /١٧٩ •

د ــ لقد ذمّ القرآن الكريم التقليد الأعمى ــ وهو أن تتبع غـيرك من غير وعي ولا تفكير ، فقال تعالى :

● « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبـع الى ما ألفينا عليـه أباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون • » البقرة /١٧٠ •

وفي الحديث الشريف : « لا تكونوا إمّعة ، تقولون إن أحسـن الناس أحسنا، وإن ظلموا أظلمنا ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا •»[1] •

هـ ــ لقد نهى القرآن الكريم الانسان أن يتّبع شيئا ويؤمن به ، من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع وبرهان مقنع ، يصـل الى درجـة العلم واليقين ، قال الله تعالى :

● « ولا تقف ما ليس لك به علم،إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » الإسراء /٣٦ •

(١) أخرجه الترمذي برقم : ٢٠٠٨ .

الباب الاول

دراسة العقيدة الاسلامية

الفصل الأول :

آ ــ طريقة القرآن الكريم •

ب ــ طريقة المتكلمين

الفصل الثاني :

الله والكون والانسان

دراسة العقيدة الاسلامية

لقد اتخذت العقيدة الاسلامية منهجين :

أحدهما : منهج القرآن الكريم ، وهذا ما يمكن أن نسمّيه « مذهب السلف » •

الثاني : منهج الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، وهذا ما نستطيع أن نسمّيه « مذهب الخلف » أو منهج المتكلمين ، ولكل من هذين المنهجين أسلوبه وطريقته ، وإليك توضيح ذلك فيما يلي :

أ ــ طريقة القرآن الكريم :

القارىء الكريم والمتأمل في أسلوبه ومراميه ، يرى أن القرآن الكريم اعتمد في دعوته الى الايمان بالله وما يتصل بذلك ، على أساس فطري ، فكل إنسان يكاد يكون مفطوراً على الاعتقاد بوجود إله خالق لهذا العالم ومدبّر له وقائم على تسييره ، كما سترى ذلك عند الكلام على وجود الله سبحانه •

فالناس جميعاً يكادون بفطرتهم يجمعون على ذلك ، مهما اختلفت أسماء هذا الخالق عندهم ، ومهما اختلفت صفاته بينهم، يستوي في ذلك الممعن في البداوة والمغرق في الحضارة ، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي ، إذ يرى إجماع القبائل ــ حتى التي لم تتصل بغيرها أي اتصال ، والتي لا تعرف، من العالم إلا رقعتها من الارض وغطاءها من السماء ــ يرى إجماع القبائل على إله خالق لهذا الكون ، وإن اختلفوا في شيء من ذلك فخلافهم في الأسماء والاختصاص •

فالقرآن الكريم اعتمد على هذه الفطرة الكامنة في النفس الانسانية ، وخاطب الناس بما يوقظ هذه الفطرة ، ويبعث هذه العاطفة الدينية وينمّيها ويقوّيها ، ويصلح ما اعتورها من فساد الإشراك وانحراف في تصور الصفات لهذا الخالق العظيم ، وأدار الدعوة على هذا الأساس .

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الانسان وعني به ، وأحاطه ببيئته ، فهو ينتفع بها في تسيير شؤونه ، من أرض وسماء ، وليل ونهار ، وماء وهواء، وشمس وقمر وحيوان ، ونبات .

والله سبحانه هو الذي خلق الوجود والكون كله ، ما ندرك منه وما لا ندرك ، وما نعلم منه وما لا نعلم ، وهو واجب لها كلها ، وواهب الحياة لما كان فيه حياة منها ، وواضع نظام هذا الكون الذي لا تحيد عنه ، كما قال تعالى :

● «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »[1] .

ثم إنه سبحانه غذّى هذه الفطرة بطلب التأمل والنظر والتفكّر الى كل ما حولنا من أشياء فذلك يسلم الى قوة في دين ، وإيمان في يقين ، كما قال تعالى :

● « فلينظر الانسان ممّ خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين

---

(١) سورة يس : الآيات (٣٣ — ٤٠) .

الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر . »[1] .

● « فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم »[2] .

● « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت . »[3] .

هذا الى كثير من الأيات القرآنية التي تحث على النظر والتفكر ، مما تجده مثبوتاً في معظم السّور وخاصة السّور المكية ، التي تعني بقضايا الايمان والعقيدة .

ولقد سلك في الدعوة الى التوحيد هذا المسلك ، فاستدل على ذلك من تنازع ذوي السلطة وما يؤدي اليه هذا النزاع من فساد . قال تعالى :
● « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .[4] قال تعالى :

● « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »[5] .

كما استدل على وحدانية الخالق سبحانه ، بوحدة النظام ووحدة الخلق ، وخضوع المخلوقات جميعا لنظام واحد لا تغيير فيه ولا تبديل . قال تعالى :

● « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً »[6] .

---

(1) الطارق : (٥ — ٨) .
(2) عبس : (٢٤ — ٣٢) .
(3) الغاشية : (١٧ — ٢٠) .
(4) الانبياء : (٢١ — ٢٢) .
(5) المؤمنون : (٩١) .
(6) الاسراء : (٤٤) .

● « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حقّ عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ان اللّه يفعل ما يشاء »(٧) .

وهكذا سار أسلوب القرآن الكريم على هذا النهج في إثبات قدرته وعلمه ووحدانيته ، وهذا الاسلوب يساير الفطرة ويغذيها ، ويشعر كل انسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء اليه . حتى الملحد بعقله ، وهو منهج يوافق العامة ، وهم السواد الأعظم في كل أمة وكل جيل ، كما يناسب الخاصة ، وهم الأقلّون دائماً ، فطبقتا المجتمع يستويان في الاستفادة من هذا المنهج القرآني .

ونظرة العامّي الى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شمسها وأقمارها ، تبعث عنده الايمان ، بمدبّر هذا الكون وعظمته ، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة ، وأشدّ إعجاباً بخالقها ومدبّرها .

ومن هنا لفت القرآن الكريم أنظار الناس كافة أن يتأملوا ويتفكروا فيما أودع الله في هذا الكون من المظاهر الدالّة على وحدانيته وقدرته ، غير أنه سبحانه جعل للعلماء مزيّة على غيرهم بما أودع فيهم من المعرفة والعلم ، ونبّه الى أنهم هم الذين يخشون الله حق خشيته ، قال سبحانه :

● « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور »(١) .

---

(٧) الحج : (١٨) .

(١) فاطر : (٢٧ — ٢٨) .

يا رب ذكرك للعقول مكمل ... أنت الكمال بل الكمال الاكبر

أنت السعادة للقلوب اذا صفت ... مما يدنسها وراحت تطهر

=

فالقرآن الكريم لا يتألف برهانه (من حيث الظاهر) كما يتألف البرهان المنطقي من مقدمة ، صغرى وكبرى ونتيجة ، ولا يتعرض لألفاظ الفلسفة ، من جوهر وعرض ، وكمّ وكيف ، وما أشبه ذلك ولا يحاول أن يثير المشاكل العقلية ويفصّلها ويبني عليها، لأن القرآن لم يأت للفلاسفة وحدهم ولا للعلماء وحدهم (وهم قلّة) ، والعلم حظ أقل عدد من الناس ، وإنما اعتمد كما ذكرنا على الفطرة والعاطفة ، وهما قدر مشترك بين الناس جميعا ، ومن ثمّ كان ممن آمن ، علماء ، وجهلاء وفلاسفة وغيرهم ، ولو اتبع القرآن سبيل علم المنطق الذي اصطلح عليه المناطقة ، لما آمن من الناس إلا القليل .

ولكن جاء في القرآن آيات فيها غموض على الباحث ، فآيات تدل

=

فامنح فؤادي في هواك سعادة — واتح له بالحب ما يتعذر
وافتح له بالحب آفاق الهدى — فالحب مصباح القلوب ينوّر
قد ضل قلب لم يكن لك حبه — وشقي بدنياه التي كم تغدر
يا من يشاهد في الوجود جماله — ويرى الفؤاد جماله فيكبر
أبدعت هذا الكون أنت بحكمة — فيها الدليل على وجودك يظهر
فمن الذي رفع السموات العلى — من غير أعمدة تحس وتنظر
ومن الذي قد زانها بكواكب — هن الجمال بل الجمال الاسحر
والارض من قد مدها وأمدها — بالماء ما هز النبات الاخضر
والارض واحدة تنوع نبتها — فمن المنوع للنبات ومظهر
والطير قد شقت وأجنحة لها — هذا الفضاء بقوة لاتقهر
فمن الذي وهب الطيور جناحها — ومن الذي خلق العقول تفكر
يا رب أنت لكل شيء خالق — ولكل شيء في الوجود تدبر
في كل شيء في الوجود دلائل — تهدي اليك وعبرة تتكرر

على قدر علم المرء يعظم خوفه — فلا عالم الا من الله خائف
وآمن مكر الله بالله جاهل — وخائف مكر الله بالله عارف

هكذا يزداد المؤمن (بالعلم) رسوخا في الايمان (بعدالة الله) ، ما يقوده الى طاعة اجلالا وتعظيما ، وخشية من الوقوع في شرك المعصية والمؤاخذة ، اذا غفل عن وصية الله (متبعا لهواه).

بظاهرها على الجبر ، وآيات تدل على الاختيار ، فكيف التوفيق بينهما ؟ وما الرأي الحق الذي ترمي اليه هذه الآيات ؟[1] .

وجاءت آيات تثبت لله ، يداً ووجهاً (تقريباً للوجود الإلهي ـ الى الأفهام) ، وآيات تدل على أنه في السماء ، كما قال تعالى :

● « أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور . » سورة الملك / ١٦ .

وآيات تذكر أن لله عرشاً ، وأنه سبحانه قد استوى على العرش ، كما وردت آيات تدل على تنزيه الله أن يتصف بصفة من صفات المخلوقين ، كما قال تعالى :

● « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . » الشورى /١١ .

فكيف وقف المسلمون الأولون من هذه الآيات التي تسمى «المتشابه» ؟ لقد كان موقف المسلمين الأولين من ذلك أنهم نزهوا الله سبحانه عما لا يليق

---

(١) لا بأس أن نعيد الى الاذهان ـ هنا ـ ما ورد في كتاب (مفتاح السعادة) للحسن البصري ، من أكابر التابعين ، حين سئل عن القدر : « أأجبر الله عباده ؟ ... قال : هو أعدل من ذلك ، فقيل : أفوض اليهم ؟ .. (ويقصد بالتفويض هنا ، تركهم غير خاضعين لنظام عام في الخلق والتدبير ، وكأنهم غير مكلفين ولا مسؤولين) فقال : (أي الحسن البصري) ، هو أعز من ذلك ... وذلك عملا بقوله تعالى : « أيحسب الانسان أن يترك سدى .. ثم يتابع ـ الحسن البصري ـ كلامه ، فلو أجبرهم لما عذبهم ، ولو فوض اليهم ، لما كان للامر والنهي معنى .. ا . هـ .

وقد ذكرنا ـ أن الله سبحانه ـ منح الانسان (بمحض جوده وكرمه) حرية الارادة والاختيار، منحه هذا الانبعاث الارادي ليصوغ مستقبله ، ويقرر مصيره ، لذلك فالانسان من هذا المنطلق (مكلف ـ مسؤول) وأما ما يفيد (الجبر) في ظاهر بعض الآيات القرآنية ، نمرده :

● آ ـ الاشارة بوضوح الى النظام العام الالهي في الخلق والتدبير ، وهو موضوع فوق مستوى العقل البشري للاحاطة بكنهه وادراك حقيقته ، مثل تقرير الذكورة والانوثة ونسبة كل منهما، وحركات القلب ودوران الشمس وما اليها ..

● ب ـ الاشارة الى أن الانسان (وان منح من الله ارادة حرة) فهذه الحرية وهذه الارادة هي ضمن المخطط الالهي العام في الخلق والتدبير ، فعلى الانسان أن يلاحظ هذا المعنى في ممارسة حريته ، وفي الاستعانة بالله ليكون على مستوى التقوى والكرامة من الله ، بالحرص على طاعته سبحانه اجلالا وتعظيما وشعورا بالمسؤولية .

به من الصفات وآمنوا بهذه الآيات ، ووكلوا تفصيل ذلك الى علم الله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل •

روى البيهقي في شعب الايمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

« نزل القرآن على خمسة أوجه ، حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال • »

وكان كثير من العلماء ذوي العقول الراجحة في العصر الاول ، يرى أن الدخول في تفصيل هذه المتشابهات ،والجدال فيها ليس من مصلحة المسلمين ، ولا يستطيع فهمه جمهورهم ، قال تعالى :

● « والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » آل عمران / ٦

فأولى أن يكتفى فيها (الآيات المتشابهة) بالمعنى الإجمالي •

فقد قبل رسول الله ﷺ قول الجارية التي تعتقد أن الله في السماء (من غير استفصال ـ وشرح) لأن عقلها لا يقوى على أكثر من ذلك •

روى مسلم في صحيحه عن معاوية بن الحكم السلمي قال : « كانت لي جارية ترعى غنماً لي ، قبل أحد ، والجوانية ، فاطلعت ذات يوم فاذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها ، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون ، لكني صككتها صكة ، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي قلت يا رسول الله أفلا اعتقها ؟ قال ائتيني بها ، فأتيته بها فقال لها : أين الله؟قالت في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : اعتقها فانها مؤمنة[1] »•

وجاء من بعدهم قوم ساروا على هذا المنهج ، فقد روي عن الوليد بن

---

(١) أخرجه الامام مسلم في كتاب المساجد برقم : (٥٣٧) •

مسلم أنه قال : « سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد عن الأخبار التي جاءت في الصفات ، فقالوا : أسردها كما جاءت بلا كيف » •

وسئل ربيعة الرأي عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فقال : الاستواء مذكور (أي في القرآن) ، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق » •

وروي عن مالك بن أنس أنه سئل : كيف استوى ؟ فأطرق برأسه ثم قال : « الاستواء مذكور (أي في القرآن) ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة •

فهؤلاء رأوا الوقوف عند (ما جاء في الدين — من غير تفسير ، لأن ما يتعلق بالله وصفاته شيء وراء حدود العقل ، لا يمكن أن يصل اليه الانسان إلا بأن يقيس الله على نفسه ، وعالم الغيب على عالم الشهادة ، وذلك خطأ ما بعده خطأ •

فالأولى أن نقف على ما ورد فيه النص من غير سؤال بكيف ولا أين ، وقد أستمرت هذه المدرسة في العصر العباسي وبعده ، ولا تزال قائمة الى اليوم ولو على نطاق ضيق ، فكان زعيم هذه المدرسة في عهد العباسيين الامام أحمد بن حنبل ، وفي العصور بعده الامام أبو العباس أحمد بن تيمية • وهذه المدرسة هي الأحكم والأسلم كما سنبين ذلك عند البحث عن صفات الله جلّ وعلا •

ب — طريقة المتكلمين :

وأما طريقة المتكلمين وشيوخهم ، فتغاير طريقة السلف ، الذين استمدوا طريقة القرآن الكريم طريقة لهم ، فهم آمنوا بالله تعالى ، وبما جاء به رسوله الكريم ، إلا أنهم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية ، فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطبة لهما ، بالنظر في آيات الله في الكون ، فنقلوا ذلك الى دائرة العقل والنظر ، ومن فنّ جميل الى علم ومنطق ومن قلب الى رأس ، فبدلا من أسلوب القرآن الكريم في قوله تعالى :

● « أفي الله شك فاطر السموات والأرض[1] ، وضعوا طريقتهم في بيان حدوث العالم ، واضطر بعضهم ذلك الى القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ، وإقامة الدليل على عدم حدوثها بنفسها ، الى أن يصلوا الى إثبات وجود الله تعالى ، وهكذا سلكوا هذا السبيل في إثبات وحدانيته وسائر صفاته سبحانه، وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تثير أسئلة وجدلا، وتفتح موضوعات جديدة ، فساروا فيها الى نهايتها .

هذه ناحية ، والناحية الأخرى أنهم لم يقنعوا ــ كما قنع غيرهم ــ بالايمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل ، فجمعوا الآيات التي قد يظهر بينها خلاف كالجبر والاختيار ، وكالآيات التي ذكر فيها اليد والوجه والجبهة والرؤية وما أشبه وذلك ، وسلّطوا عليها عقولهم ، وجرؤوا على ما لم يجرؤ عليه السلف الصالح ، فأدّاهم النظر في كل مسألة الى رأي ، فاذا وصلوا اليه عمدوا الى الآيات التي يظهر لهم أنها تخالف الأولى فأوّلوها ، فكان التأويل من أهم مظاهر المتكلمين ، فاذا أراهم البحث الى نفي الجهة عن الله تعالى ، نستلزم أن أعين الناس لا يمكن أن تراه تعالى لأنها ركبت تركيبا خاصا بحيث لا ترى إلا ما كان في جهة ، أوّلوا الأخبار الواردة في رؤية الناس لله وهكذا فالتأويل عنصر من أهم عناصرهم وأكبر مميز لهم عن السلف .

وطبيعي ان هذا المنحى في التأويل وإعطاء العقل حريته في البحث والنظر، واتجاهه الى أية جهة يراها ، يستلزم اختلافا كبيرا ، فان أرى النظر قوماً الى الاختيار وتأويل آيات الجبر قد يؤدي النظر غيرهم الى إثبات الجبر وتأويل آيات الاختيار .

وهذان الأمران ــ أي الاعتماد في البراهين على العقليات وتأويل النصوص ، هما اللذان يدللان ما استفاض في عصور المتكلمين من خلاف ومن أقوال لاعداد لها ، ومن براهين لا حصر لها مما لم يكن معروفا في عهد النبي ﷺ ولا للصدر الاول .

---

(١) سورة ابراهيم : الآية (١٠) .

والذي يظهر أن الذي دعا المتكلمين الى سلوك هذا المسلك ، قد تحدثنا عنه سابقا في مبحث (نشأة علم الكلام) ، من أن أوائل المتكلمين قد دخلوا في حوار عميق مع أقوام من الملل الاخرى من يهودية ونصرانية ووثنية ، وكانت قد تفلسفت عقولهم ، وهؤلاء لم يكفهم في الاقناع أن تذكر لهم آية من القرآن الكريم ، أو حديثاً من السنة المطهرة ، بل يريدون الرجوع الى قضايا تستند الى القدر المشترك من العقل ، فاضطر ذلك المتكلمين أن يدخلوا في منهجهم ويسلكوا سبيلهم ، ويؤلفوا الأدلة العقلية على وجود الله تعالى[2]، فدخلوا معهم في جدال حادّ ، وفلسفوا أدلتهم ، كما فلسف المخالفون أدلتهم.

وبعد فأي المنهاجين هو الأولى والأقوى في الدلالة على الأمور الاعتقادية ، وأقرب الى السلامة ؟ لا شك أن ما ذهب اليه السلف من اعتماد الاسلوب القرآني والمنهج الرباني (هو الأصل) وهو الأفضل والأحكم ، وقد أشرنا آنفاً الى رأي الامام الغزالي في علم الكلام ، بأن فيه منفعة ومضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال ، أو مندوب إليه ، أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرّته في وقت الاستضرار ومحله حرام . وإذا وقعت الاحاطة بضرورية من منفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر ، إذ لا يضعه إلا في موضعه ، وذلك في وقت الحاجة، وعلى قدر الحاجة ؟.

إذن ــ فالحجاج عن العقائد الايمانية بالادلية العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين والملحدين عند الضرورة (ويقدرها) دون تنطّع وتشدّق، ودون تقصير واهمال ، أمر لا يتعارض مع أهداف الاسلام اذا قادته الحكمة ، ووضع الاشياء في مواضعها الملائمة .

أي ــ فاستثارة الفطرة ، حيث تجثم الشبه العقلية والفلسفية في العقل ، وتثقلها عن التحرك ، (في مواجهة الملحدين) سعياً وراء الفطرة (عبث لا يأتي بطائل) ، كما أن اصطناع المعارك العقلية ، للردّ على شبه عقلية لا وجود

---

(٢) أخذ هذا البحث بتصرف من كتاب ضحى الاسلام لاحمد امين : (٣/١ ــ ١٧) .

لها في المجلس أو بين الجماعة التي يثار الحديث عنها فيما بينهم (تنطّع ممجوج وتضييع الوقت) ، مما يعتبر خارجاً عن حدود الحكمة الاسلامية التـــي أمرنا الله أن نلتزم جادتها في دعوتنا الى الله •

والخلاصة ــ ان علم الكلام اليوم في حدود الحاجة الماسة الى التصدي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة ، مما يلبس أرديــة المنطق والعلم في الظاهر (كالمادية الجدلية ، ونظريات التطور وغيرها)، مما يجب على المسلمين مواجهته بسلاح الحكمة المشار اليها ، وهو ضـــمن حدود الحاجة اليه داخل في صميم المنهج القرآني ، للتبصير بحقائق الاسلام وعقائده •

وقد أشرنا الى التطبيق العملي لهذا المعنى من قبل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، في كتابه القيّم (العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر) ، حـــين تصدّى للمادية الجدلية (فلســـفة الشيوعية) وللأساس الـــذي أقيمت عليه فلسفة المادية الجدلية ، تعريفاً بأصولها الفلسفية وقوانينها ونقداً علمياً لأصول هذه الفلسفة ومبادئها ، بما يؤدي الى تهافتها ونقض أوهامها •

الله والكون والانسان
في الفكــر الاســـلامي
صفات الله تعالى

يذكر علماء العقيدة الاسلامية أن لله عز وجل عشرين صفة هي :

ــ الوجود ــ الوحدانية ــ القــدم ــ البقاء ــ قيامــه تعالى بنفســه ــ المخالفة للحوادث ــ العلم ــ الارادة ــ القــدرة ــ الســمع ــ البصــر ــ الكلام ــ الحياة ٠

كونه : ــ حيّاً ــ عليماً ــ مريداً ــ قادراً ــ سميعاً ــ بصيرا ــ متكلما٠

ويذكرون أن لله صفات أخرى غــير هذه الصفات كالرحمــة والعدل ، ولكن هذه الصفات العشرين الآنفــة الذكر هي التي يجب على كل مكلف أن يعلمها علماً تفصيلياً ، ويقيم عليها البرهان ، كل على حسب طاقته ٠

قال الامام السنوسي رحمه الله :

ويجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف ما يجب في حق مولانا عز وجل ، وما يستحيل وما يجوز ، وكذلك يجــب عليــه إذ يعــرف مثل ذلك في حــق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فمما يجب لمولانا عز وجل عشرون صفة وهي : الوجود ٠٠٠٠٠، ثم سرد الصفات العشرين مع شرح موجز لها[1] ٠

وقد درج العلماء على تقسيم هذه الصفات الى أربعة أقسام :

١ ــ صفات نفسية :

وهي ــ الوجود ــ وسميت نفسية لأنها تدل عــلى الذات دون شــيء زائد عليها ٠

---

(١) حاشية السنوسية الامام ابراهيم البيجوري : ص ١٢ فما بعدها ٠

٢ ــ **صفات سلبية :**

وهي ما كان مدلولها سلب صفة لا تليق به سبحانه وتعالى وهــي خمس ــ الوحدانية ــ القدم ــ البقاء ــ المخالفة للحوادث ــ قيامه تعالى بنفسه •

٣ ــ **صفات المعاني :**

والمراد بها كل صفة قائمة بذاته سبحانه تستلزم له حكماً معيناً ••فمثلاً ، القــدرة صــفة معنى لأنهــا تستلزم حكماً معيناً ، (وهــو كونه قــادراً) ، وهكذا[٢] •

وصفات المعاني سبع وهي :

ــ القدرة ــ الارادة ــ العلم ــ الحياة ــ السمع البصر ــ الكلام •

٤ ــ **الصفات المعنويــة :**

هي الأحكام التي تترتب على اتصافه بصفات المعاني ، وهــذه الصفات سبع ، كما أن صفات المعاني سبع ، لأنها مترتبة عليها وهي :

ــ كونه عالماً ــ قادراً ــ مريداً ــ حيّاً ــ سميعاً ــ بصيرا ــ متكلماً •

ونحن فيما يلي نتحدث عن صفات الله تعالى على وفق هذا التقسيم •

أولا ــ الصفة النفسية : الوجود :

آ ــ معنى الوجود :

لقد بيّنا آنفاً أن المراد بالصفة النفسية الصفة الثبوتية التي يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها ، ككــون الجوهر جوهراً وكونه شــيئاً موجوداً •

والصفة النفسية صفة واحدة كما أسلفنا ، وهي « الوجود » •

هذا ولا بد من بيــان أن الوجود ينقسم الى قســمين : وجود ذاتــي ، ووجود تبعي •

---

(٢) حاشية الباجوري على الجوهرة : (٣٨) •

فالوجود الذاتـــي :

ما كان المتصف بـــه (غـــير مفتقـــر) في الاتّصاف بـــه الى علّة تؤثر فيه الوجود •

والوجود التبعي :

ما كان المتّصف به (مفتقراً) في الاتصاف الى علة تؤثر فيـــه الوجود • ووجود الله تعالى من القسم الذاتي ، أي أنـــه سبحانه لا يفتقـــر الى علة تؤثر فيه الوجود وهذا الوجود هو الوجود الكامل ، وهو لا يكون إلا لله وحـــده سبحانه ، وأما ما عداه فوجوده في القسم التبعي ، فما من موجـــود غـــير الله تعالى إلا وهناك علة لوجوده ، ويفتقر في وجوده إلى شيء آخر •

ب ـــ أدلة وجوده سبحانه :

الايمان بوجود الله عز وجل أساس مسائل العقيدة كلها ومنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل بها ثم الايمان بها •

إن ما تراه من حقائق الكون كلها إنما هو فيض من حقيقة واحدة كبرى ألا وهي ذات الله عز وجل ، ومن المحال أن تـــدرك ماهيـــة الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك أصلها ومنبعها الأول ، فكـــان لا بـــد ـــ إذن ـــ لكي تستطيع التعرف على الكون من التعرف على خالقه أولاً •

ولما للايمان بوجود الله من الأهمية ـــ كما أسلفنا ـــ عني العلماء باقامـــة الأدلة المتنوعة ، والبراهين القاطعة على ذلك ، فأتوا من الأدلة على ذلك بقـــدر المستطاع • ونحن فيما يلي نذكر بعض هذه الأدلة •

١ ـــ الدليل الاول ـــ دليل الفطرة والبداهة :

آ ـــ الايمان بالله فطـــرة :

الايمان بوجود الله ، والاعتقاد بـــه ربّاً خالقاً لهـــذا الكون ومدبّراً له ومتصرفاً فيه ، هو فطرة عند معظم الناس ، لا يحتاج الى إقامة برهان عليـــه ، كما لا يحتاج الى برهان على وجود الغرائز الانسانية •

بل هو شعور في أعماق الانسان إذا تأمل في نفسه وفي الكون حوله ، إنه ليشعر شعوراً أكيداً بوجود سلطة كبرى تهيمن على هـذا الكون تمنحه التنظيم ، وتتصرف فيه بالحياة والموت ، والبناء والفناء ، والتغيير والتطوير والحركة والسكون ، وجميع أنواع التغييرات الحكيمة فيه .

والشعور الفطري في الانسان بوجود هذه السلطة الكبرى هو من أقوى الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه .

إن الأم لتشعر بعاطفة الأمومة ، دون أن تتطلب البرهان على وجودها ، وسواء أعلمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية (حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه) ، أم لم تعلم .

وإننا لنشعر بوجود روح فينا فندافع عنها ، ونحرص على بقائها ، دون أن نحسّ بها باحدى حواسنا الظاهرة ، وقد لا يستطيع الكثير من الناس أن يقيم البرهان على وجودها ، وعلى الرغم من ذلك فهو يشعر بها ويعتقد بوجودها .

ثم ألسنا نشعر في قرارة نفوسنا بالعواطف والوجدانيات ، كالحب والبغض والرغبة والكراهية ؟

فما الدليل على وجودها فينا ، وهي متغلغلة في داخلنا ؟ هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها ، وهي حق لا شك فيه ؟

إن إحساس الانسان وشعوره بوجوده الخالق ، وتلهّفه دائماً لمعونته وإمداده ، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير الى قدرته وعلمه وحكمته ، هو إحساس فطري صادق ، وهو من أكبر الأدلة على وجوده سبحانه .

إنه إحساس ليس خاصاً بفرد من الناس ، بل هو إحساس وشعور تشترك فيه جميع الخلائق المدركة ، على اختلاف نزعاتها ومستويات ثقافتها ، تجد ذلك في البيئات البدائية، وفي المدن المتحضرة، وفي قاعات العلوم والفنون والمختبرات .

إنه شعور مشترك بين جميع الناس ، يقوم في نفس الطفل الصغير ، والانسان البدائي، والانسان المتحضر والجاهل والعالم والباحث والفيلسوف، والمرأة في عقر دارها ، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك أن الله حق ، وأنه القابض على ناصية كل شيء . ألا يكفي ذلك دليلاً على وجوده ؟

هذا ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الدليل ــ دليل الفطرة ــ بقوله سبحانه :

● « قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم . »(١)

● « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(٢) .

ب ــ كمون الفطرة وتجلها عند الشدائد :

من المعلوم أن فطرية الايمان بالله لا تعني بالضرورة أن يكون الانسان متوجهاً الى الله دائماً ، متذكراً إياه في جميع حالاته وآنائه ، إذ رب عوامل تتسبّب في إخفاء هذا الإحساس في خبايا النفس وحناياها ، وأما عندما يرتفع ذلك الحجاب المانع من الفطرة ، اذا بالانسان يسمع نداء فطرته بوضوح، ومواجهة الانسان للمخاطر والشدائد ، من أبرز العوامل على إزالة ما حجب الفطرة عن الايمان بوجود الله ، والى هذا أشار القرآن بقوله :

● « هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين »(٣) .

---

(١) سورة ابراهيم : (١٠) .
(٢) الروم : (٣٠) .
(٣) يونس : (٢٢) .

جـ ـ انحراف الفطـرة :

غير أن انحراف الفطرة التـي فطـر الله الناس عليها ، قد يصيبها بعض الآفات والعاهات والصوارف ، فتشوهها وتخرجها عن طبيعتها ، كمـا يحدث ذلك في الحواس كالسمع والبصر فقد يلد المولود سليم الحواس والأعضاء ، إلا أنه قد يعترضه عارض يفقده سمعه أو بصره أو حسّه أو شيئاً من أعضائه .

والى هذه الحقيقة قصد رسول الله ﷺ بقوله :

● « ما من مولود يولد إلا يولـد عـلى الفطرة ، فأبـواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة ، بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟[1] ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه (راوي الحديث) : واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »».

فاذا انحرفت الفطرة وتشوّهت (بفعل المعاصي ـ واتبـاع الأهواء) ، كان لا بد من إقامة برهان بل براهين لتـدل عـلى وجود الله تعالى ، لتعـود الفطرة الى سلامتها وصحتها .

الدليل الثاني ـ بطلان الرجحان بلا مرجح « دليل الامكان » :

معنى الرجحان بلا مرجّح : أن يكون الشيء جارياً على نسـق معيّن ، ثم يتغـير عن نسقه ويتحول عنه بدون وجود أي مغـير أو محـوّل إطلاقا . وذلك (ككفتي الميزان المتساويتين) ، ترجـح أحدهما عـن الأخرى دون أي سبب من الأسباب، فهذا من الأمور الواضحة البطلان، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصـل (بقـاء ما كان على ما كان عليـه)، ولا بـد لتحويله عـن حاله السابقة من سبب محوّل ، ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد ، وينسخ عنه تلك الحالة القديمة .

إذا عرفت هذا فلنطبق هذا البرهان على مسألة وجود الله عز وجل .

---

(١) رواه البخاري (عن أبي هريرة) ، والبهيمة الجمعاء : مجتمعة الاعضاء ، لم يذهب مـن بدنهـا شيء .

إن جميع الأمور والأشكال المفروضة في الذهن ، لا تعدو أن تكون متصفة باحدى أوصاف ثلاثة :

● الوجوب ــ الاستحالة ــ الإمكان « الجواز » .

● فما اتصف بالوجوب ما يحيل العقل عدمه ، وما اتصف بالاستحالة هو ما يحيل العقل وجوده ، وما اتصف بالإمكان فهو ، ما لا يحيل العقل وجوده ولا عدمه .

وهذا الكون الذي نراه في جملته إنما هو من نوع الممكن **أي أن العقل يجزم بأنه لايترتب أي محال على فرض انعدامه** ، ويرى أن من الممكن أن توجد أسباب تعدمه من أصله دون أن يستلزم ذلك محالاً لا يقبله العقل ، إذن ــ موجود الكون بحدّ ذاته ليس ضروريا وكل ما كان هذا شأنه فلا بد له من مؤثر خارجي يرجح فيه أحد جانبي الإمكان (الوجود ــ أو العدم) ويبعد عنه الجانب الآخر ، وهذا يعني **أنه لابد لهذا الكون** الذي كان في أصله قابلاً لكل من الوجود والعدم على حدّ سواء ، **لابد له من قوة خارجة عنه مؤثرة فيه خصصته لجانب الوجود** (رجحت وجوده) ، **وتلك القوة هي قوة الله تعالى** .

فاذا ثبت لدينا أن هذا الكون العظيم لا بد من مرجح رجح وجوده على عدمه ، وان هذا الكون قد وجد في أبدع طراز وأحسن نظام ، ثبت لدينا أن صانع الكون هو الخالق العظيم الواجب الوجود . ولقد أشار القرآن الكريم الى هذا الدليل في آي كثيرة فقال تعالى :

● « ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا .»[1]

وقال سبحانه :

● « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة ، من إله

---

(١) الفرقان : (٤٥) .

غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة،من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون» •
وقال تعالى :

● « نحن خلقناكم فلو لا تصدقون • أفرأيتم ما تمنون • أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون • نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين • على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون • ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون • أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء جعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون • أفرأيتم الماء الذي تشربون • أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون • أفرأيتم النار التي تورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون • نحن جعلناها تذكرة • ومتاعاً للمقوين • فسبح باسم ربك العظيم • »[٢]

الدليل الثالث ــ بطلان التسلسل :

بعد أن قدمنا دليل (بطلان الرجحان بلا مرجح) ، لو أن إنسانا كابر وقال : أنا أفرض أن العالم قديم في وجوده هذا، فهو لا أول له، (ولا سبق للعدم فيه)، فما هو الدليل على وجود الله ؟•هنا لا بد من الانتقال الى حقيقة أخرى وهي بطلان التسلسل •

إن هذا القائل يدعي أن هذا العالم مستمر بحكم التوالد الذاتي الذي لا أول له ، وهذا الادعاء يستلزم إمكان التسلسل ، وقد قرر العقلاء كلهم بحكم البداهة أن التسلسل محال فتبين بذلك استحالة الادعاء الذي أدى إليه •

ومعنى التسلسل : أن يفرض أن المخلوقات متوالدة بعضها عن بعض الى ما لا نهاية ، بحيث يكون كل واحد (معلولاً) لما قبله،و (علة) لما بعده،

(٢) الواقعة : (٥٨ ــ ٧٤) •

دون أن تتصل هذه السلسلة أخيراً بعلة واجبة الوجود ، (هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات) .

إن هذا الغرض باطل بحكم العقل باستحالته بالضرورة ، إذ أن سلسلة المخلوقات الممكنة مهما طالت وطالت ، فان استمرار طولها لا يخرجها على كل حال عن كونها ممكنة ، والممكنات لا بد لرجحان أحد طرفي الإمكان فيها (الوجود — أو العدم) من مرجّح كما قلنا .

فهذه السلسلة الطويلة التي تقول : إنها ماضية في غور سحيق لا تنتهي مكونة من حلقات ، كل منها لم يكن يوجد لولا أن الحلقة السابقة عليها أعطتها الحياة والوجود . وتلك التي أعطتها الحياة كذلك ، إذن — فحلقات السلسلة لا تأثير ذاتي في واحدة منها مهما طالت ، وإذن فلكي نصدق أنها موجودة لا بد أن ننتظر ظهور المؤثر الخارجي الذي أمد السلسلة بالحياة التي راحت بدورها تنتقل من حلقة الى حلقة ، وإلا كان لا بد من الجزم بأحد أمرين :

- إما أن السلسلة مفقودة (إذ لم يثبت وجود ذلك الذي قذف فيها الحياة) .
- وإما أنها موجودة ، ولكنها تنبع أخيراً من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها . ولا تتأثر هي الشيء فأما الأول فظاهر البطلان ، لأن الحس والمشاهدة يكذبانه ، **والعالم موجود** ، وتوالد العلل أمر مرئي ومحس . بقي الأمر الثاني ، وهو تيقن أنه **لابد من مصدر ذاتي ، وهبه الحياة والقدرة على الحركة والتطور والتوالد** ، فبطل التسلسل المذكور .

ان أي عاقل يدرك أن تسلسل العلل (التي تكتسب القدرة على العلية) من العلّة التي قبلها ، مثل تسلسل الأصفار ، ولذا فان أي عاقل لا يستطيع أن يزعم أن وجود العالم كله ليس قائماً إلا على سلسلة متوالدة من غيرها ، دون أن يكون قبلها مؤثر ذاتي خارج عن حقيقتها واجب الوجود .

الدليل الرابع — بطلان الدور :

معنى الدور الباطل : أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق (أو تكييف

معيّن له) على شيء آخر ، بينما يكون هذا الشيء الثاني متوقفاً وجوده (أو تكيفه) على الشيء الاول ، إذ أن كل واحد من الأمرين يتوقف وجوده على وجود الآخر ، فيترتب على ذلك عدم وجود واحد منهما ، وهذا الدور باطل لأنه يستدعي أن يكون الشيء متقدماً على نفسه ومتأخراً عنها في آن واحد وهذا محال مما يترتب فيه فهو محال .

ولقد وضح الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي استحالة الدور بمثال مادي فقال :

« مثال ذلك ما لو فرضنا أنكَ حاولت الانتساب الى كلية التربية فقيل لك : ان ذلك يتوقف على أن تكون موظفاً في سلك التدريس الرسمي ، ولما حاولت أن تدخل في سلك التدريس قيل لك ان ذلك متوقف على أن تكون متخرجاً من كلية التربية ، إن من البدهي أنك لن تستطيع أن تحقق لنفسك أي الغرضين مادام الأمر كذلك[1] .

وعلى هذا فلو ادعى مدّع أن العالم ، ولكن حدوثه لم يكن لشيء خارج عنه ، بل إنه تفاعل مع ذاته ، فهذا الكلام يقتضي أن يكون وجود العالم مبنياً على وجوده !! وهذا دور والدور مستحيل ، لأنه يقتضي تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها ، وهذا مستحيل ، مما يترتب عليه فهو مستحيل فثبت أن وجود العالم حادث ، لا بد من أن يكون على شيء ذاتي خارج عنه .

---

(١) ينظر مبادىء العقيدة الاسلامية للدكتور مصطفى سعيد الخن : ص ١٠٢ .

(١) الدليل على حدوث الكون :

أولا — اذا شاهدنا الصور المادية للكون وجدناها تتغير من صورة الى اخرى ومن شكل الى آخر ، فدلّ تغير الصور على أن وجود الكون محصور في عدد من الصور المتغيرة ، ولنأخذ مثلا على ذلك — الصور المتغيرة للمادة المكونة للماء .

فالماء الذي تجده في الاناء أمامك ، قد نقل الى الإناء من البئر أو النهر او العين ، واذا تابعنا (ببساطة) تسلسل وروده لرأينا أنه جاء من المطر ، وقبل ذلك من السحب من بخار ماء البحار ، وتكونت البحار من غاز الاوكسجين والايدروجين ، المنفصلين مع الارض عند تكوينها وانفصلت الارض من الشمس ، وجاءت الشمس من السديم والعلم المادي المحدود يقف بالبشر عند هذا الحد .

وانت ترى أن لكل صورة من الصور السابقة نهاية ، انتهت بها الى صورة جديدة ، واذن كل صورة لا تثبت لا شك أنها (متغيرة) ، ولكل صورة متغيرة (بداية ونهاية) ، فلا شك أن لصورة السديم المتغيرة بداية ونهاية .

=

الدليل الخامس — دليل العلة الغائية :

هذا الدليل يسمى عند الأشعرية بدليل الحكمة ودليل نظام العالم،وذلك لأنهم لا يرون تعليل أفعال الله بالعلل الغائية المسماة بالأغراض ، وذلك لملاحظة سامية ، وهي أن تعليل أفعال الله بالعلل (والأغراض)، يوهم نقصاً في حقه تعالى ، فيستكمل بتحصيل تلك الأغراض ، ولذلك عدلوا عن التسمية بدليل العلة الغائية الى دليل الحكمة والنظام .

وخلاصة هذا الدليل أن هذا العالم من أصغر جزء فيه الى أكبر جرم

=

واذن — فقد أخطأت مزاعم الماديين (وجانبوا الحقيقة والصواب) **بدعواهم أن السديم أزلي أزلي قديم لا أول لبدايته !!**

ثانيا — اذا شاهدنا تركيب هذا السديم . وجدناه يتكون من ذرات مادية ، وقد عرف العلماء ان هذه الذرات مركبة من عدة جسيمات (الكترونات ، بروتونات ، نيوترونات) ، **ومن هذا التركيب تستنتج العقول أن هناك بداية لتكوين الذرة في الكون** ، وأن تكوين الذرة ليس أزليا ، انما الذرة مخلوق حادث .

واذن ليس هذا الكون أزليا بلا بداية . وقد دلت التجارب العملية أن كل ذرة تتألف من كائن مركزي يسمى النواة (بروتون) ، وتحيط به عدد من الجسيمات الخفيفة المكهربة تعرف بـ (الكترونات) ، ويختلف عدد هذه الكهارب ، كما يختلف وزن النواة أو عددها العنصري (باختلاف العنصر) . فنواة (الهليوم) جرمها العددي أربع أمثال جرم نواة (الهيدروجين) ، كما ان الالكترونات الخارجية في الهليوم اثنان ، أما في الهيدروجين فواحد .

ان ما نقيس فيه (رؤية علمية) من شيئية الاشياء ، وحدودها ، وأحيازها المجسمة والملموسة ، بل وكل مسموع ومذاق ومشموم ، فضلاً عن كل منظور ، فكل أولئك (مجرد أطياف — لايقاعات ذرية خفية ، تتداولها ثلاث قوى (السرعة ، والجذب ، والدفع) ، فتتراءى لنا (على هذا الاساس) ، وأطياف متجمدة ثابتة ذات شيئية وسطوح وأعماق وأبعاد ، أو ترى كسوائل وغازات، وبعبارة أخرى قل : ان المادة التي كانت (الى أواخر القرن التاسع عشر) خالدة لا تفنى (في بعض النظريات العلمية) ، قد أصبحت الآن (أي المادة) طيفا عابرا لطاقة ذرية خفية .

ان المادة بحقيقتها الموضوعية (كما تصورها النظرية الذرية — في مفهوم العلم الحديث) ، لا تعدو أن تكون حالة من حالات الطاقة الذرية التي تتداولها قوى (السرعة والجذب والدفع) ، وقل ان شئت حالة من حالات هذه القوى التي تحدثها الطاقة الذرية ، عن طريق تحول العناصر الى بعضها . فالمادة بهذا المفهوم العلمي ، ناشئة من (حركة — سرعة) الذرات النووية (تركيبا — وتحليلا) ، حيث تتكون وتنحل (أي المادة) بفعل الطاقة الى اشعاع ذري . هكذا تطالعنا النظرية الحديثة وتقيم لنا الدليل على حدوث هذا الكون وانتفاء أزليته .

ينظر كتاب عالمية الاسلام (للمؤلف) ص ٩٩ وما بعدها (والحاشية) .

فيه . إذا تأملته وجدت أنه قد وضع ليحقق غايـة معينة ، وهذا لا يمـكن أن يكون وليد المصادفة ، بل لا بد أن يكون وراء ذلك موجه لهذا الكون أتقـن صنعه وأحسن نظامه .

وتفصيل ذلك أنك لو نظرت الى بنـاء هذا الكون العجيب وهندسته ، رأيت في تراكيب أجزائه بعضها مع بعض، وتركيب أجزاء أجزائه، وفي تراكيب ذراته الدقيقة التي لا تتجزأ تطابقاً على أدق ماعين أن نتصور من معاني الدقة ، ورأيت الأجزاء الصغيرة فيـه مندفعة الى تحقيق غايات معينـة بالتآلف مـع الأجزاء الأخرى ، ورأيت بعد ذلك مجموع الأجزاء والجزئيات مندفعـة الى تحقيق غايات نوعيـة سامية ضمن ظروف وشـروط ، لو تخلّف بعض منهـا (قلّ أو كثر) ، لما تحققت تلك الغايات بل سرى الفساد الى جميعها .

ولو رحت تسرد وتصف مظاهر التنظيم والتناسق بـين شـتى المكونات التي تراها أمامك ، لضاق العمـر كله على استقصاء ذلـك وتجليته ، ولرأيت أنها تسير وفق نظام رتيب لا يتخلف ، وكلها يطوف حول غايات رائعة عجيبة، ينتهي معظمها (من قريب أو بعيد) الى خدمة الانسان ومصلحته .

تتأمل في الارض :

فتجد أن لها وزناً معيناً ، تميزها بمقدار من الجاذبية ، وتتأمل في هـذه الجاذبية فتجدها مقدّرة بالقدر الذي يقيم الانسان في حياة منتظمة عليها .

فلو زاد وزن الأرض ، لزادت جاذبيتها ، ولو زادت جاذبيتها لما استطاع الانسان أن يتنقل عليها ، والتصق بها فما عليك إلا أن يجرّ نفسه عليها جرّاً .

ولو قلّ وزن الأرض لقلت الجاذبية ، ولما أمكـن الانسان أن يسـتقر عليها كما يريد ، ويدلّك هذا بوضوح على أن للأرض غاية هي أن تكون قراراً وجهاداً للانسان ، يجد عليها مستقرّة الأمن .

وتتأمل في عينك الباصرة فتجدها في جملتها وتفصيلها قائمـة عـلى أدق قوانين الرؤية التي لا يزال يحار العلماء في فهمها ، ثم تنظـر فتجـد قوانـين

الضياء في الكون قد مهّدت لها وعبّدت لها الطريق من قبل فلا تشك في اجتماع هذه وتلك على غاية معينة ، هي أن ترى بهذين الثقبين العالم المرئي أجمع .

وتتأمل في رئتك فتجد أنها منسجمة مع نسبة تولد الحموضة في الجو ، حتى لو ازدادت أو نقصت لما تهيأ لك الشرط الكامل للحياة ، فلا تشك أن هذين المظهرين يلتقيان لتحقيق غاية متعلقة بتحقيق كامل لأسباب حياتك .

وتتأمل في ذاتك وما أودع فيها من القوى المدركة ، وأنت جزء من هذا الكون فتجد أنك قد أعطيت سلاحاً لا ينتهي العجب من شأنه ، ولا يقف عقل العالمين كلهم على حقيقته ، وتتأمل فنعلم أن لوجود هذه القوة غاية معينة هي أن تسخّر بها كل ما تراه حولك من مظاهر المكونات ، وأن تمتلك بها مقاليد الاستفادة منها ، وأن تسبر أغوارها وتصل الى جذورها وقوى الفاعلية فيها .

أليس من الاتقان البديع حركات القلب المنتظمة ، وعمل أعضاء الجسم بانتظام وانسجام ؟ أليس من الاتقان البديع هذه المجموعات الكبرى في عالم النبات ، سواء فيها أشجارها وزرعها ، ثيمارها وأزهارها وأوراقها وألوانها وأشكالها وروائحها وخواصها ؟

إنه كلما تقدم العلم وازدادت المعارف التجريبية ، تعرف الانسان على دقائق جديدة من اتقان الصنع في هذه الموجودات الكونية وازداد ايماناً بالصانع الحكيم .

هذا وقد ضرب الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي أمثلة تقرب هذا الدليل مع أنه غاية في الوضوح والظهور فقال :

١ — أفرض انك نظرت الى وعاء امامك ،

فوجدت فيه نثاراً من الآلات المختلفة الدقيقة ، ولما تأملتها جيداً ، بدأت تدرك صلة انسجام بين جزئيات هذه الآلات ، واكتشفت أن لكل واحدة منها

(مكاناً تركيبياً دقيقاً من الأخرى) ، فأخذت تجمع هذه الأجزاء الى بعضها وتؤلف بنيتها (وفق هذا التركيب المصممة على أساسه) ، وعندما فرغت من وضع آخر آلة منها في موضعها فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات التي انقلبت الى جهاز متكامل ، وتأملت فاذا هي ساعة زمنية ، تضبط سير الزمن وحركته • فما الذي تدركه عقد هذا كله ؟

إنك تدرك بدون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقة غاية جزئية معينة قد هيئت لتحقيقها ، وإن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي ضبط الزمن •

وتدرك مع هذا ــ بدون ريب أيضاً ــ أن هناك مدبّراً (مهندساً) وراء دفع هذه الآلات الدقيقة الى تحقيق هذه الغاية النوعية العظيمة •

٢ ــ افرض أنك دخلت أحد المطارات العالمية الضخمة ،

ومعك حقائبك التي شغلت بها كلتا يديك ، ولما دنوت من الباب الزجاجي المغلق ، فوجئت بكلا مصراعيه ينفتحان أمامك في حركة تلقائية مجردة • حتى إذا دخلت وتجاوزت عاد مغلقاً كما كان ، وبينما أنت تشكر هذه المصادفة العجيبة التلقائية ، ملتفتاً الى الباب في دهشة واستغراب ، إذا به ينفتح مرة أخرى في استقبال قادم آخر مثلك، وعندئذ وضعت حقائبك تتأمل، فرأيت أن المسألة تتكرر بانتظام كلما جاء قادم ودعت الحاجة •

ولما رحت تبحث عن حقيقة الأمر بدافع التطلع الفكري لديك ، أدركت أن الباب يرتكز على جهاز خفيّ من تحته ، سرعان ما يتأثر عند اجتياز شخص من فوقه، على نحو يدفع مصراعي الباب الى التجافي والانفتاح •

وينقدح في ذهنك بحكم البداهة ، لهذا الجهاز وحركته علّة غائية ، هي تسهيل المرور على المسافر الذي لا تساعده يده ــ لما يحمل معه من أمتعة ــ على دفع الباب ، ولما كانت هذه الغاية الانسانية الرائعة مما لا يمكن أن تسند الى الآلات الجامدة التي لا تحسّ ولا تعقل، فقد كان لا بد أن يكون هذا التصميم من تدبير بعض المفكرين •

فهذا المعنى الذي ظهر لك في هـذين المثالين ينطبـق على كـل الأمثلة المشابهة ، فما من مجموعة تركيبية تتناسـق في سبيل تحقيق غايـة ، تطّرد في تحقيقها ، إلا ومن وراء هذه الجملة عقل مدبّر •

فهذه الحقيقة البدهية التي يطلق عليها اسم « دليل العلة الغائية ، أو دليل الحكمة والنظام في الشيء ، هي أصل في مسألة الدليل على وجود الله ، يقـوم على علّة مؤثرة ثابتة بالاستقراء التام •»[1]

هذا ولقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الدليل أكثر من غـيره من الأدلة ، حتى أمكـن أن نسميه دليل القرآن ، وذلك لأن كثيراً من آياتـه طافح به ، فمـن ذلك قوله تعالى في سورة فاطر :

● « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » وفي السورة نفسها يقول سبحانه :

● « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومن كلٍّ تأكلون منه لحماً طرياً وتستخرجون منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه لتبتغـوا من فضله ولعلكم تشكرون ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ذلك الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير • »[2]

● « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون • وله الحمد في السموات والأرض وعشيّاً وحين تظهرون • يخرج الحـيّ من الميـت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون • ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون • ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياتـه خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضـله ان في

---

(١) ينظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : ص ٧٥—٧٦

(٢) ينظر سورة فاطر : الآيات (٩ — ٢٨) .

ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكم البـرق خوفاً وطمعاً وينـّزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعـوة من الأرض اذا أنتم تخرجون • وله من في السموات والأرض كلّ له قانتون •»[1] •

وقال تعالى في سورة النبأ :

● « ألم نجعـل الأرض مهـاداً والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجـاً ، وجعلنا نومكم سباتاً • وجعلنا الليل لباسـاً • وجعلنا النهـار معاشاً • وبنينا فوقكم سبعاً شداداً • وجعلنا سراجاً وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجاً • لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنات ألفافاً •»[2]

وقال تعالى في سورة عبس :

● « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبّاً • ثم شـققنا الأرض شقاً • فأنبتنا فيهـا حبّاً • وعنباً وقضباً • وزيتوناً ونخلاً • وحدائق غلبـاً • وفاكهة أباً متاعاً لكم ولأنعامكم • »[3]

وقال جلت قدرته في سورة النحل :

● « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون • خلق الانسان من نطفـة فاذا هو خصيم مبين • والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنهـا تأكلون • ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون • وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشـق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم • والخيـل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون • وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز ولو شاء لهداكم أجمعين • هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم بـه الـزرع والزيتون والنخيـل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيـات لقوم يتفكرون وسـخّر الليل

---

(١) سورة الروم : الآيات (١٧ — ٢٦) •
(٢) سورة النبأ : الآيات (٦ — ١٦)
(٣) عبس : (٢٤ — ٣٢)

والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون• وعلامات وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون • وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم • »[٤]

هذا الى كثير من الآيات التي تجلّي دليل العلة الغائية ، أو دليل الحكمة والنظام، والتي تجدها منبثة في كثير من السور القرآنية، سيّما السور المكية، حيث كانت الآيات القرآنية تعني أكثر ما تعني بتوضيح العقيدة الاسلامية وتثبيتها •

(٤) سورة النحل : الآيات (٣ ــ ١٨)

أقوال لبعض الفلاسفة والعلماء في وجود الله سبحانه

نذكر فيما يلي جملة من أقوال الفلاسفة والعلماء يعترفون فيها بوجود الله تعالى ، نذكر ذلك لا لنقيم البرهان على وجوده سبحانه ، ففيما مر ، وفيما ذكره العلماء المسلمون ما هو فوق الكفاية ، بل لنبيّن أن العقلاء من هؤلاء إذا تجردّوا عن الأهواء والنزعات ، وصلوا الى معرفة الحقيقة فآمنوا بها وأعلنوها • و أن العلم الحقيقي لا يبعد عن الايمان بالله تعالى ، بل هو سلّم طبيعي الى معرفة الله والايمان به ، إذا صعده العالم بروح التجرد وطلب الحقيقة ، فاذا أكمل الانسان صعوده في هذا السلّم انتهى الى الايمان بالله •[1]

---

(١) ما كان للعلم الصحيح أن يعاند الدين ، أو يتنكرّ له ، أو يحكم عليه (فيحكم على شيء ليس من مفهوم بحثه) ، ولا هو داخل ضمن دائرة نظرياته (التجريبية ــ الحسيّة) . وما كان للعلم الصحيح أن يخرج عن وظيفته (أو يخرج عن دائرة اختصاصه) وهي مجرد الاستقراء والملاحظة للظواهر الطبيعية ، ولا يتول بالنفي والاثبات لما يجهله من الحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية ، وانما يعتبر الدين (الاسلام) صديقا للعلم بما فيه من نصوص تبعث على طلب العلم والتمرّس به .

والاسلام ــ يهيب بالانسان أن يحرك مداركه وطاقاته ، ليمارس نشاطه العقلي ، في اكتشاف حقائق الكون ، مستدلا بالكون على المكوّن ، وكما تال تعالى :

● « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت ••) • ١٧ ــ ٢٠ سورة الغاشية .

● « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون • » البقرة / ١٦٤ .

والنتيجة المنطقية ــ انه لا خلاف في الجوهر والموضوع ، (في نظر العالم المحقّق والمتديّن المخلص ، بين الدين والعلم ، فكأن العلم بداية ومنطلق للدين ، والدين نهاية العلم الصحيح ، والخلاف بينهما (وهميّ) يكاد ينحصر في طبيعة المنهج والاسلوب .

=

وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم بقوله تعالى :

● « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » آل عمران : ١٨/

وها نحن نذكر أقوال هؤلاء بشيء من التصرّف في بعضها .

=

فأسلوب العلم في بحثه ، (حسّي — تجريبي) . يؤيده الدين (في الاصل) وبتميسه (في الواقع) ، ومنهج العلم يدعو الى المعرفة الصحيحة ، وتنتهي مهمته لدى تكوين النظرية العلمية .

أما المنهج الديني فانه دعوة (لا الى المعرفة الصحيحة فحسب) ولكنه دعوة الى الايمان والثقة بالله (واهب الحياة) والى اعلاء كلمته ، (فالعلم معرفة الحق بدليله) مؤداه كشف النظام الإلهي العام في الخلق والتدبير تمهيدا للانسجام مع مقتضاه ، بما يحقق سعادة الانسان والانسانية (بسلوك العمل الصالح — الذي يرضي الله سبحانه) .

الدين (كرسالة علمية تربوية) يستنفر كل طاقات الانسان لبناء الحياة الفاضلة (علما وعملا وأخلاقا) وهو عنصر قيادة عليا (يستشرف الانسانية — ويطلّ عليها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها) يربط بين أفكار الانسان وعواطفه ، بين علمه وعمله ، وينسّق فاعلياته وعلاقاته الفردية والاجتماعية، ويضمن للحياة سيرا طبيعيا نحو التطور والازدهار والتكامل .

الوحي الديني حقائق موضوعية ، ألقيت في روع واحد من البشر ، امتاز على غيره (بموهبة خاصة — واصطفاء الهي) والله أعلم حيث يجعل رسالته ، امتاز الرسول بسموّ مداركه ، ورقة احساسه ، وباستعداد خاص ، يجعل قلبه (جوهر كيانه الذاتي — منبع الرغبات — ومناطق السلوك الانساني) موصولا بالملأ الأعلى ، لتلقي وحي ربه المنزل ، لإرشاد الخلق — باذن الله — الى حكمته ورحمته وعدالته ، عن طريق الحس والعقل المؤيدين بالوحي . قال الله تعالى :

● « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزّله على قلبك باذن الله .. » البقرة / ٩٧ .

● « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » الشعراء : / ١٩٣ — ١٩٤ .

وقد أيّد الله الوحي والرسالة ، بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي ، حتى يذعن الفكر، ويستسلم العقل البشري لوحي الله ، بلا مناقشة ، كما قال تعالى :

● « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا » الاحزاب (٣٥) .

وعلى هذا الاساس (أي — تأييد الوحي بالمعجزات) ، نقول أن الوحي موصوف بالعصمة ، وبريء من ازدواجية القيادة ، فهو ضمان (لوحدة الرأي والهدف — لتآلف القلوب — لصيانة الحكمة وحراسة العدالة) وشمول الرحمة والسعادة للانسان والانسانية . وحين ينمو النشاط العلمي والبحث العلمي (في ظلال الوحي الإلهي) نستقطف من شجرة التعاون بين العلم والدين أشهى الثمرات . »

قال ديكارت : (الفيلسوف الافرنسي) :

« أنا موجود ، فمن أوجدني ومن خلقني ؟ إنني لم أخلق نفسي ، فلا بدّ لي من خالق ، وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود ، وغير مفتقر الى من يوجده ، أو يحفظ عليه وجوده ، ولا بد أن يكون متّصفاً بكل صفات الكمال ، وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء» ينظر قصة الايمان الشيخ نديم الجسر : ص ١٢٧ .

وقال (روبرت موريس بيدج) ،

عالم الطبيعة ، وأول من اكتشف الرادار في العالم ، في مقالة تحت عنوان « اختبار شامل » :

وجدنا أناساً موهوبين يحدثوننا عن الغيب : يقولون إنهم رسل الله ، وما حدّثونا به قسمان :

١ ــ قسم يقولون فيه : ان لهذا الكون خالقاً واحداً يجب الايمان به .

٢ ــ وقسم يخبروننا به : عن بعض أمور الغيب التي ستحدث .

أما القسم الثاني فقد وقع كما أخبرونا به بعد مئات السنين ، وأيّدت الأيام وأثبت التاريخ صدق هذه النبوءات جميعاً ، وهي من الأشياء التي عجزت العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، فدلّ ذلك على صحة رسالتهم ، وصدق أخبارهم ، ووجب أن نصدقهم فيما أخبرونا به عن الله تعالى وصفاته ، وهو القسم الأول ، لأن عقولنا لا تمنع منه ، بل عندنا من الشعور الداخلي ما يثبته .

إن الايمان بوجود الله من الأمور الخاصة التي تنبعث من شعور الانسان وضميره ، وتنمو في دائرة خبرته الشخصية .

ويقول الدكتور بول كلارنس ايرسولد ، مدير قسم النظائر والطاقة الذرية ، بمعامل (اوك ريدج) وعضو الجمعية الطبيعية النووية بالولايات المتحدة الامريكية : « لا شك ان اتجاه الانسان وتطلّعه الى عقل أكبر من

عقله (غريزة المثل الأعلى لدى الانسان) ، وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع ، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون ، يعدّ في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم (هي قوة الله وتدبيره) • وقد لا يستطيع الانسان أن يسلّم بوجود الخالق (تسليماً تاماً) على أساس الأدلة العلمية وحدها ، ولكن نصل الى الايمان الكامل بالله ، عندما نمزج بين الأدلّة العلمية والأدلة الروحية ، أي عندما ندمج معلوماتنا مع احساسنا الداخلي والاستجابة الى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا •

ثانيا ــ الصفات السلبية :

وقد قدمنا أن الصفات السلبية هي خمس صنات : الوحدانية والقدم والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، وقيامه تعالى بنفسه ، وذكرنا أنها سميت صفات سلبية ، لأن مدلولها نفي (سلب) صفة لا تليق بجلاله سبحانه ، واليك بيان هذه الصفات •

الصفة الاولى ــ الوحدانية :

آ ــ معنى الوحدانية :

قبل أن نخوض في معنى الوحدانية يتعين علينا أن نبين المصطلحات التالية : الكلّ والكلي ، والجزء والجزئي ، والكم ، ثم نتحدث عن معنى الوحدانية

يقول علماء المنطق هذا من باب تقسيم الكلّي الى جزئياته ، وهذا من باب تقسيم الكل الى أجزائه ، فما معنى ذلك ؟

الكلّ هو ما تركّب من أجزاء ، وتقسيم الكل الى أجزائه هو أنه لا يصح فيه حمل المقسم على كل قسم من أقسامه ، وذلك كتقسيم الحصير الى خيط وقش ، فالخيط لا يصحّ أن يخبر عنه أنه حصير ، والقش كذلك أيضا ، فالخيط جزء ، والقش جزء ، وما تركب منهما هو الكلّ ، ومثل ذلك الطاولة بالنسبة الى أجزائها ، والدار بالنسبة الى غرفها ، والكتاب بالنسبة الى أوراقه وخيوطه وجلده وما الى ذلك •

وأما الكلّي فهو ما تركب من جزئيات ، وتقسيم الكلّي الى جزئياته هو ما يصح منه حمل المقسم على كل قسم من أقسامه ، وذلك بأن يكون الجزئي موضوعاً والكلّي محمولاً ، وذلك كتقسيم الجنس الى أنواعه ، وكتقسيم النوع الى أفراده .

مثال تقسيم الجنس الى أنواعه : تقسم الى فرس وطائر . فهذا يصح فيه أن تقول : الطائر حيوان والفرس حيوان .

ومثال تقسيم النوع الى أفراده ، تقسيم الانسان الى أحمد وخالد وعلي .. ألا ترى أنه يصح أن تقول : أحمد انسان ــ وخالد انسان ــ وعلي انسان وهكذا .

وأما الكم فقد ذكر في المواقف ثلاث خواص له :

الاولى : أنه يقبل القسمة ، والثانية وجود عادّ فمن يعده ، ومعنى العدّ أنك لو أسقطت منه أمثاله فني . الثالثة المساواة ومقابلاها أعني الزيادة والنقصان .

ثم إن كان بين أجزائه حدّ مشترك . فهو الكم المتصل ، وذلك كالخيط فان بين أجزائه حدّاً مشتركاً ، فهو نهاية لجزء وبداية لجزء ، وإلا فهو كم منفصل ، كالعدد ، وذلك كالعشرة فانك إن أشرت منها الى السادس مثلاً انتهى إليه الستّة ، وابتداء الأربعة الباقية من السابع لا من السادس ، فلم يكن ثمّة بينهما حدّ مشترك[1] .

إذا علمت هذا فاعلم أن معنى وحدانية الله أنه سبحانه واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، فهو سبحانه ليس بكلّي لأن الكلّي له جزئيات ، ولا كلّ ، لأن الكلّ مركب من أجزاء ، وليس بجزئي لأن ذلك يستدعي أن يكون له شركاء في معنى الكلّي ، ولا بجزء ، لأن ذلك يقتضي ألا

---

(1) ينظر كتاب مبادئ العقيدة الاسلامية للدكتور مصطفى سعيد الخن ص ١٢١

يكون هو الإله ، وليس سبحانه بكم متصّل ولا منفصل : وكذلك صفاته وأفعاله على ما يأتي :

واتصاف الله جلّ وعلا بالوحدانية يقتضي نفي الكموم الخمسة التالية :

أولاً ــ الكمّ المتصل بالذات : وهو أن يكون الله سبحانه مركباً من أجزاء ،و هذا نفي أن يكون كلاً .

ثانياً ــ الكمّ المنفصل عن الذات : وهو أن تكون ذات الإله متعددة ، وهذا نفي أن يكون الإله كلياً .

ثالثاً ــ الكمّ المتصل بالصفات : وذلك أن يكون له صفتان من نوع واحد كقدرتين مثلاً .

رابعاً ــ الكم المنفصل عن الصفات : : وذلك كأن يكون لأحد صفة مماثلة لصفة سبحانه وتعالى .

خامساً ــ الكم المنفصل بالأفعال : وذلك أن يكون لغير الله فعل مثل فعله سبحانه ، وهذه الكموم الخمسة منفية بصفة الوحدانية .

وأما الكمّ المتصل بالأفعال ، وذلك بأن يكون لله سبحانه وتعالى فعلان فهذا أمر جائز[1] .

ب ــ ادلة الوحدانية :

للبرهنة على اتصاف الله سبحانه وتعالى بالوحدانية نوعان من الأدلة القرآنية ــ الأدلة العقلية .

١ ــ الادلة القرآنية :

مبحث الوحدانية أشرف مباحث هذا الفن ، ولذلك سمي هذا العلم باسم مشتق منها فقيل « علم التوحيد »[2] ، ولعظم العناية به ، كثر التنبيه عليه

---

(١) ينظر حاشية الباجوري على الجوهرة : (٣٥ ــ ٣٦) . هذا واما اذا فسّرنا الكم المتصل بمشاركة غير الله له في فعل ، فهذا منتف في حقه ايضا .

(٢) علم التوحيد هو العلم الذي أنشىء لبيان هذه العقيدة واقامة البراهين اليقينية على صدقها وصحتها .

في الآيات الآتية فقد قال سبحانه وتعالى :

- « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » . البقرة :/١٦٣
- « الله لاإله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » البقرة/٢٥٥
- « قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .
- « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله،إذا لذهب كل إله بما خلق . ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » المؤنون : /٩١
- « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون » الأنبياء : / ٢١ — ٢٢
- « فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » الحج : ٣٥
- « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط ، إلا إله إلا هو العزيز الحكيم » آل عمران : / ١٨

والآيات القرآنية التي تدعو الى الايمان بإله واحد ، هي أكثر من أن يضمها هذا الكتاب ، وحسبك أن تعلم أنه قلما تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها دعوة صريحة أو ضمنيّة الى الايمان بالإله الواحد جلّ وعلا .

٢ — الادلة العقلية :

أولاً — أقام العلماء الدليل على أنه سبحانه ليس بكلّ (أي ليس مؤلفاً من أجزاء) ، فقالوا : إنه لو صح أنه سبحانه وتعالى كلّ مركب من أجزاء لاستلزم ذلك أن يكون عاجزاً محتاجاً الى غيره وللزم من ذلك أيضاً أن يكون مماثلاً للحوادث لأنه لو ماثل الحوادث كان حادثاً مثلها وسيأتي الحديث عن ذلك ، والى هذا أشار سبحانه بقوله :

● « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » • الشورى : ١١/

ثانياً ــ واستدلوا على أنه ليس بكلّي ببرهان ينقسم الى برهانين :

● « برهان التوارد » ● « برهان التمانع » ويضاف اليهما دليل ثالث هو دليل التفرّد بالكمال ، وسنوضح كل منهما فيما يلي :

برهان التوارد :

إنه لو تعدّد الإله ، كأن يكون هناك إلهان ، لما وجد شيء من العالم، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل ، لأنه موجود بالمشاهدة ، فما أدّى إليه وهو التعدّد محال • وإذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية ، وهو المطلوب •

وإنما لزم من التعدد كأن يكون هناك إلهان ، عدم وجود شيء من العالم لأنهما إما أن يتفقا وإما أن يختلفا ، فان اتفقا فلا جائز أن يوجدان معاً، لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، ولا جائز أن يواجداه مرتباً بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر ، لئلا يلزم تحصيل الحاصل وتحصيل الحاصل محال ، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض ، والآخر البعض الآخر للزوم عجزهما حينئذ ، لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سدّ على الآخر تعلق قدرته به ، فلا يقدر على مخالفته ، وهذا عجز ، وهذا البرهان إنما سمي برهان التوارد ، لما فيه من تواردهما على شيء •

برهان التمانع :

إنه لو تعدّد الإله ، كأن يكون هناك إلهان ، لما وجد شيء من العالم ، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل ، لأنه موجود بالمشاهدة ، فما أدّى إليه وهو التعدد محال ، وإذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية •

وإنما لزم من التعدد عدم وجود شيء من العالم ، لأنهما إما أن يتفقا وأن يختلفا فان اتفقا فقد مرّ الكلام عليه في برهان التوارد ، وان اختلفا بأن أراد أحدهما ايجاد العالم والآخر إعدامه ، فلا جائز أن ينفذ مرادهما لئلا

يلزم اجتماع الضدين ، ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر للزوم عجز من ينفذ مراده ، والآخر مثله ، لانعقاد المماثلة بينهما :

ويحكى عن ابن رشد أنه قال : إذا نفـذ أحدهما دون الآخر كان الذي نفذ مراده هـو الإله دون الآخـر ، وثم دليـل الوحدانية ، وانما سمّي هذا البرهان برهان التمانع لتمانعهما وتخالفهما .

والى هذا الدليل أشار القرآن بقوله تعالى :

● « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسـدتا ، فسبحان الله رب العرش عمـا يصفون » الأنبياء : / ٢١ — ٢٢

● « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا الى ذي العرش سبيلا » الاسراء : / ٤٢ — ٤٣

● ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كـل إله بما خـلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » المؤمنون : / ٩١

دليل التفـرد بالكمـال :

أورد هذا الدليل الامام الرازي ، وخلاصة هذا الدليل أننا نرى في هـذا العالم أن كل من يشرك إنساناً في عمله فهو ناقص بوجه ما: إما مالاً أو خبرة أو قـوة ، فاذا قسـنا الغائب على الشاهد كان القول بوجود إله آخر مع الله شريك له في الألوهيـة ممتنعا ، لأن الشركة دليل النقص ، والنقص لا يناسب كمال الله المطلق[1] .

جـ — توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية :

التوحيد قسمان : توحيد الربوبية ، وتوحيـد الألوهيـة ، ولا يكـون الانسان مؤمناً حقاً إلا إذا أقر بهما جميعاً ، وشمل بمقتضاهما .

أما توحيد الربوبية : فهو الاعتقاد بأن الله وحـده هو الخالـق للعالم ،

---

(١) ينظر فخر الدين الرازي للمرحوم محمد صالح الزركان : ٢٣٨) .

وهو وحده المتصرّف فيه بالرزق والإحياء والإماتة ، والشفاء والمرض ، وغير ذلك ، فليس لغير الله خلق في أي شيء من الأشياء :

● « الله خالق كل شيء هو الواحد القهار » الرعد : / ١٥

وأما توحيد الالوهية :

فهو إفراد الله تعالى وحـده بالعبادة ، والتوجّه إليه بالدعاء ، ولأن من تمام عقيدة التوحيد توحيد الألوهية (أي إفراد الخالق وحده بالعبادة) كـان شعار الدخول في الاسلام : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله »أي أقر وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله .

هذا ونحب أن نؤكـد هنا أن جميـع الرسالات السماوية كانت تدعو الى الايمان بإله واحد ، ليس مركّباً من أجزاء ، وليس له شـريك في الملك ، ولا يحتاج الى ناصـر أو مسـاعد ولا وزيـر ولا مشير وأنـه ليس بمولود وليس له ولد ولا زوجة ، وكل من يؤمـن بخـلاف ذلك فلا يمـتّ بأيّـة صلة الى أيّـة رسالة من الرسالات السماوية ، وإن ادّعى ذلك ، فالرسالات السماوية في ذلك واحدة متطابقة تمام التطابق . قال تعالى :

● « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنـه لا إلـه إلا أنا فاعبدون » . الأنبياء : / ٢٥

● « أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدّين القيّم ، ولكـن أكثر الناس لا يعلمون » يوسف : / ٣٩

● « ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » الزمر : / ٦٥ـ٦٦

● « ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » النساء : /١٣١

الصفة الثانية ــ القدم :

آ ــ معنى القدم :

يطلق القدم ويراد به طول المدة ، فيقال : هذا بناء قديم أي مضى عليه زمان طويل ، ويطلق القدم ويراد به القدم الذاتي (أي لا أول لوجوده)، وهذا هو المراد في حق الله تعالى والمعنى الاول مستحيل في حقه . فمعنى القدم في حق الله تعالى : عدم الأولية للوجود ، أو عدم افتتاح الوجود .

ب ــ أدلة القدم :

هناك دليلان على اتصاف الله تعالى سبحانه بصفة القدم ــ كغيرها من الصفات ــ دليل قرآني ، ودليل عقلي .

الدليل القرآني :

قوله سبحانه وتعالى : « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم[1] .

والدليل العقلي :

أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، إذ لا واسطة بينهما ، ولو كان حادثاً لافتقر الى محدث ، ولو افتقر الى محدث لافتقر محدثه الى محدث وهكذا ، (لانعقاد المماثلة بينهما)، فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما محال ، فما أدى اليه (وهو افتقاره لمحدث) محال ، فما أدى اليه وهو كونه حادثاً محال ، فما أدى اليه وهو عدم كونه قديماً ، وإذا استحال عدم كونه حادثاً ، ثبت ضده وهو كونه قديماً ، وهو المطلوب .

هذا وقد لوحظ أن صفة واجب الوجود تستلزم صفة القدم ، فكان من الممكن الاكتفاء بها عنها . وقد أورد الامام الباجوري هذا الاعتراض وأجاب عليه بقوله :

« فان قلت : ان وجوب الوجود يستلزم القدم بل والبقاء ، فذكرهما

---

(١) سورة الحديد : (٣)

بعده محضر تكرار • قلت : علماء هذا الفن لا يكتفون بدلالة الالتزام(٢) ، بل يصرحون بالعقائد ، لشدة خطر الجهل في هذا الفن •

هذا وقد عالج الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، صعوبة تصور العقل لمعنى القدم في ذات الله تعالى ، وعجزه عن ذلك ، مما دفع بعض السطحيين الى التساؤل : من الذي خلق الله ؟ فقال في معالجة ذلك :

« إن جميع مدارك الانسان إنما هو وليد تصوراته ، والتصورات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ الحواس الخمس ، وهذا يعني أن الانسان لا يعقل من المجردات إلا ما كان له مقاييس ونماذج حسّية في ذهنه ، فما لم يسبق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس ، فان من المحال بالنسبة اليه أن يتصوره ويدركه(٣) ، وقد قال تعالى :

● « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير • » الأنعام : / ١٠٢

ويشير الى هذا المعنى ، ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما معناه :

● « تفكروا في آيات الله ، ولا تفكروا في (ذات) الله ، فانكم لن تقدروا الله قدره • (أي أن الله لا تحيط به الفكرة) (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) •

وحديث الامام مسلم (الذي رواه أبو نعيم في حلية الأولياء) :

● « ما يزال الناس يتساءلون حتى يقال : من خلق الله ؟ فمن وجد من هذا شيئاً فليقل : آمنت بالله » •

---

(٢) دلالة الالتزام : هي أن يطرد ترابط بين شيئين بحيث عندما تتصور احدهما تتصور الآخر ، اللفظ المنبعث من شخص في الظلام أو من وراء حاجز على وجود كائن حي •

(٣) كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : (٩٤) •

الصفة الثالثة ـ البقـاء :

آ ـ معنـى البقـاء :

معنى البقاء كما قال الامام الباجوري ، عدم الآخريّة ، **وان شئت قلت** : عدم اختتام الوجود .

ب ـ ادلة صفة البقاء :

١ ـ دليل البقاء من القرآن الكريم ما مرّ من قوله تعالى :

● « هو الأول والآخـر والظاهـر والباطن وهو بكل شـيء عـليم » الحديد : / ٣

٢ ـ وأما الدليل العقلي في ذلك أنـه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم ، وقد ثبت أن الله جل وعلا موجود قديم لذاته ، **وما يثبت قدمه استحال عدمه .**

الصفة الرابعة ـ قيامه بالنفس :

ومعنى قيامـه بنفسه عدم افتقاره جلّ وعلا الى المحـل أي الذات التي يقوم بها ، وعدم افتقاره سبحانه الى المخصّص أي الموحد .

والدليل على عدم افتقاره الى المحل ، أنـه لو افتقـر الى محـل لكان صفته ، ولو كان صفته لم يتصف بصفات المعاني والمعنوية (التي ستأتي معنا) وهي واجبة القيام به تعالى ، للأدلة الدالة على ذلك ، والثاني باطـل ، تبطـل الاول ، فثبت عدم افتقاره الى محل وهو المطلوب .

والدليل على عدم افتقاره الى المخصص ، أنه لو افتقر الى مخصص لكان حادثاً ، وقد سبق البرهان على وجوب وجوده وقدمه سبحانه وتعالى .

الصفة الخامسة ـ المخالفة للحوادث :

آ ـ معنى المخالفة للحوادث :

عدم مماثلته لها في أيـة صـفة لها ، فالله سـبحانه وتعالى ليس بجـرم ولا عرض ، ولا كلّ ولا جزء ، فـلا يتحيّز بمكـان ، ولا يقـوم بغـيره ،

ولا يوصف سبحانه بكبر ولا صغر ، فهو مخالف سبحانه للحوادث من كـل وجـه •

ب ــ دليل مخالفته للحوادث :

١ ــ أما من القرآن الكريم فقوله سبحانه :

- « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » الشورى : / ١١
- « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

٢ ــ وأما الدليل العقلي : فهو أنه لـو لم يكـن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً لها ، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثاً ، إلا أنـه سبحانه ثبـت بالدليل القاطع (قدمه) ، فثبت أنه سبحانه مخالف للحوادث •

هذا وقد نص الامام الغزالي رحمه الله على أن من يقول إن الله جسـم ، نص على أنه كافر ، حيث قال في كتابه : **« الجام العوام عن علم الكلام »** :

« فان من خطر بباله أن الله جسم مركّب من أعضاء ، فهو عابـد صنم ، وان كل جسم فهو مخلوق ، وعبادة الصنم كفر ، لأنه مخلوق ، وكان مخلوقاً لأنه جسم، فمن عبد جسماً فهو كافر بإجماع والأئمة (السلف منهم والخلف)، سواء أكان الجسم كثيفاً كالجبال الصمّ الصلاب ، أو لطيفاً كالهـواء والمـاء وسواء كان مظلماً كالأرض أو مشرقاً كالشمس والقمر » •

هذا وقد نتج عن اتصافه سبحانه وتعالى بالمخالفة للحوادث (بحثان) هما من (أهم بحوث العقيدة الاسلامية) •

- « أحدهما البحث في الآيات المتشابهة »•
- « الثاني رؤية الله سبحانه ، واليك بيان ذلك :

الاول ــ الايات المتشابهة وموقف العلماء منها :

وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تفيد بظاهر ألفاظها ثبـوت بعض صفات لله تعالى هي في الحقيقة من صفات البشر ، وذلك مثل قول سبحانه :

- « يد الله فوق أيديهم » •
- « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » •
- « الرحمن على العرش استوى » •
- « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشــاء » •
- « وما قدروا الله حــق قــدره والأرض جميعاً قبضته يــوم القيامــة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » •

ولقد ورد مثل ذلك في الأحاديث الصحيحة، كقوله عليه الصلاة والسلام:

- « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » أخرجه البخاري في الدعوات ومنه ما رواه أنس قال :

- « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك » ، فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينــا ؟ فقال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء » أخرجه الترمذي برقم (٢١٤١) •

الى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي جاءت فيها صفات تدل بظاهرها على أنها من صفات البشر •

ولقد وقف العلماء حيال هذه الآيات القرآنية ــ التي هي من المتشابه ــ وقفوا موقفين وذهبوا الى مذهبين ، بعد أن اتفقوا جميعاً على تنزيــه الله عــز وجل عما لا يليق به •

أحدهما : وهو مذهب الخلف ، وهــم من كانــوا بعــد الخمسمائة أو الثلاثمائة ، ذهب هؤلاء الى تأويــل هذه النصوص ، وإخراجها عن معانيها الى معان تليق بالله عز وجل،فيكون استعمالها في المعاني التي استعملت فيها في حق الله عز وجل (من قبيل المجاز) ، ففسروا مثلاً اليد بالقدرة والنزول بمعنــى ملائكته ، والمجيء بمعنى مجيء ملائكته •

المذهب الثاني : مذهب السلف ، وهم من كانوا قبل الخمسمائة ، وقيل : هم القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين ، الذين جاء وصف قرونهم بالخيريّة ، في قوله عليه الصلاة والسلام :

● « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » أخرجه البخاري في الشهادات •

ذهب هؤلاء السلف مذهب التفويض فقالوا : إن علينا أن نصف الله سبحانه بما وصف به نفسه من غير تأويل ، بل نكل ذلك الى علم الله سبحانه بما وصف به نفسه ، ونسلّم بذلك تسليماً •

ولقد سئل الامام مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى » فقال بعد أن أطرق ملياً : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » •

ولقد اختلف العلماء في أي المذهبين أرجح ، فرجّح بعضهم مذهب الخلف وقال : مذهب الخلف قريب من الحكمة (من حيث تقريب الوجود الإلهي للأفهام) •

وذهب قوم الى ترجيح مذهب السلف ، فهو (أسلم عاقبة) لما فيه من تفويض بيان المعنى الحقيقي الى علم الله سبحانه ، ونحن حسبنا أن نقول : إن الله منزّه عن أن يتّصف بصفة عما يتصف به البشر ، على المعنى الذي يتصف به البشر •

وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته (في طريقة السلف) :

« هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ، ورأيهم خير من رأينا لأنفسنا »[1] •

هذا ولقد ذكر الباجوري أن مردّ الخلاف بين السلف والخلف ، هو الخلاف في الوقف في الآية الكريمة :

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية : (٤/١٥٧-١٥٨) .

● « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هـن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا بـه كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب » آل عمران : ٧/

فمنهم من يرى الوقف على قوله تعالى (والراسخون في العلم) فجملة يقولون مستأنفة ، فيكون الراسخون معطوفاً على لفظ الجلالة ، وعلى هـذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه .

ومنهم من يرى الوقف على لفظ الجلالة (وما يعلم تأويله إلا الله) ، وجملة والراسخون مستأنفة وعلى هذا فيقتصر معرفة المتشابه والعلم به على الله سبحانه ، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون به ويعوضون أمر علمه الى الله سبحانه » .

وروى البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : نزل القرآن على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال .

وهذا الحديث يشير الى ترجيح مذهب السلف ، لما فيه من تفويض المعنى الحقيقي الى علم الله سبحانه . ولا بأس في مذهب الخلف من حيث تقريب الوجود الإلهي للأفهام . ويلتقي الطرفان على تنزيه الله سبحانه عن أن يتّصف بصفة مما يتصف به البشر ، كما هو منطرق الآية الكريمة :

● « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »(٢) .

هذا ونختم هذه المسألة بحوار جرى بين الزمخشري والغزالي حول قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » ذكر ذلك الامام الباجوري في حاشية الجوهرة فقال :

---

(٢) سورة الشورى : / ١١

سأل الزمخشري عن هذه الآية فأجابه بقوله : اذا استحال أن تعرف نفسك (روحك) بكيفيّة أو أينيّة ، فكيف يليق بعبوديّتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف ، وهو مقدس عن ذلك ، ثم جعل يقول : (أي الغزالي)

قل لمن يفهم عني ما اقول — قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه — قصرت والله أعناق الفحول
انت لا تعرف اياك ولا — تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت — فيك حارت في خفاياها العقول
اين منك الروح في جوهرها — هل ثراها فترى كيف تجول
وكذا الانفاس هل تحصرها — لا ولا تدري متى عنك تزول
اين منك العقل والفهم اذا — غلب النوم فقل لي ياجهول
فاذا كانت طواياك التي — بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى — لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى الرب أم كيف يرى — فلعمري ليس ذا الا فضول
فهو لا اين ولا كيف له — وهو رب الكيف والكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له — وهو في كل النواحي لا يزول
جل ذاتا وصفات وسما — وتعالى قدرة عما تقول

الثاني ــ رؤية الله سبحانه :

آ ــ امكان الرؤية :

بحث الباحثون هل بالإمكان رؤية الله تعالى ؟ أو ليس بالممكن ذلك ، وانقسموا في ذلك الى الفريقين :

الفريق الاول : وهم المعتزلة يرون أنه ليس من الممكن رؤيته تعالى ، لأنه لو كان سبحانه وتعالى مرئياً لكان مقابلاً للرائي بالضرورة ، فيكون في جهة وحيز ، والله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك واحتجوا على نفي الرؤية أيضا بقوله تعالى ، مخاطباً سيدنا موسى : « لن تراني » قالوا : إن « لن » هنا تفيد التأبيد ، فاذا كان الله سبحانه قد نفى الرؤية في حق موسى على وجه التأبيد، كان غيره ممنوعاً من الرؤية من باب أولى •

الفريق الثاني : وهـم الأشعرية والماتريدية ذهبوا الى أن رؤية الله من الممكنات ، واستدلّوا على الإمكان بقصة موسى إذ قال :

● « ربّ أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني » .

ووجه الاستدلال بهذه الآية (على الإمكان) من وجهين :

الوجه الأول : أن موسى عليه السلام سأل ربّه أن يراه ، فلو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها موسى عليه السلام ، وإلا كان جاهلاً بربّه وعاصياً له ، والجهل والعصيان على الأنبياء محالان ، فثبت أنه ليس بمستحيل بل هو ممكن وهذا هو المطلوب .

الوجه الثاني : أن الله تعالى قد علّق الرؤية على أمر ممكن ، وهو استقرار الجبل في مكانه ، والمعلق على الممكن ممكن ، فالرؤية ممكنة .

وأجابوا عن دليل المعتزلة الأول بقولهم: إن قولكم لكان مقابلاً بالضرورة ممنوع فلزوم الجهة والحيّز ممنوع ، إذ الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه ولا يشترط فيها مقابلة المرئي ولا كونه في جهة وحيّز ولا غير ذلك .

وعن الآية القرآنية بأن « لن » هي لمطلق النفي ، ولا تفيد تأبيداً ولا تأكيداً .

ب ــ وقوع الرؤية :

لا شك أن القائلين باستحالة الرؤية قائلون بعدم وقوعها من باب أولى ، وأما القائلون بالإمكان والجواز فقد انقسموا الى قسمين :

● قسم ذهب الى عدم الوقوع وهم قلّة .

● وقسم ذهب الى وقوعه ، ولكن اختلفوا هل يقع في الدنيا والآخرة ، أو هو واقع في الآخرة فقط .

أما وقوعه في الدنيا فقد ذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم ابن عباس

رضي الله عنهما الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد رأى ربه ليلة المعراج بعيني رأسه ، وعزي هذا القول الى الامام أحمد رضي الله عنه •

وذهب فريق من العلماء وعلى رأسهم السيدة عائشة وعبد الله بن مسعود الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ير ربّه •

فقد جاء في صحيح البخاري عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربّه ؟ فقالت : قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » •« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » • ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت « وما تدري نفس ماذا تكسب غداً » • ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، ثم قرأت : « يا أيها النبي بلّغ ما أنزل اليك من ربك ••• الآية ، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين » •

وقد ذكر ابن حجر في (فتح الباري) أن الشيء الذي يثبته هو رؤية القلب ، لا رؤية البصر ، فقد وردت عنه أحاديث فيها الرؤية مطلقة وأحاديث فيها الرؤية مقيدة برؤية الفؤاد ، فيحمل المطلق على المقيد •

والشيء الذي تنفيه السيدة عائشة هو رؤية البصر ، فقال رحمه الله بعد أن ساق الأحاديث المتنوعة في هذا الباب : « وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب •

وأما وقوع الرؤية في الآخرة فقد ثبت بالقرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع •

* أما القرآن الكريم : فقوله تعالى :

« وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » القيامة : /٢٣

وفعل النظر إذا عدي بـ (إلى) كان بمعنى الرؤية كما قال الشاعر :

نظرت الى من حسّن الله وجهه فيا نظرة كادت على وامق تقضي

وقوله تعالى : « كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون : المطفّفين : ١٥/

ذكر ذلك تحقيراً لهم ، فلزم أن يكون المؤمنون مبرئين من ذلك، فثبت في حقهم الرؤية، وقد قال الامام مالك رضي الله عنه : « لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعيّر الكافرون بالحجاب ، كما قال تعالى :

« كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه : « لما حجب قوماً بالسخط دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا ثم قال: أما والله ولو لم يوقن محمد بن ادريس بأنه يرى ربه في الميعاد لما عبده في الدنيا .

● وأما السنة الشريفة :

فما روي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

« كنا مع النبي ﷺ فنظر الى القمر ليلة — يعني البدر — فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : « وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وفي البخاري أيضاً « إن الناس قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فهل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال فانكم ترونه كذلك .

● وأما الاجماع :

فقد كان الصحابة رضي الله عنهم مجمعين على وقوع الرؤية في الآخرة ،

---

(١) ينظر تحفة المريد : (٦٧) .

(٢) المواقف : (٣٠٢) .

هذا وإذا كان الوقوع أقوى أدلة الإمكان ، كما هي القاعدة ، كان من الواجب علينا أن نعدّ هذه الأدلة أدلّة على الإمكان أيضا ، ولهذا قال صاحب المواقف: « كل ما سنتلوه عليك مما يدل على وقوع الرؤية فهو دليل على جوازها » •

ثالثا ــ صفات المعاني :

آ ــ عددهـــا :

صفات المعاني سبع ، وهي : الحياة ــ العـلم ــ الارادة ــ القـدرة ــ السمع ــ البصر ــ الكلام •

ب ــ تعريفهـــا :

هي كل صفة أزلية قائمـة بذاتـه تعـالى ، موجبة لـه حكماً ، وذلك كالقدرة مثلاً ، فانها صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، توجب له أن يكون قادرا •

ج ــ تعريف هذه الصفات وأدلتها :

الصفة الاولى ــ الحياة :

وتعريف الحياة ، هي صفة أزلية تقتضي الاتصاف بالعلم •

● دليلها من القرآن الكريم ، قوله تعـالى : « الله لا إله إلا هـو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » •

فاتصافه سبحانه بأنه حيّ نتيجة لثبوت صفة الحياة له •

ودليلها من العقل : إن الله متصف بالعـلم والقـدرة والارادة ، وكل من كان كذلك ، وجبت له الحياة فالله سبحانه تجب له الحياة •

الصفة الثانية ــ العلم :

هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بجميـع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطة على ما هي عليه ، من غير سبق خفاء •

فبعلم الله عز وجل الأشياء أزلاً على ما هي عليـه ، وكونها وجـدت في الماضي أو موجودة في الحال أو توجد في المستقبل ، فهو يعلم الأشياء إجمالاً

وتفصيلاً ، ويعلم الكليات والجزئيات دليلها من القرآن الكريم : آيات كثيرة. منها قوله تعالى :

● « إن الله بكل شيء عليم » • وقوله تعالى :

● « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير • » فاطر : / ١١

● « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » • البقرة : / ٢٥٥

● « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » • الأنعام : / ٥٩

وأما الدليل العقلي : على علمه سبحانه فهو ، أن فعله سبحانه متقن ، وكل من فعله متقن وهو مختار فهو عالم •

أما الدليل على فعله متقن فظاهر لمن نظر في الآفاق والأنفس ، وتأمل في ارتباط العلويّات بالسفليات ، سيّما في الحيوانات وما هديت اليه من مصالحها ، وأعطيت من الآلات المناسبة لها ، ويعين على ذلك علم التشريح ، ومنافع خلقة الانسان وأعضائه التي ألّفت فيها المجلّدات •

وأما الدليل على أن فعله متقن وهو مختار فهو عالم ، فهو أن من رأى خطّاً حسناً يتضمن ألفاظاً عذبة رشيقة تدل على معاني رقيقة مؤنقّة ، علم بالضرورة أن كاتبه عالم ، وكذلك من سمع خطاباً منتظماً مناسباً للمقام من شخص ، يضطر أن يجزم بأنه عالم •

الصفة الثالثة ـ الارادة :

تعريفها : **هي صفة قديمة زائدة على الذات قائمة به تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه •**

وما يجوز عليه هو الممكنات الست المتقابلات ، وهي :

١ ــ الوجود : ويقابله العدم ، وبالعكس .

٢ ــ الصفات : وبعضها يقابل البعض الآخر ، فكونه أبيض يقابل كونه أسود .

٣ ــ الأزمنة : فبعضها يقابل البعض الآخر،فكونه في زمن الطوفان يقابل كونه في زمن محمد عليه الصلاة والسلام .

٤ ــ الأمكنة : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونه في دمشق مثلاً ، يقابل كونه في مكان آخر غيرها .

٥ ــ الجهات : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونه في المشرق يقابل كونه في جهة المغرب .

٦ ــ المقادير : فبعضها يقابل بعضاً ، فكونه طويلاً يقابل كونه قصيراً .

وقد جمع بعضهم هذه الممكنات في بيتين فقال :

الممكنات المتقابلات	وجودنا والعدم الصفات
أزمنة أمكنة جهات	كذا المقادير روى الثقات

دليلها : أما دليلها من القرآن الكريم فقوله تعالى :

● « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » . المائدة : /٤١

● « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال » الرعد : /١١

● « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . » القصص : / ٥ ــ ٦

الى كثير من الآيات الكريمة التي تثبت لله سبحانه إرادة •

وأما الدليل العقلي فيتلخص في أن الله تعالى لو لم يكن موصوفاً بالارادة لا تصف بضد من أضدادها ، كالإكراه ، والسهو ، والآفة ، وهذا عليه محال ، فيجب الاتصاف بضده وهو الإرادة وأيضاً لو لم يكن متصفاً بالارادة للزم عليه ضدها وهو الإكراه ، والإكراه يستلزم مكرهاً • وذلك ينافي ما ثبت من أنه واجب الوجود وأنه إله •

هل الإرادة هي الأمر والرضا ؟

سوف يأتي معنا في متعلق الصفات أن الارادة تتعلق بالممكن على وفق ما سيوجد عليه في المستقبل ، سواء أكان ذلك خيراً أو شراً ، مأموراً به أو منتهياً عنه ، وهذا التعلق لا يقتضي شيئاً من القسر والجبر لأفعال العباد كما سيأتي •

وأما الأمر فهو طلب الفعل ، وأما الرضا فهو قبول الشيء ، والإثابة عليه ، وهذا لا يتعلقان إلا بالأمر المستحسن ، وبالشيء المحبوب ، ولا يتعلقان بالقبيح ولا بالمكروه، فيقال رضي الله لنا بالايمان وأمرنا به ، والطاعة والصلاح وأحب لنا ذلك ، وأمرنا به ، وكره لنا الكفر والفسوق والعصيان منا ولم يأمرنا به ، إلا أنه سبحانه قد أراده ممن وقع منه (إرادة نظام عام ـ ونتيجة متوقعة) •

وعلى هذا فالارادة شيء ، والأمر والرضى شيء آخر ، ومثل الرضا المحبة ، ومثل الارادة المشيئة • هذا وقد ذهبت المعتزلة الى القول بأن ارادة الله لا تتعلق بالشرور والقبائح ، وحكي أن القاضي عبد الجبار الهمذاني دخل على الصاحب بن عباد وعنده أبو اسحق الاسفرايني ، فلما رأى الأستاذ قال :

« سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الاستاذ : سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء » • فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يعصي ؟ فقال الاستاذ : أفيعصى ربنا كرها ، فقال عبد الجبار : أرأيت إن منعني الهدى ، وقضى علي

بالردى . أحسن إليّ أم أساء ؟ قال الاستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء[1] .

وقد تبين من ذلك أنه يجوز أن يقال : إن الله أراد وشاء خلق الشر ، وخلق الله الشر (كما يقال خلق الموت والحياة ـ ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً)، وإرادة الشر (من قبل مؤاخذة المسيء) لأن هذه من الممكنات .. وارادة الشر منطوية في النظام الإلهي العام في الخلق والتدبير ، مكافأة للمحسن أو مؤاخذة للمسيء[2] .

الصفة الرابعة ـ القدرة :

تعريفها : هي صفة أزلية قائمة بذاته ، يتأتّى بها ايجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة .

هذا ولا بد من التنبيه هنا على أن الارادة والقدرة لا علاقة لهما بالمستحيلات ولا بالواجبات لأن المستحيل لا يتصوّر في العقل وجوده ، والواجب لا يتصوّر في العقل عدمه ، وسنبين هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

دليلها : من القرآن الكريم ، آيات كثيرة منها قوله تعالى :

● « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم » . يس : / ٨١

● « أيحسب الانسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منيّ يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » القيامة : / ٣٦ ـ ٤٠

فاتصاف الله تعالى بأنه قادر يستدعي أن تكون له صفة القدرة .

---

(١) تحفة المريد : (٣٩) .

(٢) هذا ويجب أن نذكر دائما أن ارادة الله لا تشبه ارادة المخلوقين ، فارادة المخلوقين ارادة الانسان مثلا) تمر بمراحل : تصور الهدف ـ المناقشة ـ العزم والتصميم ـ ثم تأتي مرحلة التنفيذ ، اما ارادة الله ، فيحصل المراد بمجرد الارادة حالا كما قال تعالى : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . »

وأما دليلها العقلي ، فهو أن نقول : الله صانع قديم ، له مصنوع حادث ، وكل من كان كذلك تجب له القدرة .

الصفة الخامسة ــ السمع :

تعريفها : هي صفة أزلية قائمة بذاته ، تتعلق بالموجودات ، سواء أكانت أصواتا أو غيرها ، كالذوات ، وهذه طريقة السنوسي ، ويرى السّعد أنها تتعلق بالمسموعات .

قال الامام الباجوري : فيحتمل أن مراده بالمسموعات في حقنا وهي الأصوات فيكون مخالفاً لطريقة السنوسي ومن تبعه ، ويحتمل أن مراده بالمسموعات في حقه تعالى وهي الموجودات، الأصوات وغيرها ، فيكون موافقاً لطريقة السنوسي[1] .

ومما يجب التنبيه إليه أن سمعه سبحانه لا يفتقر الى حاسة ، ولا يحتاج الى واسطة كالهواء ، ولا الى شيء مما يحتاج إليه الانسان وغيره .

الصفة السادسة ــ البصر :

تعريفه : هو صفة أزلية قائمة بذاته تتعلق بالمبصرات أو الموجودات على ما سبق من الخلاف والدليل على اتصافه بالسمع والبصر دليل نقلي مقطوع به سواء أكان ذلك من الكتاب أو السنة .

قال الامام الباجوري : « ويجب الاعتقاد أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر وأن كلاً منهما غير الانكشاف بالعلم ، ولكل حقيقة يفوّض علمها لله تعالى .

وليس الأمر على ما نعهده من أن البصر يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم ، بل جميع صفاته تعالى تامة كاملة ، يستحيل عليه الخفاء والزيادة والنقص الى غير ذلك[2] .

---

(١) تحفة المريد : (٤٣)

(٢) المصدر السابق .

الصفة السابعة ــ الكلام :

تعريفه : هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، هو بها آمر وناهٍ ومخبر . عبّر عنها نظم ما أوحاه الى رسله كالقرآن والتوراة والانجيل والزبور ، وهي ليست بحرف ولا صوت وهي منزّهة عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء .

دليله : من القرآن الكريم : قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » النساء : / ١٦٤ . وقوله تعالى :

● « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه » التوبة : /٦

ودليله من السّنة : ما ثبت في الحديث الصحيح من أن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطبه ربّه ليلة المعراج ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، بعد أن فرضها عليه خمسين صلاة وما زال يراجعه حتى جعلها خمساً في العدد وخمسين في الأجر ، وفي هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فريضتي وخفّفت عن عبادي . أخرجه البخاري في باب المعراج .

رابعا ــ الصفات المعنوية :

الصفات المعنوية هي نتائج لصفات المعاني ، أي هي الاحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني ،فحينما ثبت له سبحانه صفة القدرة ، نتج عن ذلك كونه (قادراً) وهكذا .

والصفات المعنوية سبع هي : كونه سبحانه : ● حيّاً ● عليماً ● مريداً ● قادراً ● سميعاً ● بصيراً ● متكلماً ، وقد ثبت له سبحانه هذه الصفات بنص القرآن الكريم ، وقد مضت الآيات التي تدل على ذلك .

ب ــ متعلقات صفات المعاني والمعنوية :

هذه الصفات من حيث التعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات ، تنقسم الى أربعة أقسام :

القسم الاول :

ما يتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات جميعاً ، وهو كل من صفتي العلم والكلام أما صفة العلم فلأنها علـم ما يصلح للعلم على ما هو عليـه من وجوب واستحالة وجواز،ومن المحال أن لا يكون علمه سبحانه متناولاً لجميع الواجبات والممكنات والمستحيلات .

وأما صفة الكلام : فلأنها تتعلق بما أريد بيانه ، تعلق دلالة وبيان ، أوامر او نهي وقد احتوى كلامه سبحانه وتعالى الحديث عن الواجب كوجوب وجود ذاتـه سبحانه ، وعن المستحيل كشريك الباري واتخاذ الزوجة والولد ، وعن الجائز كخلق الانسان والشجر والدواب وسائر الممكنات .

القسم الثاني :

ما يتعلق بالممكنات فقط . وهو كل من صـفتي الارادة والقدرة ، وأما الواجب والمستحيل فلا تعلق لها من الصفتين بهما .

وذلك لما مرّ من أن كلاً من صفتي الارادة والقدرة إنما يتعلقان بالأشياء على وجه التخصيص والتأثير ، كالايجاد والإعدام وسـائر وجـوه الممكنات التي مرّ ذكرها ، والواجب لا يمكن إعدامـه والمستحيل لا يمكن ايجـاده ، وإلا لما كان الواجب واجباً والمستحيل مستحيلاً . ولو أمكن إعدام الواجب مع بقائه واجباً أو ايجاد المستحيل مع كونه منعدم الوجود ، لترتب على ذلـك اجتماع النقيضين في شيء واحد في آن واحد ، وهو معلوم الاستحالة عقلاً .

وعلى هذا إذا كان الشيء واجباً لا يسأل هل يقدر الله أن يعدمـه ، وإذا كان مستحيلا عقلاً لا يسأل هل يقدر الله أن يوجـده ، لأن الارادة والقدرة أصلاً لا تتوجهان لا الى الواجب ولا الى المستحيل بل الى الممكن فقط .

القسم الثالث :

ما يتعلق بالموجودات، وهو كل من صفتي السمع والبصر فهما لا يتعلقان بالمعلومات وإن كانت من الممكنات ، بل تتعلقان بالموجودات سـواء أكانـت من نوع الممكن أو الواجب .

القسم الرابع :

ما لا يتعلق بشيء وهو صفة الحياة ، فهي بالنسبة لله جل جلاله صفة قائمة بذاته ، لا تعلق لها بشيء سواه ، إذ ليس لها علاقة بالاشياء ، وانما هي معنى قائم بذات الله تعالى من شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات به عزّ وجل •

جـ ـ مسألة كلام الله وخلق القرآن :

لقد مرّ بنا أن صفة الكلام التي يثبتها أهل السنة والجماعة ، هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ولا تتصف بحرف ولا صوت ، ولا غير ذلك من صفات الكلام ، وبرهنّا فيما مضى من ثبوت هذه الصفة له سبحانه •

وتحقيق هذه الصفة أن الكلام في اللغة العربية يطلق بالاشتراك على معنيين:

احدهما : المعنى القائم بالنفس : الذي من شأنه أن يعبّر عنه بالألفاظ، وعلى هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة عندما اجتمعوا لاختيار خليفة لرسول الله ﷺ ، قال :

● « إني زورت في نفسي مقالة » أي هيّأت كلاماً ، وقول الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ثانيهما : الالفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس ، فتقول: هذا كلام فصيح وكلام واضح اذا علمت هذا فاعلم أن الله سبحانه قد ثبت له صفة الكلام باجماع الأمة الاسلامية ، وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أنه سبحانه وتعالى متكلم ، مع القطع باستحالة التكلّم من غير ثبوت كلام ، وهذا القدر من الإجماع لا خلاف فيه لأحد من المسلمين •

غير أن المعتزلة فسّروا هذا الذي أجمع المسلمون على إثباته لله تعالى. فسّروا بأنه أصوات وحروف يخلقها الله في غيره ، كاللوح المحفوظ وجبريل وغير ذلك ، وعلى هذا فكلام الله حادث وليس بقديم ، **ثم انهم يثبتوا شيئا آخر من وراء الاصوات والحروف تحت اسم الكلام**

وأنكروا أن يكون لله صفة قديمة قائمة بذاته هي الكلام . وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن .

أما جماهير المسلمين ، وهم أهل السنة والجماعة فقد قالوا : إن هذه الحروف والأصوات التي تدل على معاني كلام الله لا شك أنها حادثة ونسميها كلاماً لفظياً ، ولكننا نثبت الى جانب ذلك صفة أزلية قائمة بذاته هي الكلام، وهي تلك المعاني التي يعبّر عنها بالألفاظ ، وهي غير صفة العلم والارادة وانما هي صفة مهيأة لأن يخاطب بها الآخرون على وجه الأمر والنهي والخبر، والوعد والوعيد ، وقد شرحنا ذلك فيما مضى .

المبحث الثاني في الكونيات

المقصود بالكون هنا لا يقتصر على الأرض التي نعمرها ، بل يتناول ذلك ويتجاوزه الى النجوم والكواكب والى الشمس والقمر ، والى القوانين التي تربط هذه الأشياء بعضها الى بعض ، حتى أنه يشمل ما يبصره الانسان وما لا يبصره وما خلق وما يخلق .

وفي البحث الثاني لا يعنينا أن نبحث عن كل شيء يتعلق بالكون ، فان كل جانب من جوانبه له علم تفرّد بالبحث عنه ، وإنما يعنينا في هذا البحث أشياء تتعلق بهذا الكون قد عرضت لها النصوص الشرعية ، فأصبحت ذات ارتباط وثيق بالعقيدة ، وبالعلم الذي يتحدث عنها واليك هذه الأشياء .

١ ــ خلق الكائنات في ستة أيام[1] :

آ ــ ادلة هذا الخلــق :

جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تنص على أن الله جلت قدرته قد خلق السموات والأرض ــ وهما الكون جميعه ــ في ستة أيام ، فمن الآيات التي تنص على ذلك :

١ ــ قوله تعالى :

● « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى

---

[1] هذه الآيات الكريمة : في سورة الاعراف (٥٤) وفصلت (٩ ــ ١٢) وما شابهها تشير بوضوح الى النظام العام الالهي في الخلق والتدبير ، وتتجلى فيه رحمة الله وعدالته ، وقد امتزجت بعلمه سبحانه الكامل الشامل للماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا النظام العام الالهي في الخلق والتدبير ، هو محور القضاء والقدر ، الذي يتصل بالعقيدة الاسلامية .

على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » الأعراف : / ٤

٢ ــ قوله تعالى :

۞ « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » فصلت : / ٩ ــ ١٢ •

ب ــ مقدار اليوم :

وقد اختلف العلماء في مقدار اليوم المذكور في الآيات المشار اليها ، وغيرها ، على قولين :

أحدهما : أن اليوم مقدار كاليوم المعروف ، وردّ هذا القول بأنه لم يكن هناك شمس ولا ليل ولا نهار حتى يحدّد اليوم بذلك •

والثاني : إن مقدار هذا اليوم كمقدار يوم من أيام الآخرة ، كل يوم مقداره ألف سنة ، أخذاً من قوله تعالى :

۞ « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون » الحج : / ٤٧ •

هـ ــ الحكمة من هذا الخلق :

والحكمة من جعل الخلق في هذا المقدار من الزمن ــ وهو سبحانه قادر أن يقول لها كوني فتكون ــ الحكمة هي :

١ ــ إرادته سبحانه أن يعلّم عباده الرفق والتثبّت في الأمور ، وبخاصة رسولهم الكريم الذي كان يلاقي من أذى المشركين ووقوفهم في سبيل دعوته ، وتألبهم على مناصرة الباطل ومنابذة الحق •

٢ — بديع صنع الله في الكون وجعله من أعظم الأدلة على وجـوده : إن أعظم دليل أقامه الله لعباده ليدل على وجوده هو هـذا الكون البديع ، بكـل ما فيه ، بسمائه وأرضه وكواكبه وأفلاكه ، وجماده وحيوانه ونباتـه وقوانينه وقواه ، ذلك الكون الذي صاغه الله سبحانه على أسمى ما يكون من الإبداع والإتقـان .

ولكن وجود الدليل وحده لا يكفي في الدلالة على المطلوب ما لم يرافق ذلك تفكير حر ّ واعٍ خالٍ من المؤثرات .

فمن هنا أوجب الله على الانسان أن يجيـل طرفه ، ويعمل عقله وتفكيره في هذا الكون ، متنقلاً من كائن الى كائن ، متفحّصاً ما أودع فيـه من إتقان وإبداع ، كي يستدل من المخلوق على وجود الخالق ومن جمـال الصنعة على قدرة الصانع .

لقد أمره أن ينظر ويتأمل ويتفكر فيما يلي :

١ — في نفسه وذاتـه ، أين كان ؟ وكيف وجد ؟ وما هي المراحل التي مر ّ عليها عبر هذه الرحلة ؟

● « فلينظر الانسان مم ّ خلق . خلـق من ماء دافق . يخـرج من بـين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر » الطارق : / ٥ — ٩ .

● « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنـا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقـة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكـم ، ونقر ّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمّى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشـد ّكم ، ومنكم من يتوفّى ومنكم من يرد ّ الى أرذل العمر ، لكي لا يعـلم من بعـد عـلم شيئاً » . الحج : / ٥

٢ — في طعامه ، الذي عليه مـدار حياته وقوام عيشـه ، كيف يتكو ّن وينشأ من التراب والماء ؟ وما هي العوامل والقوانين التي وضعها الله لتعمل على إنتاج هذا الغذاء المناسب لكل حي ّ كائن على سطح هذه الأرض ؟

● « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صباً • ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً • وزيتوناً ونخلاً • وحدائق غلبا • وفاكهة وأباً • متاعاً لكم ولأنعامكم » عبس : / ٢٤ — ٣٢

● « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » • الأنعام : / ٩٩

٣ — في هذه الارض التي عليها مستقرة ، ومنها نشأ واليها يعود ، ماذا أودع الله فيها من إبداع وتنظيم يحفظ به حياة هذا الانسان على ظهرها، حتى لو اختل هذا النظام بعض الاختلال ، لكانت حياة الانسان بل حياة الكائنات الحية جميعها حيز الهلاك والعدم •

● « وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » الرعد : / ٣ — ٤ •

● « أمّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » النخل : / ٦١ •

٤ — وفي عالم الحيوان الذي يشاركه في الحياة على ظهر الارض ، من تنظيم وإبداع يأخذ بالألباب •

● « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس،إن فيذلك لآيات لقوم يتفكرون» النحل : / ٦٨ — ٦٩ •

● « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » . النحل : / ٦٦ .

٥ — في المطر ، كيف يتشكل وكيف يهطل ؟

● « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » . النور : / ٤٣ .

● « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » المؤمنون / ١٨ .

٦ — وفي السماء وما أودع فيها من أجرام ، وفي هذا الترابط العجيب ، من عالم السماء وعالم الأرض .

● « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . يس : / ٣٧ — ٤٠ .

● « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً . » الفرقان : / ٦١ ٦٢ .

● « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون » يونس : / ٥ .

٧ — وفي البحر ، ● « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا » الفرقان : / ٥٣ .

● « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية

تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » النحل : / ١٤ ٠

وبعد ــ فلا شك أن من ينظر في هذا الكون هذه النظرة الفاحصة، ويفكر فيه التفكير الحرّ الواعي ، غير المتأثر ، لا بد أن يعود من هذه الرحلة مفعماً قلبه بالايمان الذي لا يتزحزح ، ومملوءة نفسه بعظمة هذا الخالق العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه ٠

٣ ــ تسخير هذا الكون للانسان :

آ ــ معناه : ومعنى التسخير ، أن هذا الكون بجميع أجرامه وقواه هو مصنوع لخدمة هذا الانسان ومهيّأ لمنفعته ، ولقد ابتدعه سبحانه على نظام يساعد هذا النوع الانساني على استبقاء حياته على ظهر الأرض (الى أجل مسمى) ٠

ولقد أوضح سبحانه هذا التسخير في آيات كثيرة من القرآن ، حتى أنه لا يذكر فيه جزءاً من أجزاء هذا الكون إلا مشيراً الى ما فيه من منفعة لهذا الانسان ٠

ب ــ أدلته : من الأدلة الدالّة على التسخير :

١ ــ قوله تعالى (في الأنعام) :

● « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ٠ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم » ٠ النحل : / ٥ ــ ٧

٢ ــ قوله تعالى (في تسخير الكون جميعه) :

● « ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ٠ لقمان : / ٢٠ ٠

هذا وغنيّ عن البيان أن هذا التسخير يحمل بين جوانبه دفعاً لهذا

الانسان الى التجربة والاختبار والمعرفة والعلم بما أوع الله في هذا الكون من أسرار حتى يتمكن من استخدامه والاستفادة منه ، كما أراد الله أن يستفيد، إذ لا يتحقق كمال التسخير إلا بالعلم .

إذن ــ فالنصوص الآنفة الذكر ، التي تتحدث عن التسخير هي في الحقيقة دعوة الى العلم وبيان أن هذا الدين هو دين العلم[1] ، وبخاصة هذا العلم الكوني الذي يأخذ بيد الانسان الى الايمان بالله عن وعي وإدراك ، والذي عناه الله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فاطر : ‎/٢٨ .

٤ ــ نهاية هذا الكون :

آ ــ تفكك هذا الكون :

لقد مرّ بنا أن الله أبدع هذا الكون على أتمّ نظام وأسمى قانون ، وربط بعضه ببعض في تناسق عجيب ، والسؤال الآن هل يبقى هذا النظام أبدياً على ما هو عليه ؟ وهل يبقى هذا التعاون والتناسق بين أجزائه ؟ أم أن جديداً سوف يحدث ؟

للجواب على هذا السؤال نقول : إن هذه المسألة ليست من الأمور التي

---

(1) للعلم تاريخ طويل ، منذ بدأ الانسان يعمل ويفكر ، وما سجّل منه يرجع الى بضعة ملايين من السنين ، ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها ، ولا شعب بعينه ، بل أسهم فيه بنو البشر جميعاً ، كل بنصيبه ، فتاريخه تاريخ الحضارة الانسانية ، يسجل حركاتها ، ويتتبّع تطوراتها ، ويعرض مراحل نموّها وازدهارها ، وفترات تلاشيها وانقراضها ، ويبين مدى التلاقي والتعاون بين الحضارات المتعاقبة .

وتاريخ العلم تاريخ العقل البشري ، يرسم محاولاته الاولى ، التي أملتها الغريزة والحاجة ، ويسايره الى أن ينتهي به الى ذلك التفكير المنطقي ، الذي يلاحظ ويجرب ، ويحلل ويركب ، ويصنف ويعمم ، ويبرهن ويعلل .

ولئن كان العلم رفيع الشأن منذ أن وجد الانسان ، فان مكانته اليوم سمت سمواً جاوزت فيه الحسبان . لقد صار العلم دعامة المجتمع ، وسبيل تقدمه وسعادته ، ليسلك طريق الوصول الى حياة أفضل ، انه وديعة الله وسنّته ، ومظهر من مظاهر قوته ، أطلع عليها الصالحين في أرضه ، لتظهر آثارها في صلاح الناس واصلاحهم ، في خير البشر واسعاده وتعميم العدل في المجتمع الانساني .

ينظر تاريخ العلم ، الجزء الاول ، تصدير الدكتور ابراهيم بيومي مذكور (رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة) .

يستطيع العقل أن يبتّ بها بنفي أو إثبات ، لأنها من الأمور المستقبلة المغيّبة ، بل الذي يستطيع أن يثبتها أو ينفيها هو الخبر الصادق[1] ، لأنها من اختصاصاته ، كالبعث والحساب والجزاء ، وحسب العقل في هذا المجال أن يحكم بعدم استحالتها ، وأنها من الأمور الجائزة التي تحتمل الطرفين .

والله سبحانه يعلم المستقبل كما يعلم الماضي ، والذي بيده مقاليد السموات والارض يتصرّف بها كيف يشاء ، والذي هو على كل شيء قدير ، قد أخبرنا بأن هذا النظام الكوني سوف يتلاشى ويضمحّل ، وستتلاشى معه الحياة على ظهر الأرض ، لتبدأ حياة أخرى على وفق نظام آخر ، تكون هذه هذه الحياة نتيجة واستمراراً لما سبقها من حياة[2] . وسيمرّ بك الكلام مفصلا عند الحديث عن اليوم الآخر .

٥ ــ قانون السببية والعلية في الكون :

أ ــ حقيقة السبب والعلة :

اذا نظرت الى هذا الكون وجدت أنه ما من شيء من الاشياء إلا وهو محتاج في وجوده الى شيء آخر ، (فالمحتاج اليه ــ يسمّى سبباً وعلة) ، والمحتاج يسمى (مسبَّباً أو معلولا) ، ومن هنا قال في المواقف :

« تصوّر احتياج الشيء الى غيره ضروري ، فالمحتاج اليه يسمى علّة ، والمحتاج معلولا »[3] . هذا وإن أبدى العلماء فرقاً بين السبب والعلة ، إلا أننا هنا نقصد بهما شيئاً واحداً .

---

(١) قال تعالى : ﷻ « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، مما يأكل الناس والانعام ، حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازّينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، اتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون . والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » يونس : / ٢٢ ــ ٢٤

(٢) قال تعالى : ﷻ « اذا زلزلت الارض زلزالها . وأخرجت الارض أثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . » سورة الزلزلة .

(٣) المواقف (٨٥) .

ولنضرب مثالاً على ذلك (توالد الناس وتكاثرهم) (اختلاف الأزمنة والفصول) (سبيل الزراعة والبناء والاستنبات) •

غير أن هذه الاسباب الظاهرة ، تتناقص كلما أمعنت التأمّل ، وسبرت أغوار الأسباب نفسها كما تتناقص فروع الشجرة كلما دنوت بنظرك نحو جذعها ، الى أن تتجمع الاسباب المختلفة كلها في سبب رئيسي واحد ، وهو السبب الواجب ، أو واجب الوجود ، وهو الله عز وجل ، وقد مرّ بنا شيء من هذا في صفات الله عز وجلّ •

فهذه الظاهرة التي نلمسها في الوجود، والتي لا يسعنا إنكارها، نسمّيها: قانون السببيّة في الكون •

ب — كيف يتفق قانون السببية هذا مع ما علمناه من أن العالم كله انما هو من قسم من الممكنات ؟

لا بدّ من تصوير الإشكال أولاً ، فنقول: من المعلوم أن الشيء لا يسمى سبباً لغيره إلا اذا أثّر فيه إيجاداً أو إعداماً أو تكييفاً ، **وهذا التأثير لابد أن يكون حتميا** ، ما دام المؤثر سببا وإلا امتنع كونه كذلك •

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ من القول بأن هذا الكون — أو معظم مظاهره على أقل تقدير — ضروري الوجود ، وأن سيره على هذا الشكل الذي نراه واجب وضروري أيضا من أجل أنه نتيجة أسباب معينة مختلفة،ثبت كونها أسباباً بالحسّ والمشاهدة •

وثبوت الحتمية والضرورة له يناقض ما قد ثبت من أن هذه الموجودات كلها من قسم الممكن ، لانه لا يترتب على فرض فقدانها أو فقدان بعض منها محال عقلي •

فالجواب : ان الامر مشكل حقيقة ، لو قلنا ان الاسباب المبثوثة في الكون أسباب حقيقية أي ثبت لها التأثير بذاتها دون الاحتياج الى من يثبت فيها التأثير .

إلا أننا لا نقول ذلك ، إذ من المستحيل بداهة أن تكون هذه الاسباب

مؤثرة بذاتها ، مع ما نعلمه فيها من صفة الحدوث بعد العدم ، فكيف يكون التأثير فيها نابعاً من جوهرها الذاتي ، وهذا الجوهر نفسه قد كان مفقوداً قبل حين ، ثم اكتسب الوجود ، بتأثير سبب آخر ، ويقال الكلام نفسه في حق هذا السبب الآخر ، وفي حق الأسباب الأخرى الكثيرة المختلفة .

وإذن ـ فما معنى كون هذه الأمور أسباباً ؟ إن معنى ذلك محصور في أن الله عزّ وجلّ ربط بينها وبين أمور أخرى بمحض إرادته وقدرته فقط ، فظهر هذا الارتباط أمامنا بمظهر السببية ، والتأثير[1] ؛ فاستعرنا له كلاً من هاتين الكلمتين ، على سبيل المجاز ، وأنت تعلم بأن طول الاقتران بين أمرين في الوجود والعدم قد يخيّل الى الذهن ارتباطاً سببياً بينهما ، وإن لم تكن ثمة أي رابطة حتمية واقع الامر .

ويتضح لك هذا المعنى فيما يسميه علماء النفس بـ (ردّ الفعل الشرطي)، إذ ثبت عندهم بالتجربة ، أن أي مؤثر من المؤثرات المختلفة في النفس ، اذا تكرر وجوده بمصاحبة أمر ما (ولو بمحض المصادفة) ، فان هذا المصاحب يكتسب هو الآخر في النفس شيئاً من قوة ذلك المؤثر ، فيفعل فعله ويحقق نتيجته .

ويمثلون لذلك بالتجربة التي قام بها « بافلوف » وهو عالم روسي ، من تقديم الطعام لطائفة من الكلاب الجائعة عند قرع جرس معيّن على أسماعها ، وكرر ذلك مدة متصلة من الأيام ، فكان يظهر تأثرها لمرأى الطعام في كل مرة بسيلان اللعاب من أفواهها .

ثم إنه قرع الجرس وحده بعد ذلك دون أن يقدم لها الطعام فظهر فيها الأثر ذاته ، الذي كان يظهر عند مرأى الطعام .

وتفسير ذلك ـ بالنسبة لما نحن بصدده ـ أن الكلاب لما رأت مقارنة

---

(١) قال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » « أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » الواقعة : / ٥٧ ـ ٦٩ .

صوت الجرس لظهور الطعام أمامها ، واستمرت هذه المقارنة أمامها مـدة من الزمن ، رسخ هذا الارتباط في تصورها وأثر تأثيرا معنيا في نفوسها، ولو قلنا أن الكلاب لها عقـل على قدرها تفكر فيه ، لقلنا أنها ظنت من طول استمرار هذه المقارنة أن الجرس هو السبب المؤثر في ظهور الطعام وحضوره .

وقصة الانسان أمام هذا الوجود كهـذا المثال أمام الجرس والطعـام . فقد تعلقت ارادة الله تعالى بأن لا يظهـر عشـب في الأرض إلا بعـد نـزول الأمطار من السحاب، وتعلقت ارادته بأن لا تنزل قطرات المطر إلا بعد أن تتلبد الغيوم وتتكاثف بقـدر معين ، ضمن درجة معينة من الحرارة وتعلقت ارادته بأن لا يتوالد الناس إلا عندما يتزاوجون ، وهكذا ، ولو شـاء الله عز وجـل لفرق بين هذه الأمـور وقطع الصلة ، مما بينها وترك كل واحد منها يسير في طريق ويظهر مستقلاً عن الآخر .

وإذن ـ فان ما نسميه نحن بقانون السببية ـ واستقر (قانون المقارنة المجردة) ، أسميناه كذلك لأنه ظهـر لنا بمظهـر السببية ، واسـتقر كذلك في أخيلتنا .

إلا أن هذه التسمية لا تتفق مع حقائق العلم وواقع الأمـر ، كما رأيت ، فلذلك أطلق العلماء على هذه الاسباب (الجعلية) ، أي هي أمـور جعلها الله بمحض المقارنة أسباباً ، بجعولة جعلاً ، (وليست أسباباً ذاتية مؤثرة ، وما قد تلمحه فيها من مظاهر التأثير والعلية ليس كذلك في الحقيقة ، بل هي المقارنـة ليس غـير .

غير أن الامام الغزالي رحمه الله لا يرى تنافياً بـين أن تكـون الاسباب الكونية (جعلية) كما قلنا ، وبين أن يكون فيها تأثير أودعه الله عز وجل فيها ، يسلبه عنها عندما يشاء ، وهو يرى أن هذا هو الحـق ، أي فالمسألة ليسـت مقارنة مجردة (كمقارنة الجرس الطعام) بل هناك تأثير كامن في الزمن المقارن، ولكنه ليس تأثيراً منبثقاً من ذاته ، بل مودع فيه فاذا أراد الله تعطيـل السبب عن سببيته ، أزال عنه هذه القوة المودعة فيه .

وتحليل الغزالي هذا أقرب الى الانسجام مع التعليلات العلمية لظواهر الأشياء ، وتكويناتها إلا أنه أبعد عن مسلك الجمهور ، وما اتفق عليه من قولهم : (إن المسبّبات توجد عند وجود الاسباب لا بها) .

ونحن نرى أن الخلاف ينتهي بعد مراحل يسيرة من النظر الى الوفاق ، فهو خلاف يكاد يكون لفظيا ، **اذ المقصود ان تأثير الاسباب الكونية ليس تأثيرا حتميا (مستقلا عن ارادة الله) وانما هو بارادة الله عز وجل** ، سواء قلنا أنه سبحانه أودع فيها قوة مؤثرة ، أم لم يودع فيها هذه القوة .

جـ ـ الحكمة من خضوع الكون لقانون السببية :

والسؤال الذي لا بد من ايراده هنا هو : فاذا كانت هذه الاسباب « جعلّية » كما قلت فانه جعل الله كذلك ، وهلاّ فرّق بين هذه الامور المجتمعة وأبعدها عن بعضها حتى لا ينخدع بها الناس فيتوهمون أنها أسباب مؤثرة ؟. هي ليست كذلك .

والجواب أن أبرز دلالة الكون على وجود الخالق عز وجل انما هو مظهر التناسق والانسجام فيه ، وليس معنى التناسق والانسجام فيه شيئاً غير ظاهرة السبّبية والعلّية الشائعة والسارية في كل صورة أجزائه .

فاذا تجلّى من الكون هذا التناسق والانسجام تنبّه الانسان الى وجود المنظم والمنسق الحكيم ، فاذا سار الانسان مرحلة ثانية في التأمل في هذا النظام أدرك قدرة المنظم (وارادته ومشيئته) على تعطيل هذا التناسق وهذه النّمطية ، عندما تقتضي الحكمة اظهار هذه القدرة وهذه المشيئة، (وحتى لا يحجب بهذه النّمطية ـ عن حقيقية فاعلّية الله في مجراها) .

د ـ ما يجب على المسلم اعتقاده بناء على ذلك :

ان على المسلم أن يعتقد اعتقادا جازما أنه (لا تأثير ـ على الحقيقة ـ في هذا الكون إلا لله عز وجل) وأن كل ما يتراءى لنا من مظاهر الاسباب

والعلل ، (انما هي أسباب وعلل جعلية) جعلها الله عز وجل كذلك ، ليظهر للانسان معنى (النظام العام ـ في الخلق والتدبير) .

وأن ما قد يجده الباحث فيها مما يسمّيه العلم بالعوامل والمؤثرات ، إنما هو كذلك من حيث الظاهر فقط ، والعلم لا شأن له بالاشياء إلا أن يصفها على ماهي عليه في أدقّ مظاهرها ، ثم يمارس هذا الوصف بالتجربة في مجالات متكررة . واذا كان العلم إنما إمكان الانفصال فشيء آخر ، لا يرقى إلا معناه (والتعريف به) إلا الوحي الإلهي .

وإذ قد ثبت بالدليل القطعي على ما قلناه ، فقد كان جحود ذلك كفراً باجماع المسلمين . كما لا معنى بعد ذلك للايمان بشيء من المعجزات والخوارق التي أكرم الله بها الانبياء والمرسلين ، تأكيداً لصدق رسالاتهم ، كتحوّل نار سيدنا ابراهيم عليه السلام الى برد وسلام، وكولادة سيدنا عيسى عليه السلام بدون وساطة أب ، كما قال تعالى :

● « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن .. »

وكابرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى باذن الله ، وكل ذلك مما نصّ عليه القرآن بصريح العبارة وجلّي البيان .

وجما كل ذلك ـ هذا الذي ذكرناه ـ قوله تعالى :

● « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : / ٨١ .

هل من ضير في استعمال ألفاظ تدلّ على سببّية الاشياء بعضها لبعض إذا سلمت العقيدة ؟ ولعلّك تسأل ـ بعد هذا ـ عن حكم استعمال المسلم ألفاظاً تعبّر عن سببيّة بعض الاشياء وتأثيرها ، وذلك بسبب طول الإلف ، وظهور هذه الاشياء بمظهر الاسباب الذاتية المؤثرة ؟ كقول القائل: **لقد نفعني هذا الدواء ، وشفاني هذا الطبيب ، وأينع الزرع بكثرة المطر** ، فالجواب : إن ذلك اذا صاحب اعتقادا بتأثير واحد من هؤلاء فقد كفر بالاتفاق ، (حيث أنه نسب فاعلّية الاسباب لغير الله) .

أما اذا صاحبه الاعتقاد ، بأن المؤثر في ذلك انما هو الله جـل جلاله[1] ، وانما أتى النفع والشفاء ، باذنه سبحانه ، فلا ضير فيه ، لأن تحبيره هذا جـاء موافقاً لظاهر ما أقيم عليه الكون من قانون السببية الجعلية .

---

(1) ويصور لنا هذا المعنى بوضوح ، خطاب سيدنا ابراهيم عليه السلام لقومه في الايـات الكريمة :

● « الذي خلقني فهو يهدين . والذي يطعمني ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . » الشعراء : / ٧٧ — ٨٠

فسيدنا ابراهيم عليه السلام (وهو في مقام الايمان الكامل) ، يعترف بعبوديته لله (الخالق — الهادي) ويصف لنا أدبه الرفيع ، وتواضعه بين يدي الله سبحانه . فاذا أكل وشرب ، فانما يأكل على مائدة الله سبحانه . واذا مرض ، لم يقل (اذا أمرضني) ، بل قال : (واذا مرضت) فقد نسب خطيئة المرض الى نفسه .

وهذه هي الحقيقة — فان الانسان — في معرض التوجيه الإلهي — وفي نظـام الله العام في الخلق والتدبير لا يقع في الخطيئة — ما لم يغفل عن وصية الله (عن طاعته ، وذكره وشكر نعمتـه) ، اما الشفاء والصحة ، فهو التوبة والعودة الى الاصل ، فقد طلبه سيدنا ابراهيم مستعينا بالله (اياك نعبد — واياك نستعين) . وهذه هي العقيدة الصافية والايمان الحق «د تجلى لنا في سـلوك الانبياء ، وفي مجال التطبيق » ، وبالله التوفيق .

المبحث الثالث : في الانسان

تمهيـد :

إن الاسلام ــ وهو الدين العام ــ وخاتـم الرسالات السماوية ، الذي أنزل الله على الناس جميعهم ،مهما تراخت أزمانهم،واختلفت ألوانهم وألسنتهم ومهما تباعدت قاراتهم وبلدانهم ، وهو الدين الشامل الذي لم يترك شـاردة ولا واردة ولا عظيماً ولا بسيطاً مما يعني الانسان إلا وبينه أتم بيان .

ان هذا الدين قد أوضح لنا ــ فيما أوضح ــ حقيقة هذا الانسان الذي يعمر هذه الارض ويتمتع بخيراتها ، وينعم بما أودع الله فيهـا ، وكيف وجـد عليها ، وماهي النهاية التي تنتظره ، وكيف تكون هذه النهاية .

كما أوضح لنا حقيقة هـذا الكون المحيط بالانسـان ، وماهي الروابط والعلاقات التي تكون بينه وبين هذا الوجود العظيم المتنوع المتناسـق ، وما يجب أن يأخذ منه ، وما يجـب أن يدع ، وماهي النهايـة التي تنتظـر هـذا الوجود أيضاً .

كما إنه قد بـين لنا أموراً تتعلـق بحياتنا ومسؤوليتنا ، والمنهاج الذي يجب علينا أن نسير عليه لنحقق سعادتنا والحكمة من وجودنا .

وفي كل هذا الايضاح والبيان إظهـار لفضـل الله على هـذا الانسان وعنايتـه به ، وإرواء لما فطـر عليـه من التطلـع لمعرفـة المجهول ، وتنظيم لحياته حتى لا تذهب جهوده سدى ، وبيان للحقيقة التي قد يتعذر أو يتعسّـر الوصول اليها عن طريق البحث والتجربة وإعمال الفكر .

وإنك لتجد بعض ذلك في هـذا البحث الموجز عـن الانسان والكـون والحياة ، واليك بيان ذلك :

آ ـ الإنســان

١ ـ بدء خلق الانسان :

آ ـ حقيقة الانسان :

الانسان في نظر الاسلام هو أحد هذه المخلوقات الكونية التي أسـكنها الله هـذه الارض وهـو يشاركها الكثـير من صفاتها ، وينفـرد هو بصفات خاصـة به •

١ ـ يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه •

٢ ـ ويشارك النبات في نموّه وفي الكثير من مـواد تركيبه ، والنبـات وما يتغذى من النبات غذاء للانسان ، وهو الصلة المستمرة بينه وبين التراب•

٣ ـ ويشارك الحيـوان ـ على كثـرة أنواعه ـ في كثير من صـفاته وغرائزه ، في طعامه وشرابه وفي توالده وتناسله •

٤ ـ ويمتاز الانسان عن غيره من الحيوان ـ من حيث الشكل ـ بمـا ميّزه الله من قامة مستقيمة ، وخلق سويّ « لقد خلقنـا الانسان في أحسـن تقويم » سورة التين : /٤ •

ويمتاز ـ من حيث الحقيقة ـ بما ميّزه الله من العقـل (القـوة المفكرة ـ المتطوّرة)، تكريماً له ، وتنويهاً بشأنه ، قال تعالى :

● « ولقد كرمنا بني آدم » سورة الإسراء : آية (٧٠) •

قال ابن عباس : كرمهم سبحانه ، بالعقل •

والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وهو أيضا ميزان التعادل (التوازن) في الانسان ، وسرّ الله فيه، وعلاقته القائمة بينه وبينه ، به تعرفـه (ي تـدرك

حكمته ورحمته وعدالته) ، وتعرف نفسك (حيث خلقك فسوّاك فعدلك) ، وتعرف مبدأك ومنتهاك ، وتعرف مكانك في الوجود الذي أنت فيه .

وعقل الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه وتتائجه . العقـل قبس من نور الله ، ميزان الله في أرضه ، منـاط التكريم (التكليف ــ والمسؤولية) في الانسان ، أودع الله فيه خصائصه المميزة وقوانينه المنظمة (كمركز قيـادة في الذات الانسانية) ، تمكن الانسان من التلاؤم مع واقعـه ، وتنميـة مواهبه ومكاسبه ، وتنسيق علاقاته بالآخرين تحقيقاً لغاية وجوده[1] .

إذن ــ الانسان هو الكائن النّامي الحي العاقل المفكر .

ب ــ خلق آدم وحواء وانتشار الانسان :

١ ــ ان آدم هو الانسان الأول الذي خلقه الله تعالى على وجه الأرض ، ولم يكن قبله من انسان فهو وحده أبـو الوجود البشري كلـه ، ثم خلق الله سبحانه حوّاء زوجاً لآدم ، ثم أنشأ منهما بشراً كثيرا رجالا ونساء ، وعلى هذا دلّت الآيات القرآنية . يقول الله سبحانه :

● « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء » النساء : / ١

ج ــ الانسان على هذه الخلقة منذ وجد :

١ ــ الانسان مخلوق من تراب :

اتفقت الرسالات كلها على ان الانسان الأول ــ وهو آدم عليه السلام ــ مخلوق من التراب ، ولقد جاءت الآيات القرآنية مقررة لهذه الحقيقة ، فمـن الآيات الدالة على ذلك :

قوله تعالى : ● « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » .
وقوله تعالى : ● « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » .

---

(١) ينظر كتاب « آثار العلماء المسلمين في الحضارة الاوروبية » (للمؤلف ــ أحمد علي الملا ص ــ ٢٠ ــ .

وقوله تعالى : ● « وبدأ خلق الانسان من طين » •

وقوله تعالى : ● « ومن آياتــه أن خلقكم من تــراب ثم إذا أنتم بشــر اتنتشرون » •

والصلصال : طين يابس ـ والحمأ : الطين الأسود ـ وكل ذلك أصــله التــراب •

٢ ـ خلقة الانسان حينما وجد :

وهل الانسان منذ وجد ، وجد على هذه الخلقة التي هي عليها الآن (من استواء من القامة واعتدال في الخلق وعقل وتفكير) أو كان خلقاً آخر ثم تطور حتى وصل الى مرتبة الانسان ؟

إن الذي عليه جمهور العلماء من المسلمين هــو أن الانسان منذ نشــأته الأولى مخلوق على هذه الهيأة التي هو عليها الآن ، لم يطرأ عليه في خلقته أي تعديل أو تبديل أو تغيير •

وحجتهم في ذلك ظواهر أدلة وردت في هذا الدين الحنيف منها :

١ ـ قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » •

وأل ـ هنا ـ دالّة على الحقيقة والماهـّية والجنس ، أي : إن ماهية هذا الانسان وجنسه مخلوق على أحسن استقامة واعتدال •

٢ ـ قوله تعالى : « يا أيهــا الانسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركّبك » •

٣ ـ ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رســول الله ﷺ قال :

● « خلق الله آدم على صورته » أي أنــه منذ وجد كانت صورته نفس الصورة التي استمر عليها وعرف بها ولما ينشأ على شكل ثم انتقــل منــه الى شــكل آخــر •

وهذا الذي ذهب اليه جمهور العلماء هو الذي يتلاقى وينسجم مع تكريم الله للانسان واستخلافه إياه في هذه الأرض .

تكليف الانسان ومسؤوليته :

آ ــ تكريم الله للانسان :

لقد كرم الله هذا الانسان وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا . ولقد ثبت تكريم الانسان وتفضيله بدليل نقلي وعقلي .

أما الدليل النقلي ــ فهو قوله تعالى :

● « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » الإسراء : / ٧٠

وقوله تعالى :

● « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » البقرة : / ٣٤ .

والاستدلال من هاتين الآيتين على تكريم الانسان ، وبخاصة الانسان الاول آدم عليه السلام ، ظاهر الدلالة .

وأما الدليل العقلي ــ فيتمثل في الأمور التالية :

آ ــ إن النفس الانسانية تتميز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوة المدهشة العجيبة ألا وهي القوة المفكرة المتطورة المدركة لحقائق الأشياء ، ومن خصائص هذه القوة أنها هي الوسيلة لمعرفة الله سبحانه ، فاذا كان الأمر كذلك ، كانت هذه النفس أشرف النفوس الموجودة في العالم .

ب ــ تسخير الله الكون لهذا الانسان ، وما ذاك إلا لبيان مكانته وشرفه وسيادته على هذا الكون .

جـ ــ الصفات التي تميز بها الانسان عن غيره إن هي إلا فيوضات من صفات الربوبية ، كالعلم والقدرة والارادة وغير ذلك ، فاذا كان الانسان في

حقيقته ، مؤهلاً لتلقي هذه الظلال أو هذه الفيوضات من صفات الله سبحانه فأجدر به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها •

استخلاف الانسان في الارض :

١ ــ أدلــة الاستخلاف :

من مظاهر تكريم الله للانسان أن جعله خليفة له في الأرض • ولقـد جاء في القرآن نصوص كثيرة تشير الى هذا الاستخلاف ، فمن ذلك ، قوله تعالى :

● « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال إنــي أعلم ما لا تعلمون • » البقرة : / ٣٠ •

● « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحــق » • ص : / ٣٨ •

● « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم • » الأنعام : /١٦٥ •

٢ ــ معنــى الاستخلاف :

وحقيقة الاستخلاف في هذه الآيات وأمثالها ، أن الله عهــد لهذا الانسان بالقيام في إمضاء أحكامه وتنفيذ أوامره ، وإعمار هذه الأرض على الطريقة التي أمره بها • فالذي يستحق لقب خليفة الله (في أرضه) هــو من يقــوم بواجب الاستخلاف (فقهاً لمراد الله ــ وعملا بطاعته) على الوجه المطلوب •

٣ ــ ما يترتب على الاستخلاف :

ويترتب على الاستخلاف أمور نجملها فيما يلي :

آ ــ الملك في هذا الكون لله وحده ، فليس لأحــد حق في ملكية أصلية ، فالله وحده هو المالك الحقيقي ، وهو الذي يملك حق التصرّف في هذا الكون كيفما يشاء ويختار ، يحيي ويميت ، يغني ويفقر يعز ويذل ، قال تعالى :

● « قل اللهم مالك الملك تؤتي من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » آل عمران : / ٢٦ .

ب ـ الانسان هو سيد هذه الأرض ، يستمدّ سيادته هذه من ربّه الذي منحه هذا التكريم فليس شيء يستحق السيادة غيره ، ولقد زوّده بما يؤهله لهذه السيادة ، وفي رأس ما زوّده به العقل ، الذي هو المميز الوحيد له عن غيره من الكائنات في هذه الأرض ، قال تعالى :

● « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . النحل : / ٧٨ .

ومن هنا نعلم أن الانسان الذي يهمل عقله فلا يفكر فيه ولا يستعمله . بل يحجبه عن التفكير ، هذا الانسان ليس بجدير لأن ينال شرف الاستخلاف ، لأنه انحدر الى مستوى البهائم التي لا تملك نظير هذه القوة ، قال تعالى :

● « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون . » الأعراف : / ١٧٩

جـ ـ ان الانسان في هذه الارض لا يحق له أن يتصرف إلا على الطريقة التي أمره بها المستخلف ، فحريّته في هذا الكون ليست حرية مطلقة ، يتصرف كيفما يشاء ويختار ، بل هي حرية محدودة بالحدود التي وضعها المالك الحقيقي الذي هو الله سبحانه ، ومن هنا كثيراً ما نسمع القرآن الكريم يوصي هذا الانسان بالتزام الوقوف عند هذه الحدود وينذره إن تجاوز هذه الحدود بحلول عقاب الله وغضبه عليه ، قال تعالى :

● « تلك حدود الله فلا تعتدوها »[1] .

● « ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين »[2] .

---

(١) البقرة : / ٢٢٩ (٢) النساء : / ١٤

د ـ مادام الانسان مستخلفاً فمن واجبه أن يسعى ليعلم ما هو مستخلف عليه ، وليحصل على هذا العلم ، يجب عليه أن يبحث ويجرّب ، ومن هنا كان الاستخلاف من أعظم الدوافع للانسان في طريق العلم التجريبي ، الذي يزيده كل يوم خبرة واطلاعاً وانتفاعاً بما أوجده الله في هذا الكون •

ومن أجل ذلك لفت القرآن نظر الانسان الى ما أودع في هذا الكون من أسرار ، ليعرف كيف يستخدمها من جهة ، وليستدلّ بها على قدرة خالقها من جهة أخرى ، قال تعالى :

● « ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين » الروم : / ٣٢ •

تسخير الكون للانسان :

ومن مظاهر تكريم الله للانسان أيضاً تسخير الكون له ، ومعنى التسخير أن هذا الكون بجميع أجرامه وقـواه وقوانينه مصنوع لخدمة هذا الانسان، ومهيأ لمنفعته ، ولقد ابتدعه سبحانه على نظام يساعد هذا النـوع على استبقاء حياته على ظهـر الأرض •

تكليف الانسان بتكاليف شرعية :

بعد أن هبط آدم الى الأرض ، وجعلت سـكناً له ولذريته من بعـده ، أعلمه الله جل جلاله ، أن الحياة في هذه الدنيا هي تكليف واختبار وابتـلاء ، فمـن قام بهذه التكاليف حق القيام ، واجتاز مرحلة الاختبار بنجاح فهذا هو الانسان الذي حقّق ما أراده الله منه ، وسيكون مآله العودة الى دار الخلود، التي عرضها كعرض السموات والأرض ، ومن أعرض عن هذه التكاليف ، فلم يقم بحقها ، ولم يرعها حق رعايتها ، ولم يجتز هذا الاختبار بنجاح • فسيكون مصيره الى جهنم دار العقاب ، وما الحياة الآخرة إلا امتـداد للحياة الدنيـا ، وانتقال من مرحلة الزرع الى مرحلة الحصاد ، قال تعالى :

● « قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبـع هـداي

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[٣] .

ومنذ أن هبط آدم الى الأرض أنزل الله عليه شريعة ورسالة ، وكلفه أن يقوم بها ، وأن يبلغها أولاده كي يقوموا بها ويعملوا بمقتضاها ، فكان آدم عليه السلام أول رسول أرسل على هذه الأرض .

ثم تعاقبت الأنبياء والرسل من ذريته ، ولقد إقتضت حكمة الله سبحانه أن يرسل الى الأمم رسلاً كلما ضلّوا الطريق وانحرفوا عن الجادّة رحمة بهم وإقامة للحجة عليهم . قال تعالى :

● « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » فاطر : / ٢٤

● « رسلاً مبشرين ومنذرين ، كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . النساء : / ١٦٥

ولقد كانت رسالة نبيّنا محمد ﷺ خاتمة الرسالات والشرائع ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكانت رسالته للناس كافة الى يوم القيامة . قال تعالى :

● « وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب : / ٤٠ .

● « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » سبأ : / ٢٨ .

حقيقة هذه التكاليف :

إن هذه التكاليف التي أنزلها الله على رسله ، من لدن آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام ، وأمرهم أن يبلغوها الى أممهم ، هذه التكاليف تحتوي على جانبين هامّين ، لا تقوم حياة الانسان على الشكل الصحيح إلا بهما ، وهذان الجانبان هما : العقيدة ، والتشريع .

---

(٣) البقرة : /٣٨ — ٣٩

أ ــ الجانب الاول : العقيدة :

وهي تعني الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر خيره وشره (ويقصد بالقضاء والقدر الايمان بعدالة الله في نظامه العام في الخلق والتدبير ــ مكافأة للمحسن أو مؤاخذة للمسيء) • وهي ما يعبّر عنها بأركان الايمان وأصول الدين • وهذا الجانب من الرسالات السماوية ، لم يختلف ولم يتغير على تعدّد الرسالات ، لأنه من الحقائق الثابتة التي ليست في ذاتها عرضة للتغير والتبدّل ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى •

ب ــ الجانب الثاني : التشريع :

ومعناه ايجاد الخط الذي يجب أن يسير عليه المرء في حلّ مشاكله المختلفة الجوانب ، ويجب علينا في هذا الجانب أن نعلم الأمور التالية :

١ ــ وجود تشريع يعني أن الله جلت حكمته لم يترك الانسان هملاً ، بل رعاه من أول وجوده على هذه الأرض ، وأوجد له منهاجا يقوده الى السعادة في الدنيا والآخرة إن هو سار عليه •

٢ ــ إن تطبيق التشريع الإلهي هو الذي يتحقق به رضوان الله تعالى ، وهو طريق العودة الى جنة الخلد ، التي أهبط منها الانسان الاول ، الذي هو آدم عليه السلام •

٣ ــ ان ثمرة وفائدة هذا التطبيق للتكاليف الشرعية ليست بعائدة الى الله سبحانه ، فالله هو الغني عن العالمين لا تنفعه طاعتنا ولا تضرّه معصيتنا ، وإنما فائدتها وثمرتها يجنيها الانسان نفسه ، لأنها هي الطريق الواضح الذي يسعده في الدنيا والآخرة •

٤ ــ ان تطبيق التشريع الالهي هو الصورة العملية للعقيدة ، فالايمان ليس عقيدة فحسب ، بل هو عقيدة وعمل •

٥ ــ إن التكاليف الإلهية لم تكن على وتيرة واحدة، بل اختلفت باختلاف التصوّر والحاجة ، وتغيرت من رسالة الى أخرى ، فالتشريعات كانت تضيق

وتتّسع على حسب البيئة والحاجة والوسط الذي نزلت فيه الرسالات الى أن جاءت خاتمة الرسالات السماوية رسالة سيدنا محمد ﷺ ، فنسخت سائر التشريعات ، وأتت بتشريعات خالدة ثابتة لا تتغير ، كما سنوضح ذلك ، وهي في الوقت نفسه صالحة لكل زمان ومكان ولعل هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام .

● « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاويته ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللّبنة ، فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين » متفق عليه .

٦ ــ ان هذه التشريعات والتكاليف ثلاثية الأهداف فهي :

آ ــ تنظم علاقة الانسان بخالقه عن طريق العبادة ، فالانسان يشعر باستمرار الحاجة الى خالقه ، وضرورة الثقة به والمثول بين يديه ، والالتجاء والاحتماء به ، ومناجاته ودعائه ، وانما يتم ذلك عن طريق تنفيذ التشريعات والتكاليف التعبدية التي يأمر بها سبحانه عباده ، وهي وحدها التي يكون طريق الوصول اليه جل جلاله .

ب ــ تنظم علاقة الانسان مع نفسه ، فنفس الانسان مطيّته التي توصله الى الهدف المنشود ، لا جرم أن الانسان بحاجة الى تحديد علاقته معها ، حتى لا يغنيها ويرهقها ، فتنقطع به في منتصف الطريق ،، وانظر الى قوله عليه الصلاة والسلام :

● « أما أنا فاني أصلي وأنام وأصوم وافطر ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

ج ــ تنظيم علاقة الانسان مع غيره ، ممن يشاركه في إقامة حياة اجتماعية، فالانسان منذ فطر اجتماعي بطبيعته ، ميّال الى اقامة حياة يتساعد على إقامتها مع آخرين من أبناء جنسه ، فكان لا بد من وجود تنظيم يعرّفه مايأخذ وما يدع ، حتى لا تسوء علاقاته مع الآخرين ، كي يسود بينهم الوئام والوفاق، ويتحقق استخلاف الله للانسان على أكمل صورة .

مهمة الانسان على هذه الارض :

من خلال ما سبق يتوضح لنا ان الانسان المكرم ، المسخر له ما في السموات وما في الأرض ، المستخلف في هذا الكون المكلف بتكاليف إلهية . هذا الانسان مهمّته على ظهر هذه البسيطة بشكل موجز هي الايمان بالله تمام الايمان والتطبيق لأحكامه وشرائعه تمام التطبيق كي يسعد في حياته الدنيوية ، وكي يتمكن في نهاية المطاف من العودة الى جنة الخلد . قال تعالى :

● « فأما إن كان من المقرّبين . فروح وريحان وجنة نعيم » للواقعة : / ٨٨ — ٨٩ .

● « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد . » ق : / ٣٠ — ٣٤ .

● « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيّاً . لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً . ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً . تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيّاً . » مريم : / ٦٠ — ٦٣.

نهاية الانسان :

دلت النصوص القرآنية على أن لحياة الانسان على ظهر الأرض نهاية ، وأن هذه النهاية ستكون الموت والفناء ، قال تعالى :

● « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .» الرحمن : / ٢٦ — ٢٧ .

ومعنى هذا الفناء أن حياة هذا النوع البشري ستنتهي ، ولن يبقى أي فرد من أفراده على وجه الأرض سواء في ذلك المؤمن والكافر ، والكبير والصغير .

جاء في الحديث عن إمارات الساعة : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً

طيبة فتأخذهم تحت آباطـــن فتقبض روح كل مؤمـــن ومسلم ، ويبقى شـــرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة »[1] .

ويكون هذا الفناء الكلّي عند النفخ بالصور النفخة الاولى ، قال تعالى:

● « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . » الزمر : / ٦٨ .

القضاء والقدر وحرية الانسان :

آ ــ تعريف القضاء والقدر لغة :

القضاء في اللغة معناه الحكم والصنع والتقدير ، قال الله سبحانه :

● « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » أي حكـــم . وقال سبحانه :

● « فقضاهن سبع سموات » أي صنعهن وقدرهن ، فأحســـن سبحانه الصنعة وأتقن التقدير .

والقدر : معناه في اللغة ، تبيين كمية الشيء بمقـــدار مخصوص ، ونظام محدود ، قال تعالى :

● « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وقال سبحانه :

● « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .

تعريف القضاء والقدر شرعا :

القضاء هو ارادة الله تعالى الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما ستوجد عليه في المستقبل ، كارادته الأزلية أن يخلق هذا الانسان على وجه الارض .

والقدر هو ايجاد الاشياء على مقاديرها المحدودة بالقضاء ، كايجاد هـــذا الانسان فعلا على وجه الارض طبق ما سبق في قضائه .

---

(١) رواه الامام مسلم ــ ويتهارجون قال النووي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس .

فمرجع القضاء (الى الارادة والعلم) ، ومرجع القدر (الى القدرة والفعل) هذا ما ذهب اليه الاشاعرة ، وقد عكست الماتريدية ، فجعلت تعريف القضاء للقدر ، وتعريف القدر للقضاء .

وكأنّ القضاء والقدر إشارة الى نظام الله العام في الخلق والتدبير ، حيث تمتزج الحكمة والرحمة والعدالة بعلم الله الكامل الشامل (للماضي والحاضر والمستقبل) ، وحيث يشير الله فيه الى قابلية التعديل بمشيئته المطلقة وكما قال تعالى :

● « لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » الرعد : / ٣٩ .

● « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » الرعد : /١١ .

ففي الآية الاخيرة يحدثنا الله تعالى ــ أن ما يجريه الله من تغيير على عباده من مكافأة الى مؤاخذة أ بالعكس مسبوق بما يجرونه هم في أنفسهم من تغيير (في مجال الاستقامة ــ أو الانحراف) ، وقال سبحانه :

● « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون » الصافات : / ١٢٢ ــ ١٢٣ .

وهذه الآية الكريمة ــ تفسير عملي للآية السابقة (إن الله لا يغير ما بقوم ...) ، كما أن هذه الآية الكريمة تعطينا معنى الدقّة البالغة في مجاري القضاء والقدر (في نظام الله العادل ــ في الخلق والتدبير) ، فتسبيحة واحدة من سيدنا يونس عليه السلام (بما أعربت من توبة صادقة مخلصة) ، أعادته الى صفاء العقيدة وأصالة التوحيد ، والاعتراف لله بالعدالة والكمال ، بدلت حكم الله تعالى (من السجن المؤبد ــ الى العفو) ، وهكذا كل انسان في مواجهة الاقدار الإلهية معرض للمكافأة أو المؤاخذة حسبما يصدر عنه (من نيّة ــ أو سلوك) فالجزاء (من جنس النية والعمل) .

وفي قوله تعالى :

● « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شـراً يره » الزلزلة : / ٧ ــ ٨ •

تأكيد لمعنى القضاء والقدر ، ونظام الله العام في الخلق والتدبير •

وعرّفه النووي : فقال : ان الله تبارك وتعالى قدّر الاشياء في القـدم ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده[1] ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقـع حسبما قدّرها ، فاذا أراد الله أمراً يسر له أسبابه الموصـلة اليـه (في علمه) ، حتى يقع على الوجه الذي علمه •

فالله سبحانه وتعالى وسع كل شيء رحمة وعلما ، وهو الحكم العدل، كما علم الاشياء ، علم أسبابها ونتائجها، وأحوالها وظروفها (الواقعة ــ والمتوقعة)، وربط بعضها ببعض (بعلمه حكمته وعدالته) بحيث يكون ظهورها فيما بعـد (على مسرح الواقع ــ مقرونة بأسبابها) ، طبقا لما أحاط به علمـه ، وسـبق به كتابه ، ومشيئته وارادته (في نظامه العام ــ للخلق والتدبير) •

---

(١) وعلم الله في هذا المجال ، عنصر كاشف فقط ، لا يتدخل تدخلا مباشرا في ايجـاد أفعال الانسان وصياغة سلوكه لأن الله سبحانه وتعالى منح الانسان حرية الارادة والاختيار بمحض جـوده لصياغة مصيره بنفسه ، فهو (مكلف ــ مسؤول) ، وانما يلزمه الله بتحمـل مسؤولية النتـائج (حيث باشر مقدماتها ــ باختياره الحر) ، والمثال الآتي يوضح لنا الفكرة :

خبّرنا علماء الفلك (بناء على حساب ــ قل أن يخطىء) أن خسوفا أو كسوفا سيحدث يوم كذا فاذا حدث هذا الخسوف أو الكسوف ، فانه يحدث نتيجة لدورات الافلاك الطبيعية (وفق نظامها المخصوص) لا لمجرد علم العلماء ، ولا يتطرق لذهن واحد منا القول بأن علماء الفلك مسؤولون عـن حدوث هذه الظاهرة لأننا نعلم أن العلم مجرد انكشاف فحسب .

وهذا حق بالنسبة لعلم الله (ولله المثل الاعلى) ، والفرق بين العلمين ، أن علم الانسان (علم الفلكي ــ على سبيل المثـال) علم قاصر ، ويعتريـه الخطأ والزلل ، في حين أن علم الله سبحانه كامل (شامل للماضي والحاضر والمستقبل) ولا يعتريه الخطأ بحـال ،

فحرية الارادة والاختيار هي القاعدة الاساسية في تربية الاسلام ، والانسان في ظلالهـا (مكلف ــ مسؤول) فالاسلام بعقيدته وسلوكه مع المنطق السليم ، والتفكير الصحيح ، لا يمكن أن يقف عقبة في سبيل تقدم الانسان (علميا ــ أو تربويا) ، أو أن يحول دون سير الحياة نحو التطور والازدهار والتكامل .

ينظر كتاب (عالمية الاسلام) للمؤلف أحمد علي الملا : ص٥٦ .

حكمة الايمان بالقدر :

الاسلام يهيب بالانسان المؤمن أن يحرك قواه الواعية (في نطاق الفكر ــ وفي مجال الروح) لتنمو في ظلال الثقة والايمان بالله • وحرية الارادة هي القاعدة الاساسية في تربية الاسلام •

لنذكر دائما أن هذا الكون (الذي نعيش فيه) خاضع لنظام عام إلهي في الخلق والتدبير ، يشع بعلم الله الكامل (الشامل للماضي والحاضر والمستقبل ، وعدالته الدقيقة ، وحكمته البالغة ، ورحمته الشاملة) •

وهذا الكون، قد ربط الله بين الاسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، فما يحدث الآن يكون نتيجة لما سبقه ، ومسبباً لوجود ما بعده (سنّة الله في خلقه ــ ولن تجد لسنة الله في خلقه ــ ولن تجد لسنة الله تبديلا •

فهذا الكون (خاضع للنظام العام الإلهي ــ في الخلق والتدبير) ، تظهر على صفحته المتتابعات (الاسباب والمسببات) والتتابع في قانون الله هو تغييرات يحدثها الانسان بارادته الحرة ، فتؤدي (باذن الله) الى تغييرات أخرى في حياة الناس (من المكافأة الى المؤاخذة ــ أو بالعكس) بحكم سنة الله في خلقه • وكما قال تعالى :

● « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : / ١١ •

فالانسان في دائرة وجوده الضيقة سيد نفسه في تصرفاته (بما منحه الله من ارادة حرة ــ بمحض جوده) وهو المسؤول عنها ، وعن كيفية استعمال القوى التي وهبت له • وفي مقدوره أن يرتفع بنفسه الىأعلى مستوى إنساني، إن هو سلك طريق التقوى والتربية الصحيحة ، وأتى البيوت من أبوابها ، كما قال تعالى :

● « ولكن البرّ من اتقى ••• وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون • » البقرة : /١٨٩ •

فالانسان المؤمن ــ (الذي حاز صفة التقوى ــ كمؤهل علمي تربوي)، ينال من الله الرفعة والكرامة ، كما قال تعالى :

● « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » المجادلة : / ٠

● « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » الحجرات / ١٣ ٠

فعناية الله (وكرامته) وتكريمه للانسان ، منطلقها العلم النافع ، وبذل العمل الصالح ، وجهاد النفس والهوى ، وإيثار ما يبقى على ما يفنى ، وكما قال رسول ﷺ :

● « الكيّس (العاقل) من دان نفسه (حاسبها ــ وذلّلها لطاعة الله) ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الاماني » رواه الامام مسلم والزندي وابن ماجه ــ عن شداد بن اوس رضي الله عنه ٠

فحكمة الايمان بالقضاء والقدر ، تهيب بالانسان للتعرف على سنة الله في خلقه ، على حكمته ورحمته وعدالته ، ومن ثم للانطلاق في مجالات العمل والبناء ، بقوة العلم ويقظة الايمان فيرفع من نفسه الى معالي الامور (التي يحبها الله ويرضاها) من الإباء والشجاعة من أجل إحقاق الحق والقيام بالواجب ويرفع في نفسه منسوب الثقة بالنفس ، شعوراً بسلطان الله الأعلى في هذا الكون ٠

والايمان بالقدر يري الانسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة الله العليا ، فاذا مسّه الضرّ فانه لا يجزع ، واذا حالفه التوفيق والنجاح فانه لا يفرح (فرحاً مبطراً ــ يخرجه عن عناية الله) واذا نجا الانسان من الجزع عند الفشل والاخفاق ، ومن الغرور والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنساناً سويّاً متّزناً ، بالغاً منتهى السمو والرفعة (بتوفيق الله) وهذا هو معنى قوله تعالى :

● « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن أبرأها إن ذلك على الله يسير ٠ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » الحديد : / ٢٣ ٠

وهذه سنة رسول الله ﷺ قولية وعملية ، توجهنا الى ممارسة الاسباب، واتيان البيوت من أبوابها ، فقد لبس الرسول الكريم ﷺ الدروع في الحرب، وحفر الخندق ، واستعمل العيون والحراس واستنصر بالحلفاء ، واستعان بالأصحاب ، وتداوى وأمر بالتداوي ، وكان يدّخر لقوت أهله مايكفيهم عاماً ، وأمر بالاقتصاد في العيش ، والشورى في الرأي ، والتعاون على البر والتقوى[1] .

ومن جوامع الكلم وفصل الخطاب (في هذا المعنى) قوله ﷺ (فيما يرويه الامام مسلم في صحيحه) :

● « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف،وفي كلّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء (أي خلاف مرادك) ، فلا تقل لو أني فعلت كذا .. كان كذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فان ، لو ، تفتح عمل الشيطان » .

وفي نهاية المطاف (من حيث الايمان بحكمة القضاء والقدر) لقد أعطانا القرآن الكريم درساً بليغاً (عقب غزوة أحد) تأكيداً للايمان بعدالة الله سبحانه ، معللاً أسباب الفشل والهزيمة في هذه الغزوة ، قال تعالى :

● « أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنّى هذا ؟.. قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير » آل عمران : / ١٦٥ .

ومعنى الآية الكريمة ــ أولما أصابتكم مصيبة « في قتل سبعين من المسلمين ــ في غزوة أحد) ، قد أصبتم مثليها (يوم بدر ــ حين قتلتم من عدوكم سبعين ــ وأسرتم سبعين) .

قلتم : أنّى هذا ؟ ــ أي من أين جاءت هذه المصيبة وهذه الهزيمة ؟ قل هو من عند أنفسكم، (أي بسبب إهمال الرماة لوصية رسول الله ﷺ) .

وفي نهاية المطاف ــ قرر الاسلام أن الانسان خلق مزوّداً بقوى وملكات

---

(١) ينظر كتاب (عالمية الاسلام) للمؤلف أحمد علي الملا ص ١٤٩ .

واستعدادات، وهذه القوى يمكن أن توجّه الى الخـير، كما يمكن أن توجّه الى الشر ، وكما قال تعالى :

● « ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » الشمس : / ٧ ــ ٨ •

والله سبحانه زوّد الانسان بالعقل الذي يميّز بين الحق والباطل، وأعطاه القدرة التي يستطيع بها أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وأن يأتي الخير ، ويدع الشر، وأن يقول الصدق ويجانب الكذب، ويرسم له منهج الاستقامة (الحكمة والرحمة والعدالة)، بما أنزل من كتب ، وبما أرسل من رسل وما دام العقـل المميّز موجوداً والقدرة على الفعل صالحة ، والمنهج المرسوم واضحاً فقد ثبت للانسان حرية الارادة واختيار الفعل •

وعلى الانسان أن يواجه مسؤوليات الحيـاة (كمكلف ــ مسؤول) . يقول الله تعالى :

● « إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفورا » الدهر : / ٣ •

والهداية هنا الدلالة على الطريق الأقوم •

وكل إنسان مسؤول عن تهذيب نفسه وإصلاحها، حتى تصل الى الكمال، فان إصلاحها وتزكيتها (وحسن تربيتها ــ كما يحـب الله ويرضى) ، وتنميتها بالعلم النافع والعمل الصالح ، هو سبيل فلاحها وفوزها برضا الله سبحانه ، كما أن إهمالها (غافلة ــ جاهلة) هو السبيل الى خيبتها وخسرانها • قال تعالى :

● « بل الانسان على نفسه بصيرة » القيامة : / ١٤

أي أن الانسان عارف بما تنطوي عليه نفسه ، فعليـه أن يتعهدها بالعلم والتربية والإصلاح ، حتى يكـون من المفلحين ، وأن يحذرها الخيبة والغفلة والجهالة ، فان الجزاء (عند الله) من جنس العمل • قال تعالى :

● « قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها » الشمس : /٩ــ١٠

● « من عمـل صالحاً فلنفسـه ومن أسـاء فعليها ، وما ربـك بظلاّم للعبيد » فصلت : / ٤٦ •